سياسية عربية
كل الحقيقة للجماهير

AL-HADAF
الهدف

عدد خاص

وداعاً يا حكيم

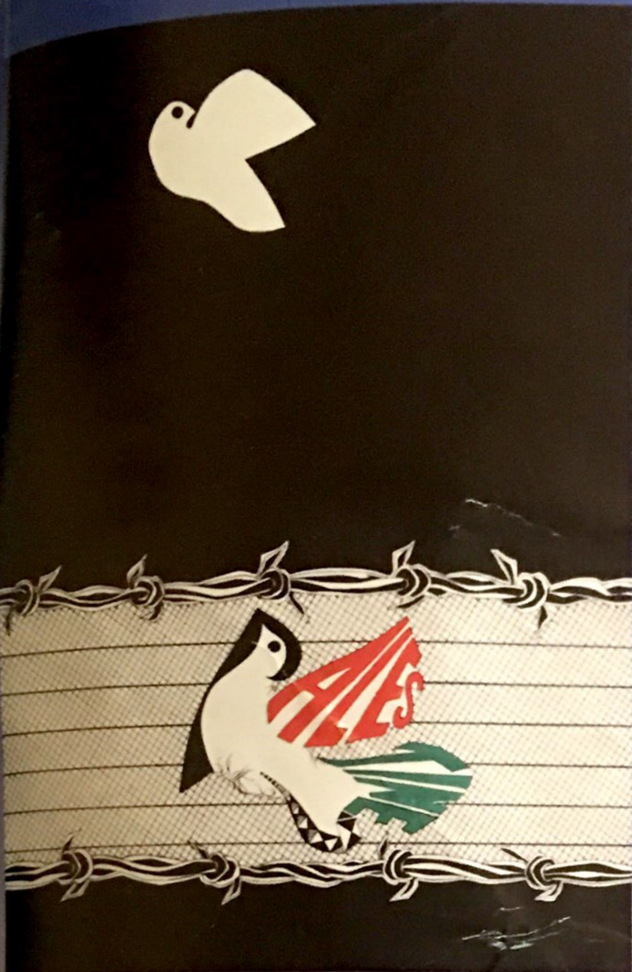
سلام عليك
حين ولدت
ويوم قاتلت
ويوم في اللد
تبعث حيا

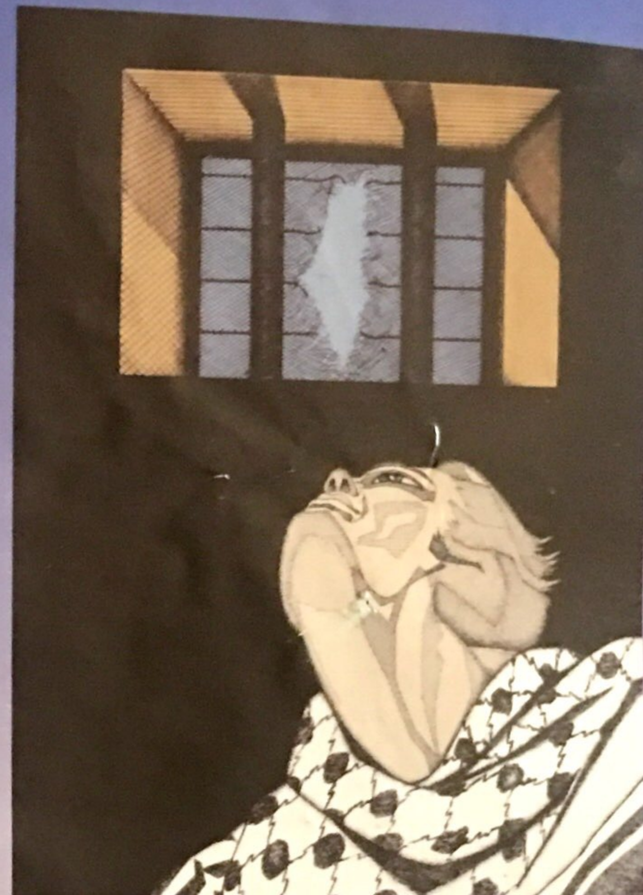


العدد ١٣٩٨ - شباط (فبراير) ٢٠٠٨ - السنة الثامنة والثلاثون - الثمن ٤٠ ل.س - ٢٠٠٠ ل.ل
AL-HADAF - No. 1398 - 5/2/2008
تصميم: م. جمال الأبطح

من أعمال الملصق للفنان التشكيلي

زهدي العدوي











وداعاً يا حكيم

يرحل الحكيم (جورج حبش) في لحظة حالكة من تاريخ الشعب الفلسطيني، وفي وقت تتكاثرفيه العقبات والمصاعب أمام مسيرة كفاحه البطولي من أجل نيل حقه المشروع في الحياة الحرة، في وطن مستقل.

ولعل الحكيم، بشخصيته الفذة، والقوية ومناقبه الأصيلة، ونبله اللانهائي هو خير من يجسد هذه المسيرة البطولية، وخير من يمثلها، وخير من يحمل رايتها. أليس هو مؤسس حركة القوميين العرب أول من رفع السلاح من أجل فلسطين؟ أليس هو مؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين؟

لذلك فإن غيابه يستدعي ليس فقط حياته الشخصية وسجله النضالي الكبير الحافل، وإنما تاريخ هذا الشعب وكفاحه عبر قرن من الزمان.

وفي حديث يأتي على عجالة لا بد من الوقوف أمام المفاصل الأساسية لحياة الحكيم وعطائه ومواقفه، ولأن الرجال بمواقفهم يعرفون. فقد كانت الوحدة الوطنية الفلسطينية تشكل موقفاً راسخاً وأساسياً عند الحكيم، بل كان هو صمام أمانها وهو حارسها وداعيتها الأول. كيف لا وهو الذي كان يذكر دائماً بأن البنادق كلها يجب أن تتجه إلى العدو، وهو الذي كان في كل موقف وصدام سياسي تصل فيه الخلافات إلى حدها الأقصى، يصر على الحوار الديمقراطي والحوار وحده والمعارضة النظيفة، هما عنده الحل الوحيد لأي خلاف فلسطيني. فلسطيني.

وكما كان الحكيم وحدوياً، فإنه كان عروبياً بامتياز، ليس بحكم الأيديولوجيا، بل بحكم الوعي العلمي المنهجي الرصين لقضية فلسطين وظروفها التاريخية ولإيمانه العميق بحق الأمة العربية في التوق للحرية والازدهار. وكما كان فلسطينياً وعروبياً كان الحكيم مناضلاً أممياً بارزاً ألهم الآلاف من المناضلين حول العالم كرمز لليسار العربي الأممي، ورمزاً للكفاح من أجل الحرية التي لم تكن عنده لتتجزأ، بل كانت كلاً متكاملاً حرية إنسان وحرية وطن.. حرية سياسية وحرية اجتماعية واقتصادية وفكرية.

وكانت العدالة في جوهر فكر الحكيم ومن هذا الجوهر استمد أفكاره عن تحرير المرأة وحقوقها، فكان لا يهادن فيها ولا يساوم كعادته في قناعاته الراسخة ومواقفه الصلبة.

ولأنه يدرك العدو وطبيعته دعا الحكيم لبناء القوة ليس على الصعيد المادي، بل على الصعيد الروحي والفكري وكان يقول: قد نخسر معركة أو حرباً على جبهة القتال، ولكن يجب أن نحمي جبهتنا الفكرية لأن هزيمة الفكرة تعني أنه قضي علينا.

آمن الحكيم بالثورة طريقاً إلى فلسطين.. وأفنى حياته في سبيلها فكان شهيد النضال الطويل الذي لم يتزعزع إيمانه يوماً ولم تكل عزيمته، ذلك كله كان بعضاً من جورج حبش، الرجل الذي لا يفيه حب العالم حقه!!.

AL- HADAF
الهدف
سياسية عربية. شهرية
شباط (فبراير) - ٢٠٠٨ - العدد - ١٣٩٨ - السنة الثامنة والثلاثون
الثمن ٤٠ ل. س - ٢٠٠٠ ل. ل
AL-HADAF - No.1398 - February - 2008



أسسها
عام ١٩٦٩
الشهيد
غسان كنفاني

رئيس التحرير: **جواد عقل**

سكرتير التحرير: **أحمد. م. جابر**

المدير الفني: **زهدي العدوي**

ثمن النسخة

لبنان ١٠٠٠ ل.ل	الجزائر ١٥ ديناراً	المغرب ١١ درهم
سوريا ٢٠ ل.س	ليبيا دينار واحد	أمريكا وكندا ٣ دولار
الأردن ٥٠٠ فلس	تونس ١.٢٥ د.ت	ألمانيا ٣ يورو
العراق ٥٠٠ د.ع	صنعاء ١٥ ريالاً	إسبانيا ٣٠٠ بيزيته
الإمارات ١٠ دراهم	السودان ٦ جنيهات	

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي بما فيها أجور البريد:
سوريا ٦٠٠ ل.س - لبنان والأردن ٣٠ دولار
- بقية الدول العربية ٥٠ دولار

يتم الاشتراك بإرسال إشعار الإيداع بقيمة الاشتراك السنوي (أو نصف السنوي) باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:
بنك بيروت والبلاد العربية - شتورا - لبنان
رقم الحساب:
(AC.No.0013-373179-001)
أو بإرسال شيك بنكي باسم رئيس التحرير
دمشق / ص.ب: ٣٠١٩٢

المكاتب:

دمشق: ص.ب ٣٠١٩٢ - هاتف: ٦٣٢٨٢٦٧ - فاكس: ٦٣١٩٣٧٤
بيروت: ٣٠٩٢٣٠ - عمان: ٦٩٦٣٤٠ - الجزائر: ٥٩٤٥٤٨ - ٣٨٤٣٠٤

الموقع الرسمي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على الإنترنت:
http://www.pflp.ps

الهدف على الإنترنت: http://www.alhadafmagazine.com
البريد الالكتروني: alhadaf@mail.sy

التوزيع

* التوزيع في الجمهورية العربية السورية:
المؤسسة العربية لتوزيع المطبوعات
* التوزيع في المغرب: الشركة الشريفية للتوزيع والصحف

كلمة

ونحن نضع اللمسات الأخيرة على هذا العدد جاءنا الخبر المحزن، برحيل المعلم الكبير جورج حبش عن عمر يناهز الثمانين عاماً، منح أكثر من ستين منها لشعبه وقضية وطنه، فكان الرجل القضية، تجسدت فيه فلسطين، وتجسد فيها، فكانت موضوع كفاحه وأحلامه وأفكاره.

وبرحيل جورج حبش تفقد الوطنية الفلسطينية آخر عمالقتها من جيل المؤسسين الكبار، مما يشكل خسارة فادحة للحزب الذي أسسه وقاده لثلاثين سنة وتزيد، ولرفاقه وأنصاره والالاف الذين ألهمهم في كفاحهم اليومي من أجل الحرية والديمقراطية والتقدم.

في مواجهة هذا الرحيل المفجع فإن الهدف وهي تنعي القائد المعلم والمؤسس، تتقدم بأحر التعازي لحزب جورج حبش، ورفاقه، وعائلته وإلى كل أولئك الذين رأوا فيه رمزاً لنضالهم ومثلا وقدوة لكفاحهم الشاق من أجل فلسطين.

وأسرة تحرير الهدف في الوقت الذي تقدم فيه هذا العدد (السنوي) لذكرى جورج حبش، فإنها تعد قراءها بإصدار عدد استثنائي مكرساً للقائد الراحل...

في هذا العدد

الحدث:

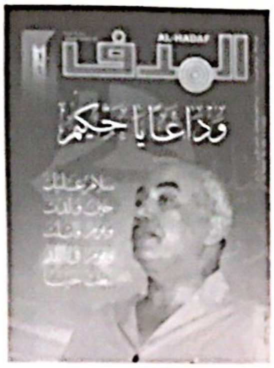
شؤون فلسطينية:

شؤون عربية:

شؤون العدو:

ثقافة وفنون:

موضوع الغلاف:



وداعاً
يا حكيم





حدث

بوش في رام الله

حقيقة السلام الأمريكي

جواد عقل

وصل جورج بوش إلى المنطقة بعد أن سالت دماء الأبرياء في فلسطين والعراق ولبنان برصاص الأمريكيين وحلفائهم الإسرائيليين وسط ضجة إعلامية وسياسية مبرمجة، للترويج (للكرم) الأمريكي على المنطقة بدفع ما يسمى بعملية السلام في المنطقة بعد مؤتمر أنابوليس، الذي فضح مستوى الوهن والضعف العربي الذي يعشعش في نفوس البعض من العرب والفلسطينيين، بإمكانية إحلال سلام وتراجع إسرائيل عن أطماعها في الأرض العربية والفلسطينية. فكان المشهد الترويجي للمؤتمر بنتائجه كارثياً، لأن النتائج التي تمخض عنها هذا المؤتمر الذي جرى الإعداد والحشد الدولي له هي إمكانية تطبيع عربي مجاني والإعلان عن انطلاقة عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية برعاية أمريكية.

هذه الانطلاقة التي وصلت إلى طريق مسدود بفعل السياسات والممارسات الإسرائيلية، فكيف يمكن لها أن تعيد الإقلاع في ظل غياب كامل للشرعية الدولية وقراراتها كمرجعية لعملية سلام قد تفضي إلى نتائج إيجابية إذا ما التزمت إسرائيل بقراراتها وأبدت استعداداً للانسحاب من كافة الأراضي العربية المحتلة منذ الخامس من حزيران عام ١٩٦٧، والتخلي عن أطماعها في الأراضي الفلسطينية والسورية، والتوقف عن فرض الوقائع الجديدة على الأرض الفلسطينية بما ينافي القانون والشرائع الدولية (الجدار، وقرارات ضم القدس والجولان السوري المحتل، والمستوطنات، ونهب المياه.. الخ). بدون ذلك لن يكون لما يسمى بعملية السلام أي معنى على الرغم من تمسك الطرف الفلسطيني والأطراف العربية بحقوقها كاملة غير منقوصة. ولعل مجريات الأحداث وتطوراتها على الأرض الفلسطينية، ومآل ما يسمى بعملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية كلها تشير إلى عبثية الأوهام لسلام يُستجدى من عدو يستظل بمظلة الراعي الأمريكي غير النزيهة والذي يغيب بشكل متعمد الشرعية الدولية وقراراتها ويدعم ويتبنى المواقف والسياسات الإسرائيلية فيما يخص الحدود والوقائع الجديدة والمستوطنات والقدس، وربط كل العملية بما يسمى بالحرب على الإرهاب واعتبار المقاومة المشروعة للشعب الفلسطيني إرهاباً، كما يدعو لتكاتف كل الجهود الفلسطينية (السلطة) والإقليمية والدولية للقضاء على المقاومة.

لقد جاءت زيارة بوش للمنطقة لتقدم دليلاً إضافياً على أن الرئيس الأمريكي قد جاء للمنطقة لتأمين حشد عربي ضد إيران وسط تلميحات ضبابية أمريكية عن تحقيق إنجاز على جبهة السلام الفلسطينية الإسرائيلية.

ولقد كان بوش واضحاً - لحد الوقاحة - حين أكد أن صداقة أمريكا لإسرائيل ستضمن أمن ويهودية الدولة وطالب الفلسطينيين بالتخلي عن حق العودة وتقديم تنازلات صعبة من أجل عملية السلام.

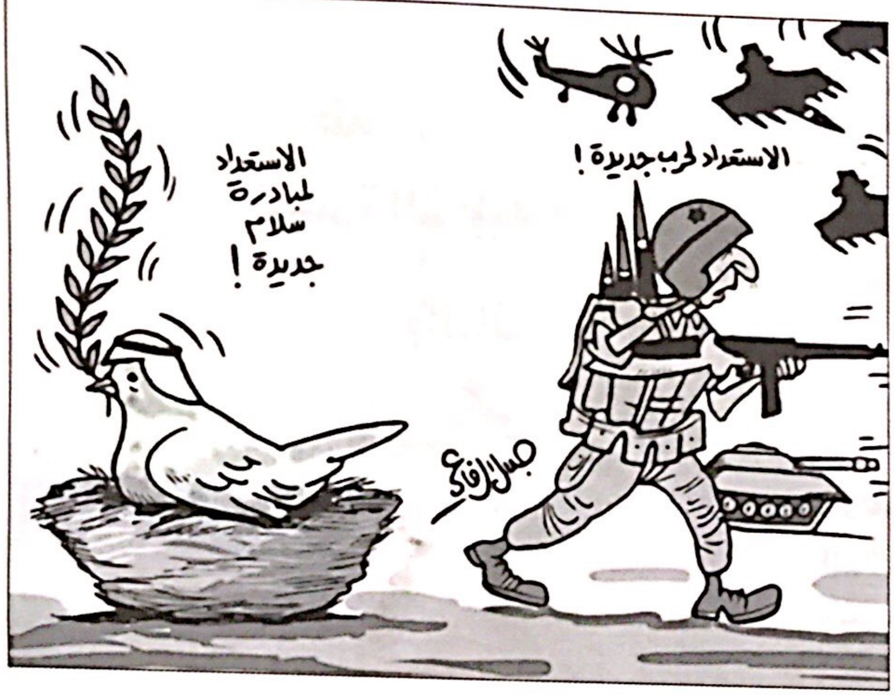
ولا شك في أن تصريحات بوش تلقي بظلال من المسؤولية على كافة القوى والشخصيات الفلسطينية لتدرك هول المؤامرة التي تنتظرهم في المرحلة المقبلة إذا لم يسارعوا إلى البحث الجاد والمسؤول عما يوحدهم، ويجمع



صفوفهم، لمواجهة الأخطار الكبرى المحدقة بالقضية الفلسطينية، ذلك ما يستدعي وبصورة جادة:

أولاً، التمسك بـ م.ت.ف باعتبارها ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني في كافة أماكن تواجده، والعمل على إعادة بنائها وتفعيلها على أسس ديمقراطية شفافة، بما يضمن المحافظة على قدرتها التمثيلية والكفاحية لشعبنا، ووقف محاولات البعض لاستخدام المنظمة في المعركة الداخلية الفلسطينية، وإعادة العمل بهياكلها ومؤسساتها التي أضحت مشلولة بفعل سياسة الإبعاد والإقصاء التي اعتمدتها القيادة المتنفذة في م.ت.ف، وعدم السماح باستغلال تلك الثغرات بالتشكيك بالمنظمة ودورها التوحيدي والتمثيلي للشعب الفلسطيني، ومواجهة كل محاولات إعادة تفعيلها على أسس ومنطلقات تضمن ترسيخ هياكلها ومؤسساتها التي لم تعد توافق تطورات الحالة الوطنية، ولا تستجيب لضرورات إجراء انتخابات على أساس التمثيل النسبي الكامل. فالمنظمة هي الهوية والكيان ويجب الحفاظ على هذا المكسب وعدم تبديده بسياسات وأفكار مغامرة تلتقي في النهاية مع هدف عدونا لحصر حقوقنا في الضفة والقطاع، وتغييب جوهر المسألة الوطنية التي تحاول الإدارة الأمريكية وحكومة أولمرت من خلال طرح الدولة اليهودية للتحايل على القرارات الدولية الخاصة بحق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أرضهم وممتلكاتهم وتعويضهم عن الأضرار المادية والنفسية والاجتماعية التي لحقت بهم.

ثانياً، التزام كافة القوى الوطنية والإسلامية بوقف كل ما يوتر الأجواء الوطنية ونعني حركتي (حماس وفتح)، باعتبارهما طرفي المشكلة الوطنية الداخلية، وضرورة تحريم الاقتتال السياسي، والحفاظ على حق حرية النشاطات والفعاليات للقوى الوطنية، والابتعاد عن كل مؤثرات التوتير الداخلي والتي ألحقت أفدح الأضرار بقضيتنا ومشروعية نضالنا الوطني، ومكنت القوى المعادية من الاستفادة من الخلاف وتنفيذ مخططاتها الإجرامية بحق شعبنا وقواه المناضلة.



ثالثاً، إطلاق مبادرة وطنية فلسطينية قادرة على تحديد الأهداف المرحلية للنضال الوطني، وتحدد الثوابت الوطنية وتتمسك بها، وتحدد أشكال النضال القادرة على تجاوز محاولات وصم نضالنا الوطني المشروع بالإرهابي، مؤهلة لهزيمة الإستراتيجية العسكرية الإسرائيلية الهادفة لاستنزاف شعبنا، من خلال خطة عسكرية إرهابية تستهدف المقاومة والمواطنين باعتبارهما جوهر عملية الصمود الأسطوري لشعبنا في ظل أسوأ ظروف تعيشها حركة تحرر وطني. على أن تعتمد تلك المبادرة عناوين واضحة وملموسة لحقوقنا وأهدافنا، تتخطى النمطية بحيث تكون مؤهلة لاستقطاب تأييد محيطنا الإقليمي أولاً والدولي ثانياً، بما يشكل رافعة سياسية ودبلوماسية تجمع عليها تلك الأطراف وتؤسس لقدرتنا على تأمين أدوات ضغط فاعلة رسمية وشعبية لإجبار إسرائيل على التراجع عن جرائمها وإجراءاتها غير الشرعية بحق الشعب والأرض.

رابعاً، إبداء كل مرونة ممكنة ومطلوبة لحل الخلاف الوطني ديمقراطياً، ومن خلال الالتزام والاستعداد لقبول الخيار الشعبي، وصناديق الاقتراع، والانتخابات الديمقراطية بديلاً وطنياً مجمعاً عليه بعد حصول حوارات وطنية شاملة، وجامعة، ومخلصة تستخلص الدروس والعبر وتركز على القواسم المشتركة وطنياً.

فالتحديات والمسؤوليات التي تنتصب أمام حركتنا الوطنية تستدعي التركيز على القواسم الوطنية والمصالح العليا لشعبنا، فالرئيس بوش الذي أمضى فترتيه الرئاسيتين بوضع العالم على شفير وهاوية الحروب الاستعمارية الدموية التي لا تمت لقيم الحرية والديمقراطية بصلة، يحاول اليوم في آخر أيامه أن يضع لمساته على قضيتنا ومنطقتنا، تلك اللمسات التي تتسم بالتنكر لحقوقنا ولمصالحنا وبالكراهية لأمتنا ومصالحها وقيمها وتراثها، فهو لا يرغب بإنعاش آمال السلام الحقيقي القائم على العدل وإنما جاءنا يحمل في جعبته نذائر شؤم لأوطاننا ومستقبل أمتنا ومنطقتنا، ويريد منا أن نكون شاهدي زور على جرائمه وجرائم حلفائه، وبيادق لمغامراته العسكرية القادمة ضد إيران. فرسالته كانت رسالة حرب، ودعوة للخنوع والاستسلام. والأحرار في أمتنا لا يمكن أن يقبلوا تلك الرسالة وسيعملون بإخلاص وتفان لخلق مناخات الحوار الوطني والقومي والإسلامي البناء لمواجهة الأخطار والتهديدات الحقيقية التي حملتها رسالة بوش الاستعمارية الصهيونية المشبوهة.

اللجنة المركزية للجبهة الشعبية

تنعي المؤسس والقائد القومي العربي الكبير

جورج حبش

نعت اللجنة المركزية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين إلى الشعب الفلسطيني، وإلى أمتنا العربية، وإلى كل أحرار العالم، مؤسسها، وقائد مسيرتها ونضالها، المناضل والقائد القومي العربي الكبير، د.جورج حبش، مؤسس حركة القوميين العرب والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

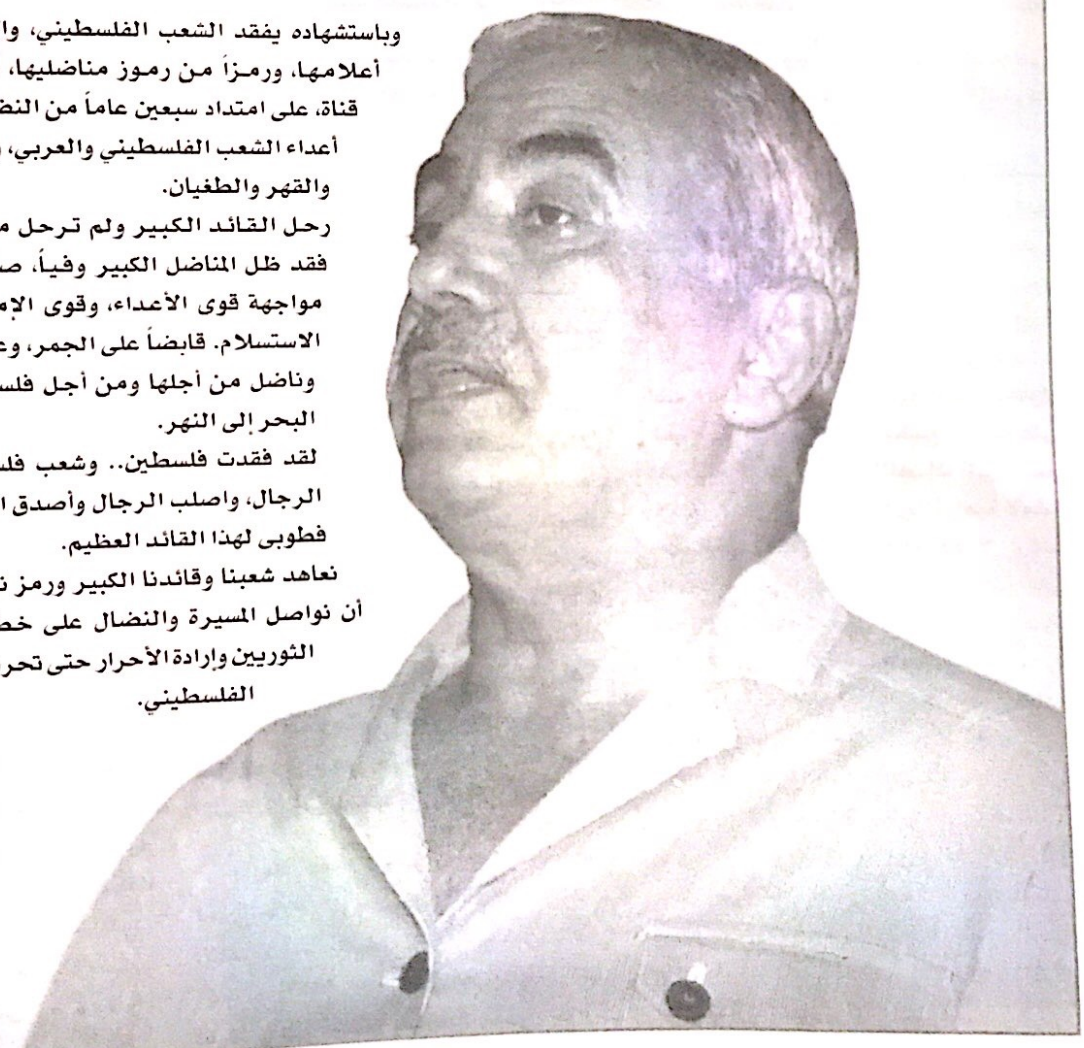
النص الكامل للنعي:

بقلوب يعتصرها الحزن والألم، تنعي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.. إلى الشعب الفلسطيني، وإلى أمتنا العربية، وإلى كل أحرار العالم، مؤسسها، وقائد مسيرتها ونضالها

المناضل والقائد القومي العربي الكبير

الدكتور جورج حبش

مؤسس حركة القوميين العرب
والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين



وباستشهاده يفقد الشعب الفلسطيني، والأمة العربية علماً من أعلامها، ورمزاً من رموز مناضليها، صلباً، عنيداً لم تلن له قناة، على امتداد سبعين عاماً من النضال والكفاح في مناهضة أعداء الشعب الفلسطيني والعربي، وفي مواجهة قوى الظلم والقهر والطغيان.

رحل القائد الكبير ولم ترحل مبادئه وأفكاره ورؤاه.. فقد ظل المناضل الكبير وفياً، صادقاً، شجاعاً، ثائراً في مواجهة قوى الأعداء، وقوى الإمبريالية العالمية، وقوى الاستسلام. قابضاً على الجمر، وعلى المبادئ التي آمن بها وناضل من أجلها ومن أجل فلسطين، كل فلسطين من البحر إلى النهر.

لقد فقدت فلسطين.. وشعب فلسطين رجلاً من أغلى الرجال، واصلب الرجال وأصدق الرجال، وأنبل الرجال.. فطوبى لهذا القائد العظيم.

نعاهد شعبنا وقائدنا الكبير ورمز نضالنا، وملهم مسيرتنا أن نواصل المسيرة والنضال على خطاه، وعلى نهجه، بعناد الثوريين وإرادة الأحرار حتى تحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني.

اللجنة المركزية
للجبهة الشعبية
لتحرير فلسطين

٢٠٠٨/١/٢٦

منظمة الجبهة الشعبية في ليبيا تحيي ذكرى الانطلاقة والانتفاضة

في مقر السفارة الفلسطينية في الجماهيرية الليبية، أقامت الجالية الفلسطينية احتفالاً بمناسبة الانطلاقة الأربعين والذكرى العشرين للانتفاضة، وذلك بحضور عدد كبير من السفراء والقناصل العرب والأجانب، وممثلي فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، والاتحادات والمنظمات الشعبية، وألقيت في الحفل كلمتين الأولى، للسفير الفلسطيني باسم الآغا الذي أشاد بدور الجبهة الشعبية الكفاحي والوحدوي في صفوف الثورة والشعب. ودعا إلى إطلاق سراح أمينها العام أحمد سعدات من السجون الإسرائيلية. الكلمة الثانية ألقاها الرفيق فوزي . ممثل الجبهة في الجماهيرية.. وأكد فيها على المعاني الكبيرة للذكرى الأربعين، مطالباً باستئناف الحوار الوطني الشامل وإعادة ترتيب البيت الفلسطيني وتعزيز الوحدة الوطنية، والتمسك بإعلان القاهرة ٢٠٠٥، ووثيقة الوفاق الوطني ٢٠٠٦.

منظمة الجبهة الشعبية في كوبا تحيي الذكرى الأربعين لانطلاقة الجبهة في هافانا

بمناسبة الذكرى الأربعين لانطلاقة الجبهة الشعبية أقامت منظمة الجبهة في جزيرة الحرية /كوبا احتفالاً جماهيرياً حضره السادة السفراء العرب والأجانب وحشد من الأصدقاء والرفاق، وتخلله عرض للفيلم الوثائقي «رجل في عين العاصفة» الذي يتحدث عن السيرة الذاتية للشهيد الأمين العام السابق أبو علي مصطفى.

إضافة إلى عدد من الكلمات التضامنية مع الشعب الفلسطيني والجبهة الشعبية في ذكرى انطلاقتها.. وكان أول المتحدثين ممثل الحزب الشيوعي الكولومبي الذي ألقى كلمة الأحزاب الأجنبية المعتمدة في كوبا، وتلاه رئيس الاتحاد العربي في كوبا الرفيق الفريدو ديربتشي، ثم كلمة منظمة تضامن شعوب أفريقيا، وآسيا، وأمريكا اللاتينية ألقاها السيد رافائيل أنريكي بالنيابة عن السكرتير العام للمنظمة، ثم كلمة نائب رئيس اللجنة الكوبية للتضامن مع فلسطين البروفسور ريكاردو منير سلمان، ثم قصيدة شعرية للشاعر الفنزويلي خوان شافيز لوبيز، ثم الكلمة الختامية ألقاها الرفيق باسل إسماعيل . ممثل الجبهة الشعبية في كوبا.

مجزرة غزة.. وضرورة الرد العربي

أصدرت الأمانة العامة للمؤتمر القومي العربي بياناً تضامنياً مع قطاع غزة يوم ٢٠٠٨/١/١٥، جاء فيه:

هذه الجريمة البشعة هي حلقة من حلقات وخطط الإبادة الجماعية للشعب الفلسطيني، والتي كانت إحدى الأهداف الحقيقية لزيارة المحافظين الجدد إلى فلسطين وبعض العواصم العربية.

وأدانت الأمانة العامة للمؤتمر القومي العربي،الإرهاب الصهيوني المتواصل ضد أرض وشعب ومقدسات فلسطين، وكل من يدعمه ويشارك في ارتكابه وخاصة الإدارة الأمريكية ورئيسها بوش الابن. وأكدت إدانتها للصمت العربي والدولي عن هذه الجرائم البشعة. كما شجبت استقبال بوش الذي كان يجب أن يعتقل كمجرم حرب ومجرم ضد الإنسانية على أية أرض عربية يحل بها، لا أن يستقبل بالأحضان. مطالبة الأنظمة العربية بالرد الصارم على ما يرتكبه قادة الإرهاب الصهيوني في حق الشعب الفلسطيني الصامد، وناشد البيان السلطة الفلسطينية إيقاف التفاوض العبثي مع الصهاينة، وناشدت الأمانة العامة للمؤتمر كل الفصائل الفلسطينية، وخاصة فتح وحماس، العودة الفورية إلى الحوار من أجل تجديد وترسيخ الوحدة الوطنية الفلسطينية على قاعدة الثوابت الفلسطينية، ووثيقة الوفاق الوطني، وإعلان القاهرة حول ضرورة إعادة بناء منظمة التحرير الفلسطينية التي لا يمكن إلا أن تكون بيتاً لكل الفلسطينيين حتى يصدق عليها القول بأنها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني.

الجمعيات والمؤسسات الفلسطينية والعربية في برلين تعقد اجتماعا موسعا للجالية وتصدر بيانا جماهيريا

عقدت الجمعيات والمؤسسات الفلسطينية والعربية اجتماعاً موسعاً في مقر الجالية الفلسطينية في برلين يوم السبت الموافق ٢٠٠٨/١/١٢ وذلك من أجل نصرة فلسطين والأهل هناك.. ولإطلاق صرخة مدوية في وجه ممارسات الاحتلال الوحشية الظالمة بحق أبناء شعبنا وأرضنا.. من حصار وتجويع وتضييق.. وانتهاك لكل المحرمات.. في الضفة وغزة هاشم.. ومن أجل استنهاض الهمم لأمتنا العربية في شتى أنحاء المعمورة.. ليعبروا أيضاً عن غضبهم وسخطهم تجاه هذا الحصار الظالم على القطاع..!

وجاء في البيان الصادر عن الاجتماع:

إن خطورة اللحظة الراهنة تكمن في الحالة الفلسطينية المنقسمة على نفسها واستمرارها، والتي تزيد الموقف الفلسطيني التفاوضي ضعفاً، أمام رياح الضغوط الأمريكية والإسرائيلية..

إن استعادة الوحدة الوطنية الفلسطينية باتت شديدة الإلحاح وضرورة حتمية.. اليوم أكثر من أي وقت مضى.. وهذا ما يملي على حركتي فتح وحماس، وعلى كل القوى السياسية، وكل من موقعه، وحسب مسؤولياته اعتماد الخطوات الضرورية لإنهاء

حالة الانقسام، والعودة لطاولة الحوار الفلسطينية، والدخول مرة أخرى في عملية توحيدية، مستندة لوثيقة التوافق الوطني في ٢٧/٦/٢٠٠٦ والتي رسمت بوضوح أهداف النضال الوطني الفلسطيني التي لا يحق لأحد التنازل عنها. أياً كان موقعه في المؤسسة، أو في الحالة الفلسطينية.. وكل أمر قابل للحوار.. ويطرح على مائدة الحوار.. بما في ذلك العودة للشعب الفلسطيني ليقول كلمته في الانتخابات بموجب قوانين التمثيل النسبي الكامل على أساس أن الوطن دائرة واحدة.. متلازماً مع فتح الباب أيضاً للبدء بإعادة بناء م.ت.ف الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني والكيان المعنوي لكل فلسطيني على أسس ديمقراطية.

إننا نطالب القيادة الفلسطينية بالالتفات لصوت فلسطيني الشتات وسماع نداءاتهم المتكررة.. بعدم البدء بالمفاوضات قبل الإفراج عن الأسرى والمعتقلين في سجون الاحتلال، ووقف الاغتيالات، والمطاردات، والاعتقالات، وإزالة الحواجز، والرفض المطلق للاعتراف بيهودية دولة الاحتلال لما يشكله ذلك من دلالات خطيرة بدءاً بشطب الحقوق الفلسطينية والطرد الجماعي لفلسطينيي المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ وتكريس القدس مدينة يهودية كذلك..

ونطالب جامعة الدول العربية وأمينها العام بالتحرك الفوري لرفع ظلم الحصار المضروب على غزة بكل الإمكانيات والوسائل..!

وكذلك نطالب المجتمع الدولي والشرعية الدولية.. بإنصاف الشعب الفلسطيني ودعمه في الحصول على حقوقه ووقف الانحياز للاحتلال.. ورفع الحصار عن مليون ونصف المليون فلسطيني يعيشون في قطاع غزة..!

جمعية التضامن مع الشعب الفلسطيني في تركيا تحيي الذكرى العشرين لانطلاقة الانتفاضة والأربعين للجبهة الشعبية

بحضور المئات من أنصار الشعب الفلسطيني في تركيا والجالية الفلسطينية في اسطنبول أحيت جمعية التضامن مع الشعب الفلسطيني الذكرى العشرين لانطلاقة الانتفاضة الفلسطينية الأولى والذكرى الأربعين لانطلاقة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. بدأ الاحتفال بكلمة رئيسة الجمعية/ فسون بندر التي تحدثت عن الفعاليات التي تقوم بها الجمعية في تركيا لدعم الشعب الفلسطيني ونضاله المشروع من أجل تحقيق أهدافه بإقامة دولته المستقلة والديمقراطية. ودعت بندر محبي الشعب الفلسطيني في تركيا لدعم مشروع التكافل الأسري الذي سيعزز صمود الفلسطينيين وأعلنت عن إطلاق حملة واسعة على صعيد تركيا للتضامن مع الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الرفيق أحمد سعدات من أجل إطلاق سراحه من سجون الاحتلال الإسرائيلي.

وبعد إلقاء قصائد من الشعب الفلسطيني والتركي عن فلسطين، وفقرات موسيقية شارك فيها شباب أتراك وفلسطينيين عرضت أفلام عن فلسطين تحدثت عن النضال الفلسطيني الطويل ضد الاحتلال الصهيوني.

كلمة فلسطين ألقتها الشابة ميساء مصلح واستعرضت فيها مراحل النضال المستمر للشعب الفلسطيني وصولاً للأحداث المؤسفة في قطاع غزة بين فتح وحماس والتي أضرت بسمعة الفلسطينيين وقدمت خدمة مجانية للعدو، ودعت مصلح في كلمتها إلى ضرورة إنهاء حالة الانقسام والعودة إلى الحوار والوحدة لأنها السبيل الوحيد أمام الفلسطينيين لمواجهة الاحتلال الذي مازال قابعاً على أرض فلسطين.

كما تحدث في الاحتفال الباحث والكاتب التركي حالوك غرغر، وقال: «إن إسرائيل هي منذ البداية مشروع استعماري واستيطاني وأداة في يد القوى الإمبريالية لمنع تقدم ووحدة شعوب منطقة الشرق الأوسط.. ولفت غرغر إلى التعاون القائم بين الولايات المتحدة وإسرائيل والأنظمة القمعية في المنطقة. وأضاف أن إسرائيل الرسمية تغذي ثقافة الحقد تجاه الفلسطينيين وتمارس أبشع الأساليب المختلفة لإنهاء النضال المستمر والمتجدد للشعب الفلسطيني، لكن كل ذلك لن يغير في أن النصر هو حليف الشعوب المناضلة.

الإعلان عن تشكيل «الهيئة الوطنية لإحياء الذكرى الستين للنكبة ـ سورية»

بعد سلسلة من الاجتماعات التي عقدتها مجموعة من اللجان والمراكز الأهلية الناشطة في الدفاع عن حقوق ومصالح اللاجئين وحقهم في العودة إلى ديارهم وممتلكاتهم، اتفقت اللجان الموقعة أدناه على تشكيل هيئة وطنية لإحياء الذكرى الستين للنكبة في سورية، وعلى اعتبار عام ٢٠٠٨ عام اللاجئ الفلسطيني، وفقاً للأسس التالية:

١- التأكيد على مواصلة الكفاح الوطني الفلسطيني من أجل استرداد الحقوق الوطنية الفلسطينية وعودة اللاجئين إلى ديارهم وممتلكاتهم التي شردوا منها عام ١٩٤٨.

٢- تعزيز وحدة اللاجئين الفلسطينيين أينما تواجدوا للدفاع عن حقوقهم ومصالحهم وفي مقدمتها حق العودة إلى الديار والممتلكات التي شردوا منها عام ١٩٤٨.

٣- مواجهة المخاطر التي تستهدف حق العودة والقرار ١٩٤ كقرار دولي داعم للحق الوطني والطبيعي والتاريخي للاجئين الفلسطينيين.

٤- التأكيد على منظمة التحرير ممثلٌ شرعيٌ ووحيدٌ للشعب

الفلسطيني وضرورة إعادة تفعيلها وبناء مؤسساتها على أسس وطنية وديمقراطية على أساس اتفاق القاهرة (آذار ٢٠٠٥) ووثيقة الوفاق الوطني (حزيران ٢٠٠٦).

٥- إبراز ما سببته النكبة المستمرة منذ عام ١٩٤٨ من مآس للشعب الفلسطيني وحث المجتمع الدولي على القيام بمسؤولياته تجاه الشعب الفلسطيني، والتأكيد للمجتمع الدولي وأطرافه على تمسك شعبنا بحقوقه الوطنية.

٦- مواجهة كافة المشاريع التصفوية التي تستهدف حق العودة، والتأكيد على حق شعبنا باستخدام كافة أساليب النضال السياسية والجماهيرية والإعلامية وحقه في المقاومة لاستعادة الحقوق الوطنية الفلسطينية.

وقد حمل الإعلان تواقيع الأطراف المتفقة على تشكيل هيئة التنسيق وهي ٢٣ اتحاداً ولجنة وتجمعا ونادياً بينها نادي الشهيد غسان كنفاني ومركز أبناء البلد للدفاع عن حق العودة ومنظمة الشبيبة الفلسطينية ولجان المرأة الشعبية الفلسطينية ومؤسسة فرح للطفولة

وقد أصدرت الهيئة الوطنية لإحياء الذكرى الستين للنكبة في سورية بياناً جماهيرياً أدانت فيه تصريحات الرئيس الأمريكي الأثناء جولته في المنطقة.

اعتصام في اللاذقية



بمبادرة من منظمة الجبهة الشعبية في اللاذقية تداعت فصائل العمل الوطني الفلسطيني في مخيم العائدين في اللاذقية إلى الخروج بمسيرة جماهيرية ضخمة تضامنا مع الأهل المحاصرين في غزة، كما نفذت في ذات السياق مسيرة شموع يوم ١/٢١ ونفذ اعتصام أمام مقر الأمم المتحدة في المخيم يوم ١/٢٢ رفعت فيه برقية تنديد بما يحدث في قطاع غزة موجهة للأمين العام للأمم المتحدة.

السيد بان كي مون - الأمين العام للأمم المتحدة

نحن جماهير الشعب الفلسطيني اللاجىء في مخيم العائدين المعتصمين أمام مقر وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في اللاذقية ندين ونستنكر المجاز والجرائم التي يرتكبها العدو الصهيوني بحق شعبنا الفلسطيني في قطاع غزة، وندعوكم لتحمل مسؤولياتكم اتجاه حرب الإبادة التي تشنها دولة الاحتلال والإرهاب الإسرائيلي قتلا وتهديماً بقذائف الطائرات والدبابات، والأسلحة المحرمة دولياً، وخنقاً وتجويعاً بالحصار، وإغلاق كافة المعابر، وقطع الكهرباء، وإمدادات الوقود مما يحول قطاع غزة، بسكانه المليون ونصف مليون فلسطيني، إلى معسكر اعتقال رهيب شبيه بمعسكرات الاعتقال النازية تقترف فيه شتى أشكال العقوبات الجماعية وجرائم الحرب التي فاقت بوحشيتها ما قامت به النازية في الحرب العالمية الثانية.

نطالبكم بصفتكم أميناً عاماً للأمم المتحدة وتطبيقاً لاتفاقية جنيف الرابعة بالتدخل الإنساني العاجل لحماية الشعب الفلسطيني الراسخ تحت أتون الاحتلال.

لاجئي مخيم العائدين في اللاذقية

تصريح صحفي

تعقيباً على ما ورد على لسان بعض منظمي المؤتمر الوطني الفلسطيني المنعقد في دمشق حول حضور الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين للمؤتمر أصدر ناطق باسم الجبهة بياناً قال فيه:

أن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تؤكد أنها قد اتخذت قراراً واضحاً بعدم حضور المؤتمر وأبلغت ذلك لكل المعنيين بالأمر مشفوعاً بالأسباب التي يعرفها الجميع قوى، وشخصيات، وفصائل المنظمة المشاركة في المؤتمر.

وأكد الناطق أن الجبهة تنفي نفياً قاطعاً حضور أي من أعضاء الجبهة، أو من ينوب عنها.

وختم الناطق القول بتمنياته للمؤتمرين النجاح في القيام بخطوة باتجاه توحيد الساحة الفلسطينية وإنهاء حالة الانقسام والتمسك بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني في كافة أماكن تواجده، والاستمرار بالمقاومة حتى تحقيق كامل أهداف شعبنا الوطنية.

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

المكتب الصحفي

دمشق ٢٠٠٧/١/٢٣

المصلحة الوطنية فوق أي اعتبار

عبد الرحيم ملوح

من الصعب جداً الكتابة عن الوضع الداخلي الفلسطيني بمعزل عن التطورات السياسية المتعلقة بالقضية الفلسطينية، والتطورات الإقليمية والدولية، والعكس صحيح، فالقضية الفلسطينية ولدت مدوّلة وهي أكثر قضية في العالم تتداخل فيها العوامل المحلية والإقليمية بالدولية. ولا يمكن لصاحب قرار سياسي أو معني بهذه القضية إلا أن يأخذ هذه العوامل بتداخلها والبيئة السياسية التي تتفاعل فيها، ليكون قراره قريباً من الصواب.

فلم يكن بالإمكان أن يعقد مؤتمر أنا بوليس، قبل الانقسام الفلسطيني وقبل ما أقدمت عليه قيادة حماس من حسم سياسي بوسائل عسكرية في حزيران ٢٠٠٧ . وكلنا يذكر أن الرئيس بوش دعا لهذا المحفل السياسي في ١٦ تموز ٢٠٠٧ محاولاً توظيف حالة الضعف الفلسطيني بعد ما قامت به قيادة حماس، ولوم العرب والمجتمع الدولي للفلسطينيين جميعاً على ما اقترفوه بحق أنفسهم.

إن تقييم قرار سياسي أو أية خطوة سياسية لمطلق صاحب قرار سياسي، وهو هنا قيادة حماس، يجب أن يخضع لمعيار مدى خدمته للمصالح الوطنية الفلسطينية وصون وتقوية الكيان السياسي، وتعزيز الوحدة الوطنية، وصمود، ومناعة، وممانعة، ومقاومة الشعب الفلسطيني، أو العكس. واستناداً لهذا المعيار وبعد ما يزيد عن ستة أشهر من حزيران الماضي وما قامت به قيادة حماس، نجد بدون شديد عناء أن الوضع الفلسطيني الوطني والاجتماعي أسوأ كثيراً في مرحلة ما بعد حزيران الماضي مما هو قبله. وليس مقبولاً من أحد هنا أن يستحضر مبرراته الفئوية لتفسير خطواته الضارة وطنياً، أو استحضار المصاعب المنتصبة أمامنا، والتي تتصدر المسؤوليات القيادية للقوى في السلطة، أو في المعارضة مهمات حلها، وليس التذرع بها لتبرير الفشل أو العجز وإلقاء اللوم على الغير، والقول: «ألم أقل لكم؟!!».

والمسؤولية القيادية السياسية لقيادة حماس عما آلت إليه الأمور في الساحة الفلسطينية بعد انخراطها في الاقتتال، وصولاً للحسم العسكري وما ترتب عنه من كوارث، وتبعه من ممارسات اجرامية وقمعية، لا تعفي قيادة فتح من تحمل قسطها الكامل من المسؤولية، ومما آلت إليه الأمور، بما فيها ردود الأفعال على ما أقدمت عليه قيادة حماس في حزيران الماضي. وفي مقدمتها إصدار بعض المراسيم الرئاسية، أو إقدام حكومة الطوارئ على عدد من الإجراءات والممارسات الضارة، وبخاصة ما جرى في يوم ٢٠٠٧/١١/٢٧ في كل من رام الله والخليل. وبذات الوقت ليس مقبولاً من أي طرف اللجوء لمناقصة سياسية مع الاحتلال على حساب المصالح الوطنية، تحت ضغط الحسابات الفئوية.

وعلى قاعدة عدم مشروعية فصل التداخل بين العوامل المحلية، والإقليمية، والدولية سياسياً، لا بالنسبة لصاحب القرار، أو صاحب الرأي، من الهام والضروري الاستيعاب الجدي للتطورات السياسية بترابطها وتداخلها واتجاهها عملياً، وانعكاسها المباشر وغير المباشر على أوضاعنا.

لقد تم التنكر لوثيقة الأسرى والتي باتت تسمى وثيقة الوفاق الوطني بعد موافقة الجميع عليها، والتباطؤ بتنفيذ إعلان القاهرة بعد التوقيع عليه من الجميع برعاية القيادة المصرية، والذهاب إلى الاقتتال الداخلي، ومن بعده إلى مكة والاتفاق بشكل ثنائي (محاصصة ثنائية) على ما سمي باتفاق مكة بين كل من فتح وحماس، وبعد العودة من مكة بأشهر قليلة حدث ما زلنا نعيش تداعياته وارتداداته المدمرة فلسطينياً حتى اليوم.

وتبع هذا تسريع اللقاءات الفلسطينية الإسرائيلية على مستوى الرئيس أبو مازن ورئيس الوزراء اولمرت وزيارات كوندليزا رايس المتعددة، مع العديد من وزراء خارجية عدد من الدول صاحبة القرار السياسي الدولي. وصولاً لمؤتمر أنا بوليس، وباريس، والذي حُضر لهما بأكبر حشد دولي خارج الأمم المتحدة، ومن الدول والمجموعات والمؤسسات صاحبة القرار الدولي. وكان من المقدر لمثل هكذا محافل أن تكون مؤتمراً دولياً حقيقياً، لو أنهما عقدا على قاعدة المرجعية السياسية والقانونية للأمم المتحدة وقراراتها ذات الصلة، وتحت رعايتها، وبهدف وضع آلية لتنفيذها، وفي ظل ميزان قوى فلسطيني وعربي ودولي مختلف عما هو قائم في منطقتنا على الأقل. ولم يكن من المتوقع أن يخرج عن أنا بوليس أكثر مما حدث بسبب ما سبق وبسبب الوظيفة التي عُقد من اجلها. وما كان من حكومة أولمرت إلا العودة لتنفيذ سياساتها وبرامجها في الاستيطان والحصار وتهويد القدس واقتحام المدن في الضفة وغزة واعتقال واغتيال المزيد من الفلسطينيين، أي فرض حقائق أمر واقع جديدة على الأرض والمفاوض معاً . ولسان حالها يقول هكذا افهم وظيفة المؤتمر، يساندها في هذا المحافظون الجدد بزعامة الرئيس بوش.

وكان وظيفة محفل أنا بوليس الأخرى غير المرئية، هي فتح صندوق (بندورة) كان مغلقاً عن أعين كثيرين لترافقه وتخرج منه التطورات السياسية المتعددة . ففي سياق التحضير له وما بعده حدث ما يجب أن يلفت النظر، ويفرض علينا قراءته بترابطه وانعكاساته على قضيتنا الوطنية وهو:

(١) تقرير لجان الأمن الأمريكية السادس عشرة، صحيح أن هذا التقرير لم يؤكد أن المشروع النووي الإيراني لم يكن يستهدف الوصول للتخصيب من أجل الاستعمال العسكري، أو أنه لا يمكن العودة مجدداً لمتابعته، الأمر الذي يفتح المجال أمام الإدارة الأمريكية للعودة للحديث عنه من منظور مصالحها الحيوية ومتطلبات حمايتها سياسياً

أو حتى عسكرياً. لكن الأهم من كل هذا أنه قال ما معناه: أن إيران أوقفت البحث في هذا المجال منذ عام ٢٠٠٣، وهذا يعني أن إدارة بوش كانت تكذب على المواطن الأمريكي والمجتمع الدولي عندما كانت تتحدث أجهزتها السياسية والإعلامية عن مخاطر هذا المشروع، لأغراض يمكن معرفتها ولو بالاستنتاج. ومن أجل خدمة حواراتها الثلاثية وغير الثلاثية الجارية مع إيران والعراق، حول العراق وأمنه، وتقسيم النفوذ والأدوار فيه. ولم تقم كبير وزن طوال المدة الماضية لتأكيد القيادة الإيرانية المتكرر، بأن إيران لن تلجأ للتحضير من أجل الصناعة النووية العسكرية لأسباب دينية. مع أنها استفادت من خطابات وتصريحات الرئيس نجاد التي نُظر إليها بالاستفزازية لخدمة ترسانتها السياسية والإعلامية.

(٢) ترافق مع هذا الزيارة التي كسرت جليد العلاقات بين كل من سوريا، والأردن بعد أربع سنوات من الفتور إن لم نقل التوتر، والذي قام بها عبد الله الثاني ملك الأردن لسوريا. ونوقش فيها عدد من المسائل السياسية الراهنة في مقدمتها: مشاركة سوريا في أنا بوليس وتشديد مراقبتها لحدودها مع العراق، ومساهمتها بحل المشاكل السياسية في لبنان، على أن تحل مشاكله داخلياً بعيداً عن كل التدخلات الخارجية، وبأنها ستبذل جهدها لاستعادة الوحدة للساحة الفلسطينية. فاهتمام القيادة السورية السياسي ينصب في هذه الأيام، إضافة للقضايا التي سبق ذكرها، على إنجاح مؤتمر القمة العربية المقرر عقده بدمشق في آذار ٢٠٠٨، وضمان مشاركة جميع الرؤساء والملوك والأمراء فيه، ومعالجة العلاقات العربية وفي مقدمتها العلاقات السورية مع بعض الدول العربية. وعلى عقد مؤتمر موسكو أو مؤتمر أنا بوليس٢، والذي يستهدف إضافة لما سيتم على المسار الفلسطيني، وضع الجولان والمسار السوري الإسرائيلي على الأجندة العملية، ووضع ما تبقى من أراضي محتلة في جنوب لبنان على أجندة المسار الإسرائيلي- اللبناني برغم عدم التأكيد. حتى الآن. على عقده وعدم وضوح جدول أعماله.

(٣) وتبع لقاء محفل أنا بوليس، مشاركة الرئيس الإيراني أحمد نجاد في قمة مؤتمر التعاون الخليجي. واللافت للنظر أن هذا يحدث في ظل العلاقة المميزة بين دول التعاون الخليجي والإدارة الأمريكية، وفي ظل الهجوم الأمريكي المتوتر على إيران وأحمد نجاد شخصياً إعلامياً وسياسياً، واعتباره رأس ما يطلقون عليه محور الشر . ومن الملفت للنظر والداعي للاهتمام أن الرئيس الإيراني أول رئيس يشارك في هذا المؤتمر، وفي مرحلة سياسية يجري الحديث أمريكياً فيها عن عزل إيران من جهة والحوار معها حول العراق وربما المنطقة.

(٤) وليس بعيداً عن هذه التطورات، بأن تطالب كل من السعودية، ومصر، وسوريا، وتركيا، وروسيا، ومنظمة المؤتمر الإسلامي الرئيس عباس بضرورة الحوار مع قيادة حماس واستعدادها للقيام بدورها ، رغم إدراك أصحاب القرار في هذه الدول أنها لم تبذل الجهد المطلوب لمعالجة الانقسام الفلسطيني، وبالتالي عدم نضج الأوضاع بعد لهذا الحوار. ويتبع ذلك بأن يخرج قسم كبير من الحجاج من معبر رفح، الذي لا يمكن فتحه إلا بموافقة: مصرية، إسرائيلية، أوروبية فلسطينية مسبقة، وأن توضع تأشيرات الدخول للسعودية في سفارتها بمصر بدلاً، من وضعها من سفارتها في عمان كما اتفق عليه سابقاً بين الجهات الرسمية السعودية والفلسطينية.

(٥) وفي هذا الإطار يمكن النظر للتطورات الايجابية النسبية فيما يتعلق بالاتفاق على العماد سليمان رئيساً للبنان بين أطراف المعادلة السياسية اللبنانية، ودعم هذا من أكثر من لاعب وصاحب قرار إقليمي ودولي مؤثر في الوضع اللبناني.

وما نشهده من معيقات بما فيها اغتيال العميد فرنسوا الحاج، والحديث عن صفقة سياسية شاملة... الخ يصب في حسابات الربح والخسارة أقل أو أكثر لهذا الطرف المحلي أو الإقليمي أو الدولي أو ذاك أكان ذلك فيما يتعلق بالوضع اللبناني أو الأوضاع الإقليمية الأخرى.

كل هذا يؤشر على أن الإدارة الأمريكية، باتت تنظر لصراعات المنطقة بما فيها الصراع العربي الإسرائيلي وفي قلبه الإسرائيلي الفلسطيني من زاوية الاحتواء وليس المواجهة أو البحث عن حل ولو بالجراحة، كما كانت تصرح سابقاً عن إيران بالذات والى حد أقل سوريا. وبهذه السياسة عودة لسياسات أمريكية سابقة. وما يميزها الان ثلاثة أمور، الأول: الوجود العسكري الأمريكي الكثيف في المنطقة وبخاصة في منطقة الخليج، والأمر الثاني: بروز قوتين إقليميتين هما إسرائيل وهي حليف أمريكا الاستراتيجي، وضمانة من ضمانات حماية مصالحها الحيوية في المنطقة (النفط، السوق، الموقع الاستراتيجي). وإيران والتي لا ترى أن لها مصلحة في نهاية المطاف بالصدام معها، اذا كان بالإمكان احتواء موقفها، فإيران عامل مؤثر في العراق وأفغانستان ودول وسط آسيا والخليج العربي ولبنان وفلسطين ، وكلها أماكن لأمريكا فيها مصالح حيوية كبرى وباستطاعة إيران الضغط على عصب هذه



المصالح. والأمر الثالث: تراجع دور المحافظين اليمينيين في القرار السياسي الأمريكي، بعد انكشاف سياستهم المستندة لغطرسة القوة، ولمعالجة المشكلات الدولية على قاعدة إما معي كلياً أو ضدي كلياً.

وبالنسبة لإسرائيل، فإن أفضل مرحلة بالنسبة لها هي الظرف الحالي الذي يعاني فيه الوضع الفلسطيني من الانقسام ، لأنه نقل الصراع بهذا القدر أو ذاك من فلسطيني - إسرائيلي، إلى فلسطيني - فلسطيني ولو موقتاً، على الرغم من وجود الاحتلال وممارساته البشعة. مما حرر إسرائيل نسبياً من التبعات السياسية لاحتلالها ، فأصبحت تلقي بالجزء الأكبر منها على الوضع الفلسطيني، وانسجاماً مع هذا تقوم بفرض سياستها الاحتلالية وممارساتها العدوانية،

وبالنسبة لإسرائيل، فإن أفضل مرحلة بالنسبة لها هي الظرف الحالي الذي يعاني فيه الوضع الفلسطيني من الانقسام ، لأنه نقل الصراع بهذا القدر أو ذاك من فلسطيني - إسرائيلي، إلى فلسطيني - فلسطيني ولو موقتاً، على الرغم من وجود الاحتلال وممارساته البشعة. مما حرر إسرائيل نسبياً من التبعات السياسية لاحتلالها ، فأصبحت تلقي بالجزء الأكبر منها على الوضع الفلسطيني، وانسجاماً مع هذا تقوم بفرض سياستها الاحتلالية وممارساتها العدوانية، بقليل من النقد الخارجي والداخلي الذي بإمكانها تحمله. وانطلاقاً من هذا فإنها تريد أن يبقى للسلطة في الضفة وسلطة الأمر الواقع في غزة القدرة على متابعة الصراع بينهما وليس القدرة على الصراع معها على حقوق ومصالح الشعب الفلسطيني وفي مقدمتها حقه بتقرير المصير وبناء دولته المستقلة وحق اللاجئين بالعودة لديارهم وفقاً للقرار ١٩٤. وستتابع سياستها هذه بتغذية الانقسام، وتخريب محاولات العودة للحوار والوحدة، وسياستها العدوانية بفرض الحصار والاستيطان وبناء الجدار والاعتقال والاغتيال، أي فرض حقائق أمر واقع يومياً بالتزامن مع الحديث المفرغ من أي مضمون عن المفاوضات، ومن ثم الانطلاق منها لدورة جديدة.

- وفي ذات الوقت - من الخطأ الاعتقاد أنه ليس بحسابات القيادة الإسرائيلية خلط أوراق اللعبة، إذا وصلت لاستنتاج أن ما يجري من إعادة ترتيب لأوضاع المنطقة من الممكن أن يضر بحساباتها التوسعية، منفردة أو بالاتفاق مع اليمين المحافظ بالإدارة الأمريكية كأن تشدد عدوانها على قطاع غزة، أو احتلال أجزاء منه لفترة قصيرة. أو تقدم على اغتيال قيادات فلسطينية مؤثرة، كما سبق لها وأقدمت على هكذا أعمال وآخرها في شمال سوريا.

انطلاقاً من معادلة التداخل العميق بين المحلي والإقليمي والدولي في الشأن الفلسطيني، فإن المسؤولية الوطنية العليا، وليس الاعتبارات الفئوية أو الشخصية، تقتضي من كل مسؤول، أو من يتحدث بمسؤولية وطنية فلسطينية، أن يقف ليعيد تقييم الأمور في ضوء المتغيرات الدولية وانعكاسها على الوضع والقضية الفلسطينية، ويقرأها كما هي في الواقع ، وليس كما يراد له قراءتها، أو كما يتمنى أن تكون، فالأمر سيان في النتيجة. والنتيجة هناك متغيرات سياسية إقليمية ويقف وراءها قوى دولية، وعلينا أن لا نكون كشعب وقضية وطنية ضحية لهذه المتغيرات، أو نتحمل تبعاتها لاحقاً. وهذا يفرض، إعادة الإمساك بمشروعنا الوطني وتناقضنا مع الاحتلال باعتباره التناقض الأساس وترتيب وضعنا الداخلي على أسس ديمقراطية، وصون كياننا السياسي الوطني منظمة التحرير الفلسطينية.

كل هذا وغيره يملي على القوى الفلسطينية وفي المقدمة طرفي الصراع حماس وفتح، العودة لترتيب البيت الفلسطيني، عبر الحوار الوطني الشامل، بمشاركة جميع قوى وفعاليات وشخصيات شعبنا. ومن المفيد أن تكون برعاية وضمانة عربية من دول الجامعة العربية وبخاصة من كل من مصر، والسعودية، وسوريا، والأمانة العامة للجامعة العربية.

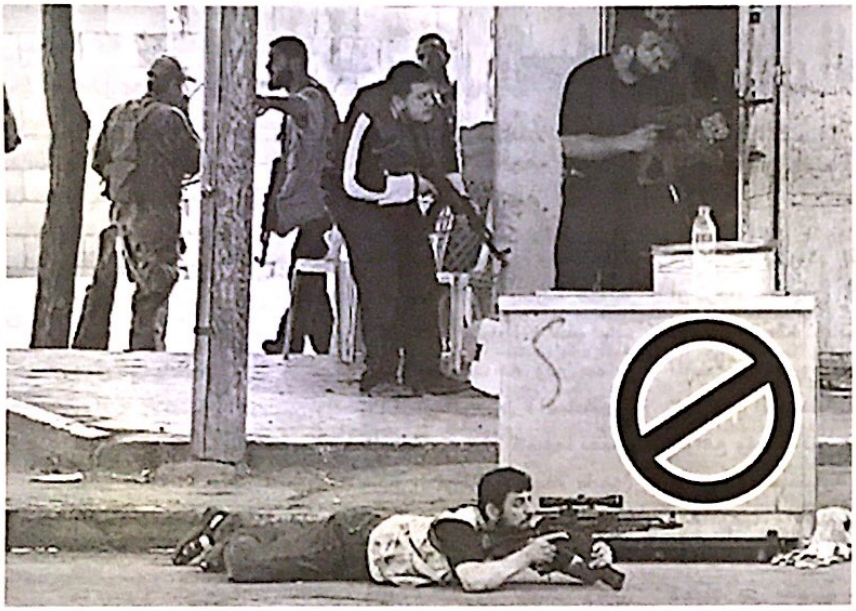
لقد تقدمت الجبهتان الشعبية والديمقراطية بمبادرة، سلمت للأخوة في حماس وفتح في غزة، وهذه المبادرة الواقعية المشتركة لا زالت تشكل أساساً سليماً لاستعادة الوحدة. فهي تتحدث عن المدخل للعودة لطاولة الحوار ، وهو: تراجع قيادة حماس عن الحسم العسكري وتداعياته، وتسليم المقرات الرسمية والأمنية للرئيس أبو مازن أو من ينتدبه، وتشكيل حكومة انتقالية بموافقة ودعم مختلف القوى وفي المقدمة منها فتح وحماس. وتتولى هذه الحكومة الانتقالية التحضير لانتخابات رئاسية وتشريعية على أساس قانون التمثيل النسبي الكامل، ومتابعة طاولة الحوار عملها لوضع الآليات لكل ما ورد في إعلان القاهرة ووثيقة الوفاق الوطني (وثيقة الأسرى). لتطبيق ما ورد فيهما من قضايا أقرها الجميع في آذار ٢٠٠٥ وحزيران ٢٠٠٦. والضمانة للنتائج وللوحدة بأيدي القوى المشاركة في الحوار، وبأيدي الشعب الفلسطيني قبل أي طرف آخر.

وفي ذات الاتجاه فقد بات اليوم أكثر من ضرورة وطنية وحاجة سياسية بناء الائتلاف



الوطني الديمقراطي، ليساهم بدوره في صون المشروع الوطني وحماية الوحدة الوطنية والكيان السياسي الوطني ، وتقع مسؤولية هذا العمل على عاتق الديمقراطيين واليساريين من قوى وهيئات اجتماعية وشخصيات. فإقامة هذا الائتلاف أو التجمع بمعزل عن التسمية، أصبح مطلباً سياسياً وطنياً وديمقراطياً ، ليجمع الديمقراطيين واليساريين في إطاره وليفسح المجال أمامهم للقيام دورهم الوطني والديمقراطي الفاعل في صون المشروع الوطني والكيان السياسي والديمقراطية الداخلية . والتجربة الماضية البعيدة والقريبة زكت هذا المتطلب ووضعته على جدول أعمال الديمقراطيين جميعاً.

إننا نشهد اليوم انكشاف الساحة الفلسطينية بمختلف قواها، أمام الاحتلال وممارساته العدوانية، وأمام الضغوط والابتزاز الدوليين، بسبب حالة الضعف الشديد الناجمة عن الانقسام. وللجم هذه التعديات على شعبنا وحقوقه، فالمطلوب من قيادة حماس أولاً أن تتقدم بالخطوة الأولى التي لا بد منها وهي التراجع عن الحسم العسكري وتداعياته والعودة للشراكة مع الآخرين عبر الديمقراطية وصناديق الاقتراع وليس عبر فرض رأيها وحضورها بالبندقية، والأساليب القمعية ، ومطلوب من الرئيس أبو مازن وقيادة فتح الاستجابة لخطوة حماس بتعليق مفعول عدد من المراسيم الرئاسية والذهاب لطاولة الحوار، وإيقاف ردود الأفعال ومحاكاة الممارسات الضارة والشاذة.



بدون هذا من الصعب الحديث عن معالجة الوضع الفلسطيني المنقسم على نفسه، والذي دخل في دائرة التدمير الذاتي على أيدي من يقولون أنهم جاؤوا لإنقاذه من ظلم الاحتلال وممارساته، وليغيروا الواقع الصعب الذي يعيشه. ليلقوا على كاهله مظالم جديدة، من صنع أيديهم والكل يدعي أنه ينطق ويتصرف استناداً لإرادة الشعب. وعندما يحزم الشعب أمره ويقرر خياره، فإنهم يتنكرون لهذا الخيار، ويقودونه إلى الاقتتال الداخلي والحسم العسكري والى احتمال تكرار تجربة بنغلادش - باكستان جديدة بوعي أو بدون وعي، وفي ظل سيطرة الاحتلال على كل شيء. ولا ننسى مطلقاً - ولو للحظة - بأن الواقع والبناء عليه يفرض نفسه في النهاية، أي أن الكثير من اللاعبين الدوليين والإقليميين سيجدون من المفيد التعامل العملي وحتى السياسي مع الواقع القائم بمعزل عن وجهة نظرهم الايجابية أو السلبية فيه. فالعلاقات الدولية تقوم على المصالح وليس المبادئ وهي في النهاية ليست جمعية خيرية. إن على القيادة الفلسطينية أولاً، والأطراف السياسية والاجتماعية ثانياً، وبشكل جماعي ومشترك ثالثاً، صب جهدها، لإعادة ترتيب البيت الفلسطيني بكل مكوناته على قاعدة الخيار الديمقراطي، وبالاعتماد على الشعب الفلسطيني. ونبذ الرهان على الزمن لإثبات صوابية الموقف الفئوي والحساب الذاتوي لهذا الفصيل أو ذاك، أو الرهان على العوامل الخارجية لترجيح كفة هذا الفصيل، أو ذاك في المعادلة الداخلية الفلسطينية، أو انتظار معجزة من السماء لتقديم خشبة الخلاص، فالإيمان بالمعجزات ولّى منذ زمن بعيد.

لقد كشف الواقع والتطورات المرافقة له، عقم خيار اللجوء إلى الحسم السياسي بوسائل عسكرية في ظل الاحتلال، وما ألحقه من ضرر فادح بالقضية الوطنية وبالديمقراطية وبالوحدة الوطنية ،وبصمود ومناعة وممانعة ومقاومة الشعب الفلسطيني. وجاء محفل أنا بوليس، ليظهر عقم الرهان على العامل الخارجي في ظل الانقسام الداخلي، وضعف الدور العربي في مواجهة التحالف الأمريكي - الإسرائيلي الاستراتيجي. وما أقدمت عليه سلطات الاحتلال من سياسات وممارسات بعد العودة من أنابوليس، من بناء استيطاني في (أبو غنيم)، والولجة، والجدار، وزيادة عدد البؤر الاستيطانية. وعمليات القتل في غزة وجنين، والاعتقالات في كل أرجاء الضفة وقرارات الحكومة الإسرائيلية باعتماد عشرات ملايين الدولارات للتوسع الاستيطاني، لأكبر دليل على هذا. ولم يخطئ من عارضوا أو حذروا من الدعوة لـ (أنا بوليس) وفقاً للشروط التي عقد على أساسها. إن هذا لا يعني أن لا نخوض المعترك السياسي والدبلوماسي الدولي دفاعاً عن حقوق شعبنا أو التمسك بالشرعية الدولية وقراراتها ذات الصلة. ، ولكن علينا أن نخوضها مستندين للوحدة الوطنية ولصمود شعبنا متمسكين بحقوقه ومصالحه، وبحق أي طرف بمعارضة هذه السياسة او تلك. ما دام يعتقد أنها تمس بحقوق شعبنا من وجهة نظره، ولكن لا يحق له أن يلجأ للسلاح لفرض موقفه، ويدمر الهيكل الذي يسعى الاحتلال أصلاً لتدميره.

بعد كل هذه التجارب المريرة، والمضمخة بالدماء، دماء الشعب ودماء القضية، بات على الجميع العودة لأرض الواقع. وهذا ليس مناشدة لأحد، وإنما تحميل مسؤولية ، وعلى كل طرف القيام بواجبه اتجاهها إذا كان مؤمناً حقاً بأن الشعب والقضية والمصلحة الوطنية فوق أي اعتبار وكل اعتبار.

أزمة الفكر السياسي الحزبي الفلسطيني

د. فايز رشيد

الأزمة تفترش كافة المجالات، بهذه الجملة القصيرة والمختصرة يمكن تلخيص الوضع الفلسطيني برمته! فأية مقارنة علمية وصحيحة ودقيقة، تجرى بين النضالات الكبيرة والتضحيات التي قدمها شعبنا الفلسطيني في كل مراحل كفاحه، وبين سمات وواقع الانقسام السياسي والجغرافي الحالي بين (السلطتين) القائمتين في الضفة الغربية وقطاع غزة (مع أن كلتيهما تقعان فعلياً تحت الاحتلال) تشي بالمسافة الطويلة الفاصلة ما بين المعاناة الجماهيرية الممتدة عميقاً في التاريخ والمثقلة بأوجاع ومآسي الراهن.. ليس ذلك فقط، وإنما أيضاً بانعكاس تداعيات ما يجري على مستقبل القضية وعموم المشروع الوطني، وعلى مجمل الحقوق الوطنية الفلسطينية، وعلى القدرة الفعلية لرؤية الشمعة في نهاية النفق المظلم، الذي يبدو أن مشواره سيكون طويلاً وقاسياً، على طريق تجاوز الأزمة وفي سبيل الخلاص من النفق، بأبعاده التآمرية الإسرا ـ أمريكية والتي من الطبيعي أن تزداد حدتها في الآونة الأخيرة، مستغلة وضع الانقسام الحالي ومستفيدة منه في تمرير مخططها القائم، الهادف إلى تصفية القضية والمشروع الوطني من خلال ممارسة المزيد من الابتزاز للمواقف الفلسطينية، التي يبدو أن بعض أصحابها يتكئون على الواقع ومعطياته في إيجاد المنحى التبريري للتنازلات! وأيضاً بأبعاده الفلسطينية، المتمثلة في تمترس فريقين وراء شروطهما ومفاهيمهما وأجندتيهما، بالرغم من كل المخاطر، وبعيداً عن أدنى مفاهيم واشتراطات مرحلة التحرر الوطني، التي لم يتجاوزها شعبنا، بل يقع في خضمها، على عكس ما تصوره البعض من الفصائل الفلسطينية، الذي وبعد تشكيل السلطة الفلسطينية كحصيلة لاتفاقيات أوسلو، قيّم خاطئاً تلك المرحلة، منتقلاً إلى الأخرى التالية، وفي مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي!

وبعيداً عن تضمين الآراء ووجهات النظر، للمقولات الفلسفية التي أثبتت فعلها الكبير في التجارب الأخرى لحركات التحرر الوطني، التي انتصرت في تنفيذ برامجها ووصلت إلى أهدافها، وفرضت حقائقها، ومع (تفصيل) هذه المقولات على الواقع الفلسطيني، وكذلك العربي، فإن هذه المقولات/الحقائق تفرض أسانيدها باعتبارها مرتكزات أساسية في علم الثورة.

وإذا كان الوجود الاجتماعي هو الذي يُنتج الوعي، فإن الأخير وفي بعض جوانبه هو انعكاس للواقع. بالتالي، فإن استعراض سماته وحقائقه السوداء، لا يعني بالضرورة نسيان أو تناسي الإنجازات الكبيرة للنضالات الفلسطينية المتمثلة في مجالات وعناصر كثيرة، لعل أبرزها: الحفاظ على الهوية الوطنية لشعبنا في كل المحطات بالرغم من كافة المخططات التآمرية التي استهدفتها، التأكيد على وحدة الشعبي الفلسطيني في مواقعه الثلاثة: الضفة الغربية وقطاع غزة، الشتات، ومناطق ٤٨، بعد محاولات تهويد وأسرلة كل سكان الأخيرة من الفلسطينيين، والإنجاز التاريخي المتمثل في الحفاظ على منظمة التحرير الفلسطينية، وفرض الهوية الوطنية الفلسطينية بمشروعها وحقوقها على الساحة الدولية (وفي بعض اتجاهات الساحة العربية) من خلال الانتقال من حلقة (اللاجئين) إلى دائرة الشعب صاحب القضية والحقوق. ولعل من أبرز إنجازات النضال الوطني الفلسطيني، هو المزيد من مفاهيم تأصيل وتمسك جماهير شعبنا بحقوقه الوطنية، إن في العودة وتقرير المصير وإقامة دولته المستقلة كاملة السيادة وعاصمتها القدس، أو رفض الهيمنة الإسرائيلية بكافة أشكالها، وتأكيد شرعية مجابهتها بكافة الوسائل والسبل، بما في ذلك، الكفاح المسلح، على الرغم من كل المؤامرات ومحاولات فرض المفاهيم الجديدة باعتبارها (إرهاباً)، ولعل الأهم: هو استعداد الجماهير الفلسطينية وفي كل مواقعها للسير بالثورة، حتى الانتصار وتحقيق الأهداف، بالرغم من كل التضحيات الكبيرة والأشكال المختلفة من المعاناة الشديدة



القسوة، في ظل رؤية صحيحة لنهج ومسيرة الصراع الفلسطيني/العربي . الإسرائيلي وما يتطلبه ذلك من تضحيات.

وفي سبيل الحقيقة، ومن أجل عدم الالتفاف على جوهر الموضوع المطروح، فإن بعضاً من الجوانب المتمثلة في ظروف ذاتية وأخرى موضوعية أحاطت وتحيط بقضيتنا الوطنية وعموم جماهيرنا، والتي جعلت من التجربة النضالية الفلسطينية في إطار ثورتها المعاصرة وفي كل حقائقها الصراعية الأخرى مسألة فريدة في النضال الوطني التحرري، إن من حيث استثنائية العدو التي تواجهه، في أهدافه الاقتلاعية لشعب متأصل في أرضه، وامتدادات هذا العدو المختلفة الأشكال: الحركة الصهيونية باعتبارها الحزب الأكثر تنظيماً في التاريخ، الصهيو. مسيحية، سيطرته على مفاصل رئيسة تتحكم نسبياً في بعض جوانب الصراع الدائر، وبخاصة من حيث تفهم أهدافه وسياساته و(حقوقه) من قبل قطاعات كثيرة على الصعيد الدولي، وأيضاً تحالفاته الدولة الإستراتيجية، التي توفر له أرضية خصبة للاستمرار، بالرغم من تصوره الشمولي القائم على الهيمنة والسيطرة، ليس في فلسطين وحدها وإنما على المنطقة برمتها (وإن اختلفت أشكال هذه السيطرة) وبالرغم من نهجه العدواني، الذي يماهي النازية والفاشية وكل التجارب الشبيهة الأخرى على مدى التاريخ.

استثنائية العدو، تفرض بالضرورة استثنائية نضالية للقوى التحررية التي تجابهه. من تلك الجوانب أيضاً: أن مئات الآلاف من الفلسطينيين جرى اقتلاعهم من وطنهم التاريخي في عام ١٩٤٨، وهجروا إلى دول عربية مجاورة وباتوا جزءاً من واقع هذه الدول (حتى مع اختلاف أشكال التعامل الرسمي معهم)، وأن الثورة الفلسطينية المعاصرة انطلقت من خارج أرضها ووطنها، وبذلك افتقدت الكثير من الميزات.

هذا الواقع سيفرض بالضرورة مهمات جديدة على حركة التحرر الوطني الفلسطيني، فإضافة إلى أهمية خلق الربط بين الخاص الوطني والعام القومي، فإن تبعات هذا التواجد للاجئين الفلسطينيين في أكثر من دولة، يفرض على الفصائل الفلسطينية أخذ الكثير من الجوانب في المسار السياسي، الاقتصادي، الاجتماعي لهذه الدول في مجرى الصراع.

من جانب آخر، فإن هذا التشابك، جعل من الثورة الفلسطينية هدفاً في محطات تاريخية كثيرة للتآمر عليها ومهاجمتها عسكرياً من قبل أطراف عربية مما أدى إلى مراكمة المزيد من هذا التشابك. نقول ذلك، ليس من زاوية اجترار التاريخ، ولا لإلقاء تبعات الفشل على نظرية المؤامرة، التي يرى البعض فيها، أنها ليست نظرية فعلية، بل مزاج سياسي خرافي عاجز عن التحليل السببي للهدف والتعامل مع نتائجه، ولا من أجل التخفيف من حدة المؤامرات التي تعرضت لها وما تزال ثورتنا وقضيتنا، ولكن من أجل إيضاح مدى الدقة التي كان من المتوجب على مطلق حركة تحرر وطني أن تأخذها بعين الاعتبار في تحليل ظروف الواقع التي تتواجد فيه والأرض التي تقف عليها، ليس فقط من أجل النضال في الوسط الفلسطيني فيها، بل أيضاً، من أجل تجميع ومراكمة الجهد الجماهيري العربي فيها، ليصب كرافد أساسي وإضافي في مجرى الصراع مع العدو. ذلك يقتضي دراسة هذا الواقع في مختلف جوانبه، دون مصادرة وتجاوز القوى الوطنية في هذه البلدان، ولا تحمل المهمات بالإنابة عنها، وأيضاً في ظل واحدة من أبرز حقائق الواقع وهي الارتباط العضوي بين الخاص الوطني والعام القومي، إن من حيث الإشكاليات والتحديات التي تواجهها عموم حركة التحرر الوطني / الوطني الديمقراطي العربية والمعارك /المهمات التي يتوجب عليها أن تخوضها معاً (على قاعدة حلقات السلسلة وتكاملها) وبغض النظر عن خصوصيات ومهمة الفصيل الواحد/ الفصائل في بلدها.

لذا فإن من الاستحالة بمكان استعراض أزمة الفكر السياسي الحزبي الفلسطيني في اتجاهاتها الثلاثة، بعيداً عن الكتابة حول أزمة الفكر السياسي الحزبي العربي، كون الحلقة الفلسطينية وفي بعض جوانبها، تشكل امتداداً لواقع الحركة التقدمية العربية.

الفكر السياسي العربي في أزمة، قد تختلف تسمياتها وتفسير أسبابها، لكنها تظل قاسماً مشتركاً بين اجتهادات كل التحليلات، وإلا فما هو تفسير الهزائم السياسية، العسكرية، الاقتصادية، الفكرية، والاجتماعية العربية التي تعانيها أمتنا العربية في كل مواقعها. ودون التطرق إلى توصيف الحالة العربية من التراجع وصولاً إلى التخلف، فذلك أصبح ملموساً لمطلق مواطن عربي من المحيط إلى الخليج. فإن حلقات أزمة الفكر السياسي العربي تتمثل في جانبين رئيسيين: أزمة إدراك حقائق الواقع العربي بمجالاته المختلفة والاستفادة من الخلفيات والأبعاد الأيديولوجية في قراءة هذا الواقع، وبالتالي فإن الجانب الأول للأزمة مثلما يحدده الأستاذ كريم مروة هو أزمة الوعي.. أما الوجه الثاني فيتلخص في عجز القوى التقدمية العربية عن قراءة ومواكبة التطور في مضمون وأشكال الاستهدافات الجديدة، بحكم المتغيرات السريعة العالمية في المجالات المختلفة، وحتمية ضرورة الارتقاء بأشكال وآليات مواجهتها، وبالتالي، فإن الجانب الآخر للأزمة هو: أزمة التطور، بكل ما يعنيه ذلك من أشكال تفصيلية وتداعيات.

وإذا جاز لنا أخذ الواقع العربي من خلال حقائقه الأساسية المتعددة.. يمكن القول وبإيجاز ما يلي:

إن النظام الرسمي العربي يعيش هاجس الدولة القطرية، وحماية الذات فيها ومن خلالها وهي الدولة الضعيفة في بنيتها (ربما باستثناء أجهزتها الأمنية) سياسياً، اقتصادياً، عسكرياً واجتماعياً، ذلك أن تأسيسها لم يجر على المرتكزات الأساسية النمطية في عملية البناء، باعتبار هذه المرتكزات قواعد للتطور في إطار المبادئ الديمقراطية، مما جعل مفهوم الدولة في نظر السلطات الحاكمة فيها، مرتبطاً بما تقدمه أجهزتها كافة للائتلاف الحاكم من خدمات. هذه الدولة الهشة، ومع حقائق العصر الجديدة، وإضافة إلى إشكالاتها السياسية والاقتصادية فهي عرضة لأنماط جديدة من الصراعات الاجتماعية فيها: مذهبية، طائفية، أثنية، قبلية، بنيوية، وهي الأشكال من الصراعات التي نشهدها في أكثر من دولة عربية، والمرشحة للانتقال إلى دول أخرى. ولذلك ونتيجة للتطورات السياسية والاقتصادية العالمية، حيث أصبحت التداعيات تتمثل في : زيادة التبعية والإلحاق بالمشروع الأمريكي،واقتصاديات العولمة، وتعاليم البنك الدولي، على طريق الاستهداف القاضي بالانصياع التام للمشروع الإسرائيلي، والتعامل مع الحقائق الاقتصادية الجديدة كهدف بديل للتنمية الداخلية والنمو الاقتصادي الحقيقي،

وتحقيق المنجزات الوطنية، وتبعات ذلك في المظاهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائرة في طريق التراجع المتدرج نحو المزيد من التفاقم الأزموي.

أما على صعيد الأنظمة ذات الأصول القومية العربية فقد فشلت في إنجاز المهمات الوطنية الديمقراطية لشعوبها، وانهيار تجربة الوحدة بين مصر وسوريا في عام ١٩٦١، وكل التجارب اللاحقة الأخرى، وهزيمة ١٩٦٧ وما عنته من بداية النهايات لمرحلة التحرر الوطني الديمقراطي، والتطورات التي أعقبت اتفاقيات كامب ديفيد، وأحداث العراق والكويت، واحتلال العراق والعدوان الصهيوني المستمر عل الشعب الفلسطيني والأمة العربية..

أما على صعيد القوى التقدمية العربية، باتجاهيها القومي واليساري (والديني فيما بعد) فإنها ما زالت تعيش الأزمة بكل عناصرها المتعددة. فمن أخطاء تحليل الواقع إلى أخطاء آليات التغيير وأخطاء الخطاب السياسي، فإن كثيراً من أحزاب وقوى اليسار العربي، وبالرغم من تأكيد الماركسية على الجوهر الاقتصادي الطبقي للإمبريالية بكافة أشكالها، إلا أنها وبمجرد انتقال البورجوازية الوطنية إلى الحكم، مالت إلى دعم هذه البورجوازيات تطبيقاً لتحليل نظري يرى بأن الاستعمار هو ظاهرة سياسية. ووصل الأمر ببعض أحزاب هذا الاتجاه إلى حل نفسه على قاعدة (الإيمان) بالنظام البورجوازي الوطني لإحداث التغيير.

كما أن البعض من هذه الأحزاب، تعاملت مع واقعها العربي ومثلما يقول د. هشام غصيب باعتباره (رأسمالياً تابعاً) وليس إقطاعياً تقليدياً، وقبائلياً وعشائرياً في جوانب كثيرة من بنيته الاجتماعية، وبالتالي، فإن البرجوازية في هذه البلدان لا تتخذ سمة البرجوازية الوطنية، وإنما هي بورجوازية طفيلية تابعة، تنقصها الثقافة البورجوازية الغربية إبان صعودها، وبالتالي كان من الخطأ تطبيق النموذج الغربي على الواقع العربي، هذا الاستنتاج، ربما لم يكن من السهل الوصول إليه في مراحل سابقة (قبل العولمة ومفاهيمها الجديدة في كافة المجالات) ولذلك ومع الأطروحات العولمية الجديدة، بتنا نشهد تحالفاً لهذه القوى مع الدكتاتوريات الحاكمة في بلدانها، لصالح تلك الأطروحات العولمية استناداً إلى المصالح المشتركة بين كافة هذه الأطراف. غير أن ذلك لا يعفي القوى المنوطة بإحداث التغيير من الاستمرار في محاولة القراءة الدقيقة للواقع اعتماداً على الأساس الفكري لها، بغض النظر عن السمات الطارئة الجديدة فيها!

إخفاق الاتجاهين: القومي واليساري في مهماتهما، ساعد على تنامي القوى الدينية بمختلف تلاوينها واحتلالها لمراكز متقدمة في بلداننا!

نحن لا ننكر أن حدثاً عالمياً، كانهيار الاتحاد السوفياتي قد ترك تأثيره الكبير السلبي ليس فقط على صعيد ظاهرة الأحادية القطبية وتحكم الولايات المتحدة في العالم، والموازين الدولية، وإنما من حيث التأثير على عموم الحركة الشيوعية واليسارية على الصعيد الدولي، بمن فيها المنطقة العربية، وما أحدثه ذلك فيها من هزات مختلفة كبيرة.. هذا لا ينفي بالطبع تقصير هذه الأحزاب والقوى اليسارية العربية في رؤيتها لواقعها وبالتالي لطبيعة مهماتها، فإضافة إلى الصراع الذي كان قائماً بين الاتجاهات القومية والشيوعية العربية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين نتيجة لعدم تحليل الأخيرة للواقع العربي، ولمعطياته، ومن ثم ممارسة شكل استفزازي في معظم الأحيان من خلال الترويج لقضايا مفصلية كثيرة: اعتبار الشعوب العربية (أمماً) في طور التكوين ونفي وجود الأمة الواحدة، عدم الانشداد إلى - بل في بعض الأحيان محاربة- مفهوم الوحدة العربية، اتهام الاتجاهات القومية بالشوفينية بعيداً عن برامجها الوطنية والوطنية الديمقراطية، عدم التعامل مع الخطر الإسرائيلي وفقاً لما تمثله إسرائيل من خطر حقيقي على عموم العالم العربي وقواه التحررية والوطنية، من خلال الدفاع (وفي مرحلة مبكرة بعد إنشاء إسرائيل) عما سمي بحل: الدولتين لشعبين، مع ما يمثله ذلك من دفاع غير مباشر عن الوجود الإسرائيلي وذلك انسجاماً مع وجهة النظر السوفياتية وعموم دول المنظومة الاشتراكية، حول هذه المسألة الصراعية الكبرى، بعيداً عن الحل الماركسي للمسألة اليهودية، المتمثل في: ما قاله ماركس من (أن اليهودية استمرت بفضل التاريخ، وليس رغماً عنه.. ولذلك، فإن تحرير اليهود يعني تحرر المجتمع من اليهودية) وما قاله لينين من (أن فكرة الأمة اليهودية هي فكرة رجعية).. هذه المواقف ساهمت في تراكم أخطاء قراءة الواقع، وفي ابتعاد الجماهير العربية عن حاملي لواء هذه الأفكار، وفي المزيد من تاريخ الأجزاء مع أصحاب وأحزاب



الاتجاهات الفكرية الأخرى.

ولعل من أبرز أخطاء اليسار العربي أيضاً، هو التعامل مع الفكر الماركسي بالشكل الميكانيكي البحت، خارج اعتباره نظرية ثورية علمية (مثلما حددها فلاسفتها ومنظروها)، وفي شكل منقطع بالكامل عن الواقع المحلي للأحزاب، وتحليله وكشف تناقضاته، اعتماداً على تفسير نظري عام، يقوم به المركز العالمي للحركة الشيوعية، الأمر الذي ولد أشكالاً كثيرة من الخلل، إن في فهم حقيقة هذا الواقع، أو في إيجاد الحلول للخروج من مآزقه الكثيرة، في إطار من الفهم النمطي لمبدأ المركزية الديمقراطية، مع التغليب الدائم للمركزية، واعتبار أية آراء وأطروحات جديدة للأعضاء فيما يتعلق بفكر الحزب ونهجه في المجالات المتعددة، خروجاً على ماركسية الحزب، وعلى الشيوعية، على طريق اتهامات أعنف.

هذا الشكل الأبوي في الفهم سيولد تداعياته أيضاً المتمثلة في جمود القيادة، مما سيؤثر بالضرورة على مفهوم التشبث بها، باعتبارها الحافظ والضامن لخط سير الحزب.. كما سيؤدي إلى الانغلاق أمام الجديد من الفكر، والرؤى السياسية الصحيحة وفقاً لمتطلبات المرحلة في السياق التاريخي للتطور.

من جانبها، فإن الأحزاب القومية الاتجاه، وإضافة إلى انغلاقها النسبي أمام الأفكار التقدمية الأخرى (بخاصة في الخمسينيات وبداية الستينيات)، ومع تصورها (الذي كان مطلقاً في بدايات تأسيسها) بأن الفكر القومي فقط، هو الصالح لحل أزمات المجتمع العربي، أبقت على نمط سلفي قومي من الفكر، غير آخذة بعين الاعتبار الأشكال المتطورة للحداثة، وبذلك بدلاً من الحوار بين كل التيارات الفكرية.. فإن شكلاً من العداء (إن جاز التعبير) كان منتصباً على الدوام بين التيارات الفكرية التقدمية العربية، مما أثر ليس فقط على مجموعها معاً، وإنما أيضاً على فصائلها وأحزابها على المستوى الفردي.

من الجدير بالذكر، أنه ومع تنامي واندفاعة الأحزاب والاتجاهات الدينية العربية، وإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً من سبب رئيسي: إخفاق القوى التقدمية العربية الأخرى في برامجها النضالية، فإن لجوء سلطات الدول العربية (وفي أكثر من قطر عربي) وحرصها على نمو هذه الأحزاب والحركات، أدى بها إلى اعتبار هذه الأحزاب بديلاً مضموناً وأقل خطراً من ذوي الاتجاهات الفكرية الأخرى، وتمثل في نمط من العلاقة التحالفية القائمة على الإسناد والدعم (وبخاصة في تجربة أفغانستان تحت لواء محاربة الخطر الشيوعي) الأمر الذي ساعد على لعب دور أساسي في عملية النمو، إضافة إلى التخلف والاستبداد والفقر كمظاهر سائدة في غالبية المجتمعات العربية، وهو ما سيؤثر بالضرورة في تسريع عملية النمو.

هذا ما اعتبرته أساساً موضوعياً وأرضية مهمة قبل الانتقال إلى أزمة الفكر الحزبي السياسي الفلسطيني.

الأزمة على الصعيد الفلسطيني

بعيداً عن الخوض في علم السياسة ومذاهبها، فإن (السياسة) كتعبير دلالي، تختلف عن (الفكري السياسي)، ذلك أن الفكر كمعتقد أيديولوجي، أياً كانت مبادؤه، يصنع الدائرة، المعبر عنها كهدف إستراتيجي لمطلق حزب أو فصيل تحرري وطني يسعى من أجل تحقيقه، وهو بذلك يحدد الإطار للحركة السياسية التي يمارسها، والمرتبطة وجوباً والحالة هذه بخدمة ومواءمة الأهداف الإستراتيجية.

ذلك لا يعني على الإطلاق، تحديداً لحركة السياسة (مثلما قد يتوهم البعض)، بل تجنيباً لها من القفز إلى الهاوية في المراحل النضالية المختلفة، وبما يلحق أفدح الأضرار بالقضية الوطنية والهدف / الأهداف المأمول تحقيقها من هذه الحركة ومجمل النضال!

السياسة، إذن هي فكر وأيديولوجيا، هي ثقافة، وهي نهج ومسلكية، يتوجب أن تتحلى بمواصفات مثل: المرونة، التكتيك، الحركة، الفهم الجماهيري لها واقترابها من مطالب هذه الجماهير، بعيداً عن الانغلاق والدوغمائية، والجمود.. ولكن عليها أن تصب في النهاية في مجرى الأهداف الإستراتيجية.

ولذلك، ومنذ البداية.. ودون التطرق إلى أحداث كثيرة، باستثناء المفصلية منها، فإن محاكمة السياسات الفلسطينية لمختلف الاتجاه، يتوجب أن تنطلق من مدى خدمتها للأهداف الإستراتيجية، آخذين بعين الاعتبار الإخفاقات الكبيرة في محطات كثيرة وصولاً إلى الراهن.

وعلى صعيد التطبيق، فإنه ومع بدء النضال والكفاح الفلسطيني المعاصر، مروراً بإرهاصات ما قبل عام ١٩٦٧، بكل ما عنته الهزيمة وتداعياتها، والانطلاقة الحقيقية للثورة الفلسطينية المعاصرة بكافة اتجاهاتها وصولاً إلى اللحظة السياسية الراهنة، يمكن القول:

التزمت كافة اتجاهات النضال الوطني الفلسطيني، في نهاية الستينيات، بالميثاق الوطني الفلسطيني الذي يحدد الأهداف الفلسطينية ووسائل تحقيقها وبشكل أدق الرواية الفلسطينية في مواجهة الافتراءات الصهيونية.

الاتجاه الوطني العام

بداية، من الصعب إطلاق تعبير آخر على التنظيم الممثل لهذا الاتجاه، والذي هو أقرب إلى الجبهة الوطنية العريضة منه إلى الحركة الواحدة أو الحزب الواحد، بالرغم مما اعتمده في إطاراته الداخلية من أدبيات، كسمات رئيسية ومحددات لهويته الوطنية. لذا، فهو يجمع بين مختلف الاتجاهات الفكرية، والولاءات الكثيرة، والارتباطات المتعددة، الأمر الذي سيخلق بالضرورة مظاهر سلبية كثيرة في الأداء السياسي لأصحاب هذا الاتجاه.. أداء سياسي يتدرج في تناقضه مع خدمة الأهداف الإستراتيجية، وصولاً إلى التنازل أيضاً عن هذه الأهداف، ابتداءً بالبرنامج المرحلي، إلى اتفاقيات أوسلو، وتشكيل السلطة، وإلغاء الميثاق، وصولاً إلى مرحلتنا الراهنة بكل سماتها وأبعادها، التي جرى التطرق إليها.

الأدهى، أن كل تلك التنازلات لم تأت انعكاساً لتغيير جوهري إستراتيجي في مواقف العدو، بالنسبة لفلسطين والحقوق الفلسطينية، أو لعموم المنطقة العربية.. وكل من بدا أنه متغيرات إسرائيلية، لم يتعدَّ كونه مواقف تكتيكية دون المساس بالمضمون والجوهر، على الرغم من التبديل اللفظي على صعيد الكثير من القضايا. هذه المواقف للعدو، جاءت بفعل النضال الوطني الفلسطيني وما أحدثه في الصراع من متغيرات حقيقية، والتي لو جرى الاستمرار في النهج الكفاحي المتعدد الأشكال الذي أحدثه، لساهم في تراكم الإنجازات الفلسطينية، الأمر الذي كان سيؤدي بالضرورة إلى تغير نوعي في موقف العدو.

المواقف التكتيكية للعدو، جاءت أيضاً نتيجة للمتغيرات السياسية الدولية، وبقاء حركة التحرر الوطني الفلسطينية، كحركة وحيدة متبقية من كل حركات التحرر الوطني على الصعيد العالمي، وما عناه ذلك من اتجاهات لإيجاد الحلول لهذا الصراع.

نقول عن البعد التكتيكي للسياسات والمتغيرات الإسرائيلية، لأن حقيقة ما تطرحه إسرائيل من مفهوم (للدولة) الفلسطينية، ليس أكثر من حكم ذاتي على القضايا الحياتية للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، وفي ظل لاءات حمراء إسرائيلية للحقوق الوطنية الفلسطينية، والحكم الذاتي في جوهره، ينطلق من حسابات إستراتيجية إسرائيلية، فيما يتعلق بالديموغرافيا وحساباتها، أو في هوية الدولة الإسرائيلية، كهوية يهودية، باعتبار ذلك هدفاً إسرائيلياً.

أما بالنسبة لمشروع (دولة إسرائيل الكبرى)، فإنه وفقاً لحقائق العصر، ومعطياته التأثيرية على الصراع مع العرب، ومع استحالة تحقيق هذا المشروع لعوامل كثيرة، منها ما يتعلق بالبنية الإسرائيلية الحالية، فإن الهيمنة التي تعكس جوهر المشروع قد تتخذ منحىً وشكلاً آخرين، كالهيمنة الاقتصادية، ومنع الدولة العربية/الأحزاب العربية، من امتلاك أية أسلحة قد تهدد الأمن الإسرائيلي، ولذلك يجري طرح (الشرق الأوسط) الكبير كهدف أمريكي-إسرائيلي على قدم وساق.

أصحاب هذا الاتجاه، ماضون في أدائهم السياسي الخاطئ والمدمّر للمشروع الوطني الفلسطيني برمته، ذلك بتجاهلهم للآفاق والحدود التسووية التي من الممكن أن يصل إليها المفاوض الإسرائيلي.

أخطأ هذا التنظيم في سياساته بالنسبة العضوي بين الخاص الوطني والعام القومي في مجالاته المتعددة، فمن السماح (للبترودولار) من التأثير وصولاً إلى التدخل في صياغة السياسة الفلسطينية، وصولاً إلى شعار (يا وحدنا) وتداعياته، إن من خلال المزيد من الإغراق في القطرية، وإعفاء النظام الرسمي العربي من مسؤولياته تجاه القضية الفلسطينية، وما يشكله ذلك من امتداد لخطأ سياسي عربي كبير، كان سائداً بعد عام ١٩٤٨ وامتد لسنوات طويلة حتى انطلاقة الثورة، والذي تمثل في هيمنة العالم العربي على الخاص الفلسطيني.. أو في النحيب والبكائيات أثناء المنعطفات الصعبة من عدم التأييد الفعلي لقضايانا!

في مثل هذه البنية التنظيمية، المتعددة الأفكار والاتجاهات السياسية، التي كان يجري التعبير علناً عن خلافاتها وتناقضاتها، كان من الطبيعي الوصول إلى حالة من الشوفينية الجهوية، القائمة على الفردية، ومن ثم الفردية للقائد في اتخاذ القرارات، والنزعة التسلطية في النظرة للفصائل الأخرى من خلال: الإصرار على صيغة (النصف+١) في التحالفات السياسية في المجالات المختلفة، في مؤسسات منظمة التحرير، وكافة الهيئات التابعة لها.

هذا النهج البعيد عن الفهم الحقيقي لمبدأ (الشراكة) مع الفصائل الفلسطينية على قاعدة (التحالف والصراع) سيؤدي بالضرورة إلى الانحراف السياسي، وإلى إلغاء ونفي اشتراطات الانتصار في مرحلة التحرر الوطني، وأبرزها: الجبهة الوطنية العريضة على قاعدة الديموقراطية الحقيقية في أوساط الفصيل نفسه، وفي تعامله مع الفصائل الوطنية الأخرى، وهو الأمر الذي كان مغيباً في أوساط هذا التنظيم.

العمل في الوسط الشعبي العربي لدى أصحاب هذا الاتجاه، انطلق من مفهوم السيطرة على أحزاب وقوى هذه الأوساط، إن في النظرة إلى الذات الفلسطينية المتضخمة بـ (الأنا) واشتراطات تأثيرها في قرارات هذه القوى، أو خلق قوى جديدة من داخل هذه الأوساط، تكون موازية للأخرى القديمة، وبخاصة إذا امتلكت الأخيرة وجهات نظر معارضة، للجهة الفلسطينية المتنفذة. ونتيجة للمسلكيات الخاطئة والقاتلة مع الجماهير العربية التي تواجدت الفصائل الفلسطينية على أراضيها، وما يعنيه ذلك من فقدان حقيقي للحاضنة العربية للكفاح الفلسطيني. هذه السلسلة من الأخطاء والممارسات، ستؤدي بالضرورة إلى نفس السياق التعاملي مع الجماهير الفلسطينية. ولذلك من الطبيعي والحالة هذه، وفي استغلال واضح لعصبين مهمين: المال والإعلام، أن تنسحب الأخطاء على مظاهر قاتلة في الثورة: الفساد، الإثراء غير المشروع، التمايز القيادي وتأليه القيادات وتخليدها، المحسوبية، إضافة إلى تضخيم الذات وعدم الاعتراف بالخطأ من خلال المراجعة النقدية الدورية للمسيرة السياسية، وكل ذلك يعبر عن أزمات متصلة بنيوية، فكرية، تنظيمية، سياسية، مسلكية.. وهي بالحتم ستؤدي إلى إخفاق كامل للمشروع الوطني الفلسطيني، إن استمر أصحاب هذا الاتجاه كعامل مقرر في الساحة الفلسطينية.



على صعيد فصائل الاتجاه القومي:

إن أزمة الفكر السياسي هي امتداد لأزمات تنظيماتها الأم، والتي تمكنت في بعض الأقطار من تسليم السلطة، وقد سبق وأن تطرقنا لهذا الجانب عند استعراض سمات الواقع العربي، وفشل الأنظمة القومية في إنجاز مهمات مرحلة التحرر الوطني الديمقراطي لشعوبها.

يبقى القول، إن الفصائل الفلسطينية من التنظيمات الأم لم تنجح في انتهاج سياسات فلسطينية خاصة بها، بل بقيت كامتدادات، للتنظيمات الرئيسية، بكل ما يستتبعه ذلك من أخطاء سياسية مسلكية، إن في إدراك طبيعة الواقع الفلسطيني وخصوصيته، ومن إيجاد سياسات مستقلة وفق ما تقتضيه متطلبات هذا الواقع، وفي محطات كثيرة من الكفاح الفلسطيني، انقلب بعض التنظيمات على سياساته المعلنة، إلى الحد، الذي مارس فيه الاقتتال ضد فصائل أخرى، وضد الجماهير الفلسطينية في هذا القطر العربي أو ذاك.. بالتالي، وإضافة إلى أزمات أنظمتها، فإن هذه الفصائل أضافت أيضاً إلى حصيلتها: الأزمات الفلسطينية.

على صعيد اليسار الفلسطيني

بداية يمكن توصيف حالة اليسار في المرحلة الراهنة، بأنها في انحسار متدرج، ذلك يمكن الاستدلال عليه من شواهد كثيرة.. لقد مثلت إحدى تنظيمات اليسار، القوة الثانية في الساحة الفلسطينية.. واقتربت من موازاة القوة الأولى، على الرغم من إمساك الثانية بكل عناصر إمكانية الامتداد، وصولاً إلى حد قول بعض القادة الإسرائيليين «بأن الجبهة الشعبية تحكم غزة في الليل، وبأن الإسرائيليين يحكمونها نهاراً»، كان ذلك في السبعينيات. وبمقارنة تلك الصورة مع الواقع الراهن.. يتضح الفرق.

ومن الشواهد أيضاً: ما حققته فصائل اليسار من نتائج في الانتخابات التشريعية الأخيرة التي جرت في الضفة الغربية وغزة، وهي نتائج متواضعة كثيراً، بالنسبة لما كان يجب أن تحرزه من نتائج. ثم، إن الشاهد الأكبر على هذا التراجع، هو، النجاحات التي أحرزتها القوى الدينية، وحماس تحديداً، والتي احتلت (المقعد) الثاني من حيث حجم الفصائل الفلسطينية (إن لم تكن القوى الأولى؟)، وأخيراً، التأثير المتواضع لقوى اليسار الفلسطيني في الحدث السياسي الفلسطيني..

ذلك كله.. تعبيرات عن أزمة سياسية، تنظيمية، فكرية.. أي أنها أزمة بنيوية، عناصرها الأساسية: أزمة الوعي وأزمة التطور الديناميكي وفقاً لحركة الأحداث في الساحة الفلسطينية.

باستثناء الحزب الشيوعي الفلسطيني، الذي انتقل إلى هذا الاسم بعد هزيمة عام ١٩٦٧، وبعد انطلاقة الثورة الفلسطينية المعاصرة، وبعد أن أصبح الشيوعيون من أصل فلسطيني في الحزب الشيوعي الأردني، يتساءلون عن دورهم في قضية شعبهم «وبقي الحزب جزءاً من عموم واقع الأحزاب الشيوعية العربية في نظرته إلى القضية الفلسطينية، بالرغم من تشكيله لقوات الأنصار، لفترة زمنية بسيطة، الأمر الذي أدى إلى انشقاقات في أوساطه».. فإن اليسار الفلسطيني تبلورت رؤاه الأيديولوجية في الأعوام القليلة بعد عام ٦٧.

اليسار الفلسطيني هو امتداد لإرهاصات نظرية فكرية كانت تجري في حركة القوميين العرب، وبخاصة في السنوات الأخيرة ما قبل عام ١٩٦٧، وقاد إلى تسريع بلورة الأيديولوجيا، أحداث الهزيمة، وإخفاق الأنظمة القومية التقدمية العربية في إنجاز مهماتها، بل الأدق تعبيراً هو (هزيمة برامجها)، وتداعيات ذلك على الفكر القومي العربي، وعموم النظرة إليه. كما ساهم في بلورة اليسار أيضاً، انشقاق أحد التنظيمات عن التنظيم الأم، وهروع الأول إلى التبني النظري للماركسية، الأمر الذي جعل التنظيم الأساس، وإضافة إلى كل إرهاصاته السابقة، بأن يسرع من هذا الاعتناق.

إنها خطوة في منتهى (الشجاعة) تلك، التي أدت إلى اعتناق اليسار الفلسطيني للأيديولوجيا الماركسية، وبخاصة في واقع عربي (وبضمنه الفلسطيني في معظم مواقعه ومع احتفاظه بخصوصياته)، كان أميل إلى الدين بحكم ظروفه التاريخية وإرثه، وما شكله هذان العاملان وغيرهما من وعي سليقي لديه. كان المجتمع العربي في غالبية مواقعه في حالة من التفاعل شديدة الالتصاق بالفكر القومي العربي، بحكم التجربة الناصرية آنذاك، وتداعياتها في المد القومي العربي، التحرري في الجزائر وجنوب اليمن وبعض مناطق الخليج العربي. كانت الجماهير العربية تتعرض إلى عملية (غسل دماغ) حقيقية بالنسبة إلى الفكر الماركسي والمفاهيم الشيوعية، كما ساهم في انتشار هذه المفاهيم الخاطئة، مواقف الأحزاب الشيوعية العربية من القضية المركزية العربية الأولى (القضية الفلسطينية) ومن الوحدة العربية، وقضايا مفصلية أخرى، والتي تمثلت في تحليل كان وراء قرارات اتسمت بالسلبية تجاه هذه القضايا، وبالتالي ردود الفعل الجماهيري السلبية تجاهها.

فبالرغم من الوتائر المتسارعة لامتداد التنظيم الأم أفقياً وعمودياً في الساحة الفلسطينية، ونجاحات كبيرة حققها في الساحة العربية، مستغلاً مجموعة من الميزات التي توفرت له: أنه جاء امتداداً لتنظيم قومي عربي كبير في الساحة العربية أثبت كفاءته النضالية، وانتصر في بعض المواقع (جنوب اليمن)، المزاوجة بين النظرية الماركسية والكفاح المسلح، اهتداءً بالكثير من تجارب حركات التحرر الوطني في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، الأمر الذي يعني (تعريباً) للفكر الماركسي، وتداعيات ذلك على اليسار العربي، وبخاصة في لبنان، ومجمل التغييرات الجذرية في رؤية الحزب الشيوعي اللبناني (على سبيل المثال) تجاه الكثير من القضايا في مؤتمره الثاني عام ١٩٦٨، استطاع هذا التنظيم وبرؤية بعيدة النظر من طرح إستراتيجية وطنية ارتباطاً مع العمق العربي وبأفق إنساني تحالفاً مع قوى التحرر في العالم والبلدان الاشتراكية، والشعوب المضطهدة (بفتح الطاء) في كل مكان، الممارسات المسلكية لهذا التنظيم تميزت بالنقاء في محاولة الوصول إلى الطهارة الثورية النضالية، ودقة التحليل النظري لأسباب الهزيمة والخروج من مأزقها، الدرجة الكفاحية العالية التي تمتع بها في محطات كثيرة، إن في الأراضي المحتلة، أو في الخارج من خلال شعار (وراء العدو في كل مكان) وتداعيات ذلك في الانتباه الدولي للقضية الفلسطينية وعدالة حقوق شعبها، ودقة الشعارات السياسية التي طرحها في مراحل سياسية كثيرة، إضافة إلى عوامل عديدة أخرى.

أنابوليس

محطة أخرى لتصفية القضية الفلسطينية واستكمال التطبيع

عليان عليان

بات من المؤكد في ضوء ورقة التفاهم المشترك التي أبرمها الوفدان الفلسطيني والإسرائيلي على عجل عشية انعقاد اجتماع أنابوليس في السابع والعشرين من تشرين الثاني الماضي، وفي ضوء الكلمتين اللتين ألقاهما كل من الرئيس الأمريكي جورج بوش، ورئيس وزراء العدو الصهيوني أيهود أولمرت، وفي ضوء التحشيد العربي والدولي لهذا الاجتماع، بأن الأمور جرى ترسيمها بدقة لصالح الكيان الصهيوني في مفاوضات المرحلة النهائية والتي انطلقت عملياً غداة زيارة بوش للمنطقة.

ولا يغير من واقع هذه الصورة التصريحات الصادرة عن رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس، بأن مرحلة ما بعد أنابوليس تختلف عما قبلها من حيث التوقعات الإيجابية، وأن اجتماع أنابوليس فرصة لن تتكرر مرة أخرى للسلام في الشرق الأوسط، وكذلك وصفه لزيارة بوش للكيان الصهيوني ورام الله بالتاريخية.

لقد تبدت مخاطر أنابوليس بإجماع العديد من القوى والفصائل الفلسطينية بما يلي:

أولاً: إن وثيقة التفاهم التي تلاها الرئيس بوش أمام الاجتماع لم تذكر بالاسم قضايا الحل النهائي، وهي: القدس، المستوطنات، المياه، الحدود، والمرجعيات التي يجب أن تستند لها.

ثانياً: إنه لم تتم الإشارة إلى قرارات الشرعية الدولية ذات الصلة بقضايا الحل النهائي، بحيث أن هذه القرارات لم تعد مرجعية للمفاوضات، وأن المرجعية بشكل رئيسي هي ما يتفق عليه بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي وفقاً لميزان القوى المختل بشكل مطلق لصالح الكيان الصهيوني ووفق ما ترتئيه الإدارة الأمريكية.

ثالثاً: أكدت وثيقة التفاهم على خريطة الطريق في مرحلتها الأولى كمرجعية اشتراطية للمفاوضات، تلك المرحلة التي تؤكد على نزع سلاح المقاومة، وتصفية بنيتها التحتية. وقد أكد أولمرت في كلمته وكذلك بوش بأنه لن يجري تطبيق أي اتفاق قبل أن يلتزم الجانب الفلسطيني بما هو مطلوب منه في المرحلة الأولى من خارطة الطريق.

واللافت للنظر هنا أنه في الوقت الذي أكد فيه الرئيس محمود عباس بأنه سيعمل ويواصل العمل وفقاً لما تمليه خارطة الطريق بشأن التزامات السلطة الفلسطينية فيما أسماه بوقف الفوضى، والعنف، والإرهاب، وتوفير الأمن، والنظام (أي إنهاء المقاومة المسلحة ضد الاحتلال).. في الوقت نفسه لم



يشر رئيس وزراء العدو الصهيوني في كلمته أمام اجتماع أنابوليس إلى ما هو مطلوب منه في إطار المرحلة الأولى من خارطة الطريق بشأن وقف الاستيطان اليهودي في الضفة الغربية، وهي قضية جوهرية في خضم الصراع المستمر منذ عقود.

كما راح أولمرت يسوق خطاب علاقات عامة لكسب تأييد الحضور الدولي والإقليمي في المؤتمر ليبدو وكأنه حمامة سلام ومستعد لتقديم تنازلات مؤلمة!! متجاهلاً حقيقة أننا أمام أراض محتلة وليس أمام أراض متنازع عليها، وأمام حقوق مغتصبة.. حيث قال: «(إن إسرائيل) مستعدة لتقديم تنازلات مؤلمة، وأن حقائق ما بعد عام ١٩٦٧ ستتغير».. وتوجه للمندوبين العرب، وكأنه مضيفهم. ذلك في إشارة أولية إلى أحد أهداف المؤتمر وهو التطبيع. قائلاً لهم بالعربية «أهلاً وسهلاً».

يهودية الدولة والاستيطان

ما يجب الإشارة إليه أيضاً الأخطار الأخرى والرئيسية المشتقة من الأخطار سالفة الذكر والمستند لها، وأبرزها ما جاء في خطاب الرئيس بوش أمام اجتماع أنابوليس والذي أعاد فيه عملياً وبشكل غير مباشر التأكيد على رسالة الضمانات التي سبق وأن قدمها لرئيس وزراء العدو الصهيوني السابق أرييل شارون في أبريل/نيسان ٢٠٠٤، وذلك بالتأكيد على مسألتين رئيسيتين هما:

أولاً: عدم دعوته إلى إزالة المستوطنات من الضفة الغربية المحتلة، حيث راح يفرق بين مستوطنات مرخصة، ومستوطنات غير مرخصة. متجاهلاً حقيقة أن الاستيطان بكليته غير قانوني وغير شرعي وفقاً لقرارات مجلس الأمن بهذا الشأن، الأمر الذي يعني أن الرئيس بوش يعتبر قرارات البرلمان «الإسرائيلي» (الكنيست) وقرارات الحكومة «الإسرائيلية» هي المرجعية بشأن الاستيطان وليس مجلس الأمن الدولي، والجمعية العامة للأمم المتحدة.

ثانياً: تأكيده على يهودية «إسرائيل» متناغماً مع طرح رئيس وزراء العدو الصهيوني أيهود أولمرت، الذي أشار بدوره إلى التزام الرئيس بوش برسالة الضمانات.

وكانت رسالة الضمانات التي تقدم بها لشارون في نيسان ٢٠٠٤ قد تضمنت ما يلي:

١- عدم العودة إلى حدود ١٩٦٧ في أي تسوية قادمة.

٢- إلغاء حق العودة للاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم وممتلكاتهم في مناطق ١٩٤٨ الذي نص عليه القرار الأممي رقم ١٩٤.

٣- ضم الكتل الاستيطانية الرئيسية في الضفة الغربية إلى دولة «إسرائيل» وعلى قاعدة إعمال مبدأ التبادلية، دون التخلي عملياً عن السيادة الإسرائيلية على القدس.

وهكذا فإن بوش أعلن من خلال منصة أنابوليس دعمه لحكومة العدو الصهيوني في شطب حق العودة للاجئين الفلسطينيين، وفي ضم الكتل الاستيطانية للكيان الصهيوني، ناهيك أن الاعتراف والتركيز الأمريكي على يهودية «إسرائيل» لا يشطب حق العودة فحسب، بل يفتح المجال أمام ترانسفير جديد للعرب الفلسطينيين في مناطق ١٩٤٨ بذريعة يهودية الدولة ونقائها العبري.

إن ما ورد في خطاب بوش أمام اجتماع أنابوليس بشأن يهودية الدولة والاستيطان والتنازلات المؤلمة يؤكد أن الإدارة الأمريكية رسمت وحددت مسبقاً ما يجب أن تنتهي إليه المفاوضات بشأن قضايا الحل النهائي، وبما يخدم المطالب والاشتراطات الإسرائيلية، خاصة وأن هذه الإدارة نصبت نفسها قاضياً وحكماً بشأن مجريات العملية التفاوضية في إطار لجنة ثلاثية برئاستها.

التطبيع

والشيء الأكثر خطورة أن اجتماع أنابوليس الذي ضم (١٦) دولة عربية من بين (٥٠) دولة، وجهة إقليمية، ودولية شاركت في الاجتماع، خلق المقومات الأولية للتطبيع مع العدو الصهيوني مع الدول العربية التي لم تفتح بعد سفارات أو ممثليات تجارية للكيان الصهيوني في عواصمها، وذلك على الرغم من التصريحات التي صدرت عن أمين عام الجامعة العربية عمرو موسى، ووزير الخارجية السعودي. سعود الفيصل، والتي ربطت التطبيع بانسحاب قوات الاحتلال من الأراضي الفلسطينية المحتلة ومن هضبة الجولان ومزارع شبعا اللبنانية.

تجدر الإشارة إلى أن اجتماع أنابوليس أرادت منه الإدارة الأمريكية والكيان الصهيوني تحقيق ثلاثة أهداف هي:

١- المصادرة مسبقاً على قضايا الحل النهائي وتحديد نتائجها قبل أن تبدأ.

٢- تحقيق حالة من التطبيع بين الكيان الصهيوني، وبين الدول العربية التي لم تطبع علاقاتها معه بعد، وقبل أن تنسحب قوات الاحتلال من الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة.

٣- توفير غطاء عربي رسمي للعدوان الأمريكي المرتقب على إيران.

مقدمات تطبيعية

لقد رصد المراقبون العديد من آليات التطبيع التي أخذت شكل العلاقات العامة والبروتوكول وأبرزها:

أولاً: اللقاء الذي جمع وزير خارجية مملكة البحرين مع وزيرة الخارجية الصهيونية تسيفي ليفني والتي طالبته بإقامة علاقات دبلوماسية بين البحرين والكيان الصهيوني.

ثانياً: اللقطات الإعلامية القليلة والمصورة التي جرى بثها من قاعة الاجتماع أظهرت أن وزراء الخارجية العرب كانوا يقفون كتفاً إلى كتف مع وزير الحرب الصهيوني أيهود باراك ووزيرة الخارجية تسيفي ليفني.

وقد أشار العديد من المراقبين إلى أنها المرة الأولى في تاريخ المؤتمرات التي يتم فيها التحكم بالتغطية الإعلامية، لا يسمح للمصورين بنقل الوقائع على الهواء دون رقابة.

ثالثاً: ما أشار إليه مراسلو الصحف الإسرائيلية أنهم زاروا عشية المؤتمر وفي يوم انعقاده العديد من السفارات العربية في واشنطن، ولم يواجهوا بأي صد، أو ممانعة من قبل العاملين في هذه السفارات، باستثناء السفارة السورية حيث منعوا من دخولها.

رابعاً: وعلى ذمة وكالة الأسوشيتد برس بأنها نقلت عن أعضاء في الوفد الأمريكي أن معظم الوفود العربية في اجتماع أنابوليس صفقت لدى انتهاء أولمرت من إلقاء كلمته أمام المؤتمر.

لقد كان رئيس وزراء العدو الصهيوني في غاية السعادة وهو يرى وفود (١٦) دولة عربية تجلس قبالته، وتستمع إلى شروطه ومطالبه وتقبل بالمرجعية الوحيدة للمفاوضات التي حددت في خارطة الطريق، ودونما إصرار من قبلها وأثناء الاجتماع أن تكون المبادرة العربية

(للسلام) مرجعية موازية لخارطة الطريق.

وقال أولمرت والأمل يحدوه بأن يحقق اختراقاً تطبيعياً: «يسرني أن أرى في هذه القاعة ممثلين عن دول عربية، غالبيتها لا تقيم علاقات دبلوماسية مع إسرائيل... لقد حان الوقت لتفعلوا ذلك، تقفون في المقابل وتشاهدون قطار السلام وهو يمر». وأضاف أولمرت: «حان الوقت لإنهاء المقاطعة والتنكر والتجاهل اتجاه دولة إسرائيل»، موضحاً: «لم يعد لدينا الامتياز، لا نحن ولا أنتم في التشبث بأحلام غير متصلة بمعاناة شعوبنا».

وتابع: «لا يوجد دولة عربية في الشمال والشرق والجنوب لا نريد صنع سلام معها.. لا توجد دولة إسلامية لا نريد إقامة علاقات دبلوماسية معها، ومن يريد صنع السلام معنا، نقول له من أعماق قلوبنا.. أهلاً وسهلاً».

مبادرة السلام العربية .. إلى أين؟

وما لفت الانتباه أن مبادرة السلام العربية التي طرحت في قمة بيروت ٢٠٠٢ وجرى التأكيد عليها في قمة الرياض في آذار/مارس من العام الماضي وفي اجتماع وزراء الخارجية العرب عشية اجتماع أنابوليس، على الرغم مما انطوت عليه من تنازلات، ورغم أنها أخضعت حق العودة للمساومة من خلال النص الوارد فيه بشأن موضوع اللاجئين الفلسطينيين، إلا أنه لم يجر التركيز عليها أثناء المؤتمر، حيث تم التركيز على وثيقة التفاهم التي انطوت على عموميات وآليات عمل شكلية، وعلى خارطة الطريق «المرحلة الأولى»، ورؤية بوش في حين اكتفى كل من بوش، وأولمرت بالإشادة بها خارج سياق وثيقة التفاهم وخارج إطار المرجعيات مرضاة لخاطر العرب المشاركين في الاجتماع ولإنقاذ ماء وجههم خاصة وأن وزراء الخارجية العرب أعلنوا عشية اجتماع أنابوليس بأن مشاركتهم فيه تستند إلى مبادرة «السلام» العربية، وخارطة الطريق، وقرارات الشرعية الدولية.

تسويق مكشوف

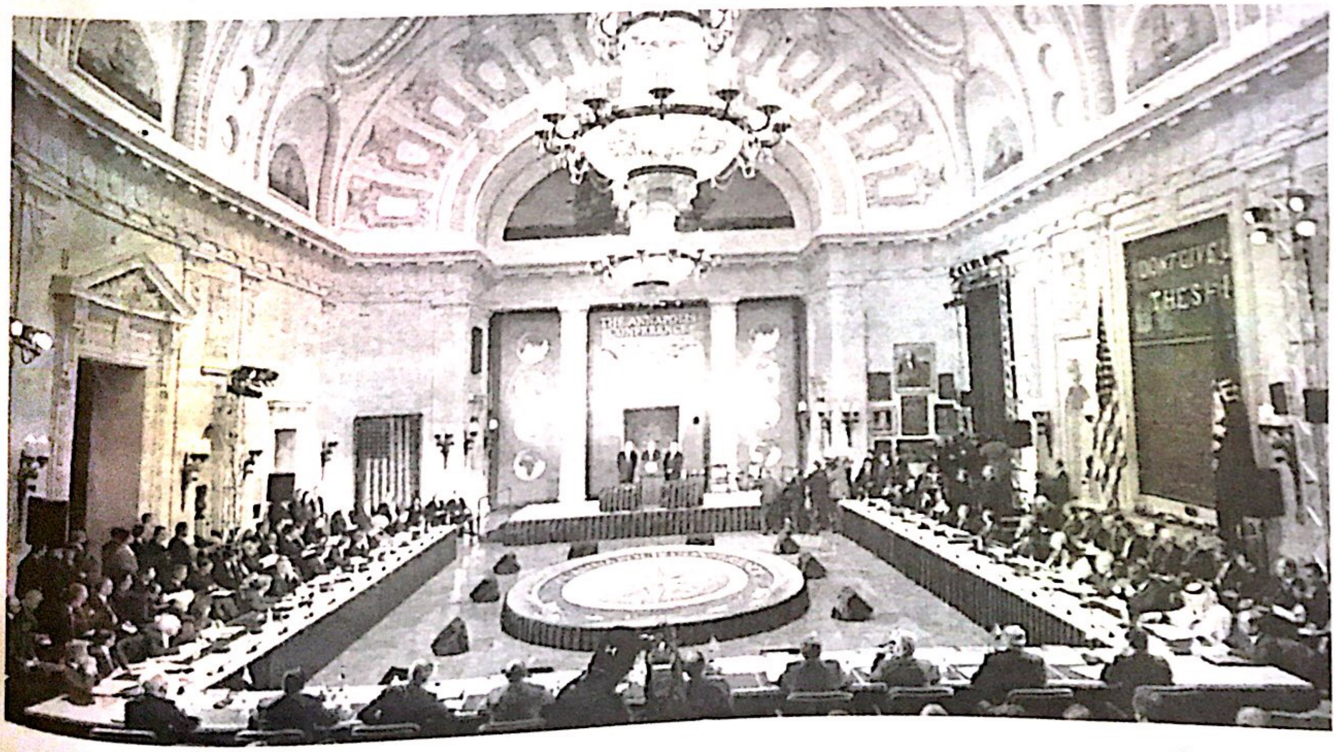
لقد سعى الجانبان الفلسطيني والعربي إلى تسويق إيجابيات مزعومة للمؤتمر على نحو أنه أعاد الاعتبار للقضية الفلسطينية ونقلها من قاع الاهتمامات الدولية إلى قمة هذه الاهتمامات وأنه طرح إطاراً زمنياً لها لمدة عام، لكن أولمرت صفع الجدول الزمني المشار إليه في وثيقة التفاهم بقوله في مقابلة إذاعية غداة انتهاء اجتماع أنابوليس «إن هدف إبرام اتفاق في عام ٢٠٠٨ لا يمكن أن يتحقق...» مضيفاً «علينا ألا نحاول الإدعاء بأن هذا الأمر سيتم خلال أسبوع أو عام، لكن يجب أن نبدأ من نقطة ما».

لقد أدركت معظم الدول العربية التي حضرت اجتماع أنابوليس عملياً بمذكرة جلب من الإدارة الأمريكية بأن بوش وأولمرت بالغا في إحراجها أمام شعوبها خاصة وأن بيان التفاهم الذي جرى تقديمه على عجل للمؤتمر جراء رفض المفاوض الإسرائيلي تقديم أي تنازل للمفاوض الفلسطيني أثناء الجولات التفاوضية العشرة التي عقدت في القدس قبل انعقاد أنابوليس.. هذا البيان لم يتضمن حتى ما ورد في خطاب الدعوة الموجهة لهذه الدول بشأن القضايا الجوهرية وآليات حلها.

وبهذا الصدد قال مسؤول عربي شارك في مؤتمر أنابوليس: «إن العرب الذين شاركوا في الاجتماع شعروا بخيبة أمل بعد إعلان الرئيس بوش التفاهم المشترك الذي تم التوصل إليه بين الفلسطينيين والإسرائيليين لإطلاق عملية التفاوض حول تسوية نهائية للقضية الفلسطينية».

وأضاف المسؤول - الذي طلب عدم ذكر اسمه - «من الصعب أن تأتي العملية التفاوضية التي أعلن عنها بنتائج، لا يوجد شيء يدعو إلى التفاؤل والعرب عموماً يشعرون بخيبة أمل».

وقال المسؤول العربي أيضاً «لقد اشترطت



وثيقة التفاهم التي أعلن عنها الرئيس بوش لتطبيق أي اتفاق سلام بتنفيذ المرحلة الأولى من خارطة الطريق، أي تفكيك شبكات المقاومة في الأراضي الفلسطينية وهو ما يعني الدخول في حرب مع فصائل المقاومة وتشكيلاتها المسلحة، مؤكداً أن الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات لم يستطع تنفيذ الشق الأمني في خارطة الطريق، فكيف يتمكن عباس الآن من ذلك.!!

وتابع: «إن هذا التفاهم المشترك لم يتضمن حتى التزام واضح كما كان يريد العرب بإنهاء المفاوضات قبل نهاية ولاية بوش، وإنما تحدث عن بذل أقصى جهد ممكن ليتحقق هذا الهدف».

بوش يصفع المشروع الوطني الفلسطيني

وجاءت زيارة بوش للمنطقة لتعمق الانقسام الفلسطيني الذي ظهر عشية اجتماع أنابوليس، ولتظهر الحقائق المخبئة وراء هذا الاجتماع، ولتترجم بعض العناوين التي وردت في وثيقة التفاهم. وفي كلمتي بوش وأولمرت بشكل مفصل ودقيق، ولتعيد إنتاج أنابوليس بشكل أكثر بؤساً وذلك من خلال تبني بوش في لقائه مع كل من أولمرت وعباس مقاربة العدو الصهيوني لحل الصراع الفلسطيني الصهيوني، والتي هي من حيث المضمون تشكل رؤيته لحل الصراع وللملامح المعاهدة التي يريد أن يراها بين الفلسطينيين والإسرائيليين، حيث بدت هذه المقاربة بما يلي:

أولاً: اتهامه الأمم المتحدة بأنها فشلت في معالجة هذا الملف، مستبعداً مرجعية الأمم المتحدة وقرارات الشرعية الدولية لحل القضية الفلسطينية، والتي تؤكد على بطلان الاستيطان، وعدم شرعيته، وعدم شرعية ضم القدس، وحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، والانسحاب من الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ بما فيها القدس.

لقد جعل الرئيس بوش عملياً مرجعية المفاوضات الثنائية بين حكومة العدو الصهيوني والسلطة الفلسطينية المفاوضات نفسها، أي ميزان القوى المختل وتشكيل مربع لصالح الكيان الصهيوني، بما يؤدي في واقع الحال إلى وضع الحمل أمام الذئب - على حد تعبير أحد المراقبين - لكي يستفرد به خاصة إذا ما لاحظنا أن (إسرائيل) تفاوض من جهة وتقوم بفرض وقائع استيطانية من جهة أخرى على الأرض في جبل أبو غنيم ومعاليه أدوميم وغيرهما.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الجانب «الإسرائيلي» رفض في جولة المفاوضات الثنائية الناجمة عن أنابوليس والتي عقدت في ٢٠٠٧/١٢/٢٤ رفضاً كاملاً تجميد أعمال الاستيطان التي أعلن عنها عشية هذه الجولة في كل من جبل أبو غنيم، ومستوطنة معاليه أدوميم، والتي تشمل عطاء لبناء (٧٥٠) وحدة سكنية في العام ٢٠٠٨.

لقد تجاهل بوش في اتهامه الأمم المتحدة بالفشل بأنه والإدارات الأمريكية السابقة مسؤولة عن فشل الأمم المتحدة في حل الصراع بشكل عادل من خلال ما يزيد عن (٤٠) فيتو قدمتها على مشاريع قرارات لمجلس الأمن على مدار خمسة عقود.. كما تجاهل بوش أن الإدارات الأمريكية حمت الكيان الصهيوني من العقاب بسبب رفضه وعدم التزامه بقرارات الشرعية الدولية مثل القرارات: ١٩٤، ٢٣٧، ٢٤٢، ٣٣٨ وغيرها.

ثانياً: البيان السياسي وتغيير قواعد اللعبة

أكد بوش في بيانه السياسي غداة لقائه مع عباس في رام الله على ما ورد في رسالة الضمانات التي سبق وأن قدمها لشارون في نيسان ٢٠٠٤ مع إضافات سلبية أخرى وذلك على النحو التالي:

١- أكد على ضرورة تعديل حدود عام ١٩٤٩، وهي في الحقيقة تعديل الحدود لعام ١٩٦٧، إذ إن استخدام عبارة خطوط الهدنة لعام ١٩٤٩ من شأنها إيهام البعض بأنه يعود إلى مرحلة التقسيم. والرئيس بوش عندما يتحدث عن تعديل في الحدود إنما يؤكد على مسألة تبادلية الأرض التي تفاهم الرئيس الفلسطيني بشأنها مع رئيس وزراء العدو أيهود أولمرت على الرغم من عدم التفاوض على نسبة التبادل حتى الآن بينهما، خاصة وأن بوش أكد على ضرورة التعديل ليعكس الوقائع الحالية من جدار واستيطان وضمان قيام دولة فلسطينية مزعومة قابلة للحياة ومتواصلة!!.. الأمر الذي يعني بوضوح أن الاتفاق الذي يعمل بوش على إبرامه بين الجانبين الفلسطيني و «الإسرائيلي» ينطوي على تغيير جذري في قواعد اللعبة التفاوضية عبر استبعاده مرجعية الأمم المتحدة وقراراتها وتبنيه علناً لرؤيته الخاصة بالحل، وهذا يعني عملياً إسقاط مطالب الفلسطينيين بانسحاب (إسرائيل) إلى حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧.

وما يجب الإشارة إليه هنا أن تعديل الحدود الذي أشار إليه بوش ينطوي على ضم الكتل الاستيطانية الكبرى للكيان الصهيوني وفق مبدأ تبادلية الأرض وهو ما يعني عملياً إضفاء الشرعية على عزل القدس بالمستوطنات والتفاوض على المناطق المحيطة بالمدينة المقدسة كعاصمة للدولة الفلسطينية وليس القدس الشرقية.. هذا بالإضافة إلى منح (إسرائيل) مجالاً أوسع للتفاوض بخصوص الحدود النهائية للدولة الفلسطينية في غور الأردن وسواه.

تجدر الإشارة إلى أن الجانب الفلسطيني في مفاوضات كامب ديفيد (٢) سبق وأن أبدى مرونة بالنسبة لتبادل الأرض المحدود، حيث وافق الرئيس عرفات في حينه على مبدأ التبادلية على أن لا يزيد عن ٢،٣ في المئة من مساحة الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية، لكن الجانب (الإسرائيلي) طالب بأن يصل حجم التبادل إلى (٨) في المئة دون شمول القدس والشاطئ الفلسطيني من البحر الميت، كما رفض الجانب الفلسطيني في حينه مصطلح الكتل الاستيطانية، فقد أرادت (إسرائيل) من تلك المفاوضات الاحتفاظ بثمانين في المئة من المستوطنين في الضفة الغربية مقابل تفكيك ما أسمته بالمستوطنات العشوائية، كما أرادت أن تسيطر على منطقة أمنية تمتد على طول نهر الأردن وهو ما رفضه عرفات في حينه.

٢- إلغاء بوش الكامل لحق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم وممتلكاتهم في مناطق ١٩٤٨، إذ إنه طرح في بيانه السياسي حلاً لمشكلة اللاجئين عبر دعوته المجتمع الدولي لإيجاد آلية لتعويضهم.. وبالتالي فإن تغيير قواعد اللعبة لم يقتصر على تعديل الحدود، بل شمل ملف اللاجئين أيضاً، وذلك في تجاهل صارخ للقرار الأممي رقم ١٩٤ الذي نص على حق العودة والتعويض معاً وذلك في نقض واضح وصريح لقرارات الشرعية الدولية.

٣- دعا بوش إلى إقامة دولة فلسطينية لتكون وطناً للفلسطينيين مثلما تكون

(إسرائيل) دولة لليهود، مؤكداً على يهودية الدولة بما يعني شطب حق العودة للاجئين الفلسطينيين والتهيئة لترحيل العرب الفلسطينيين المقيمين في مناطق ١٩٤٨.

٤- دعا بوش في بيانه السياسي الدول العربية إلى التطبيع مع (إسرائيل) دون أن يربط ذلك بانسحابها من كافة الأراضي العربية المحتلة.. وقال: «إنها خطوة كان ينبغي أن تحصل منذ فترة طويلة».

وهكذا فإن الرئيس الأمريكي أعاد التأكيد على ما ورد في خطاب الضمانات لشارون عام ٢٠٠٤ محدداً نتائج مفاوضات الحل النهائي مسبقاً وفقاً لرؤيته المطابقة للرؤية الإسرائيلية، ذلك الخطاب الذي وصفه الفلسطينيون في حينه بأنه بمثابة «وعد بلفور جديد».

ثالثاً: تجاهل موضوع القدس:

لقد تجاهل بوش في لقائه مع كل من أولمرت، وعباس وفي بيانه السياسي موضوع القدس بما يعني التسليم ضمناً بالموقف الصهيوني بشأنها.

وكان حريصاً على عدم إثارة موضوع القدس حرصاً منه أيضاً على الحفاظ على ائتلاف أولمرت الحكومي، وفقاً لنصيحة وزير حركة شاس في الائتلاف إيلي شاي، حيث اكتفى بالإشارة إلى حساسية موضوع القدس وتعقيداته.

رابعاً: الأمن

لقد كان خطاب بوش في زيارته للكيان الصهيوني ورام الله خطاباً أمنياً ومنحازاً بالكامل للعدو الصهيوني، حيث تبنى المقاربة الأمنية الإسرائيلية. واشترط في مؤتمره الصحفي مع عباس بأن يكون التقدم في عملية (السلام) مرتبطاً بقيام السلطة الفلسطينية بمكافحة ما أسماه بالإرهاب ووقف إطلاق الصواريخ على المستعمرات الصهيونية من قطاع غزة.

لقد دمغ بوش المقاومة بالإرهاب وقال: «إن رؤيته المفعمة بالأمل في مفاوضات الحل النهائي هي الطريق الوحيد للتغلب على ما أسماهم بالإرهابيين على المدى الطويل».

ووصل الأمر بجورج بوش إلى حد تحريض رئاسة السلطة الفلسطينية على حركة حماس وبقية فصائل المقاومة، وكان قد أعلن لدى وصوله للكيان الصهيوني أن التحالف بين الولايات المتحدة و (إسرائيل) سيساهم في ضمان أمنها كدولة يهودية، وقال: «إنه يعتبر (إسرائيل) دولة خاصة ومميزة كونها تشاطر الولايات المتحدة قيمها الديمقراطية والحرية!!».



خامساً: الاستيطان

تخلى الرئيس بوش في مجمل مواقفه وتصريحاته إبان زيارته الأخيرة للكيان الصهيوني ورام الله عن مطالبته (إسرائيل) بوقف النشاطات الاستيطانية بما فيها النمو الطبيعي للمستوطنات وفقاً لما نصت عليه المرحلة الأولى من خارطة الطريق، واكتفى فقط بمطالبة حكومة أولمرت بإزالة البؤر الاستيطانية والمستوطنات غير المرخصة من قبل الحكومة وكان هناك استيطان مشروع وآخر غير مشروع متجاهلاً قرارات مجلس الأمن التي تنص على عدم شرعية الاستيطان في الأراضي المحتلة.

علاقات عامة

لقد أطلق بوش عبارات علاقات عامة لا تسمن ولا تغني من جوع على نحو أنه يتفهم معاناة الفلسطينيين جراء الحصار والحواجز، لكن هذا التفهم للمعاناة لم يترجمه إلى ضغط على الكيان الصهيوني للتراجع عن سياسات الحصار، والحواجز، والاعتقال، والاغتيال، ووقف بناء الجدار، وإزالته، ووقف مصادرة الأراضي والاستيطان.

وهكذا كانت زيارة بوش للكيان الصهيوني ومناطق السلطة الفلسطينية «مسخرة» بامتياز لصالح الرؤية الإسرائيلية للحل ولصالح المقاربة الأمنية للكيان الصهيوني بعيداً عن مبادرة السلام العربية وبعيداً عن مرجعية الأمم المتحدة وقراراتها ومتجاوزة حتى خطة الطريق على سوءها عبر تطبيق صريح ومكشوف لخطاب الضمانات الأمريكي لشارون.

لقد أخذ العديد من المحللين والمراقبين والفصائل على السلطة الفلسطينية سكوتها على ما جاء في تصريحات بوش وبيانه السياسي، مشيرين إلى أن إعلان السلطة تمسكها بالثوابت في ظل مثل هذا الأداء السياسي لن يفيد القضية في شيء، إذ أنه نتيجة هذا الأداء السياسي في أوسلو ومشتقاته اللاحقة تضاعف عدد المستوطنات والمستوطنين في الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية وقطع العدو الصهيوني شوطاً كبيراً في تهويد القدس وبناء الجدار.

حقوق ليست للبيع

عوني صادق

انتهى (مؤتمر باريس للمانحين) بمشاركة أكثر من ٩٠ دولة ومنظمة متجاوزا حدود الكرم الذي تطلعت إليه حكومة سلام فياض، إذ تعهد المشاركون الكرماء جدا تقديم ٧,٤ مليار دولار على مدى السنوات الثلاث المقبلة. والسؤال ليس ما إذا كانوا سيوفون بتعهداتهم، أم أنها ستبقى مجرد أرقام على الورق أدت مهمة محددة في لحظة محددة، بل السؤال الأهم هو: مقابل ماذا كل هذا الكرم، وهل هو من أجل أن يرى الفلسطينيون دولتهم الموعودة، وما علاقة الأموال الممنوحة بقيام هذه الدولة؟

كثيرون يرون أن مؤتمر باريس جاء استكمالا لاجتماع أنابوليس، وأن ما أتفق عليه من أرقام مالية في باريس هو ثمن ما أتفق عليه من خطط سياسية في أنابوليس. والمدقق في الظروف والحيثيات يجدها ناطقة بالعبرية الفصحى! ففي الفترة بين الاجتماعين، ازدادت النشاطات العدوانية الإسرائيلية على كل الأصعدة: الاغتيالات، والتوغلات، وتوسيع الاستيطان وحتى استئناف الحفريات في باب المغاربة. لقد وصل عدد الشهداء في قطاع غزة وحده في هذه الفترة إلى حوالي ستين شهيداً إلى جانب عشرات الجرحى. كما أعلن عن عطاء لبناء ٣٠٠ وحدة سكنية في جبل أبو غنيم، وكشف عن مخطط لبناء مستوطنة جديدة في القدس الشرقية تضم حوالي ١٥٠٠٠ وحدة سكنية، وتواصلت تصريحات المسؤولين الأمنيين الصهاينة عن اقتراب عملية عسكرية واسعة لقطاع غزة تستهدف إعادة احتلال محور صلاح الدين، وأخرى تعيد التأكيد على أن القدس الكبرى، وحق العودة، والتجمعات الاستيطانية الكبرى في الضفة الغربية هي خارج نطاق المفاوضات النهائية، وكأنما (الدعم المالي) الذي قدم للسلطة في رام الله كان غطاء كافيا لكل تلك النشاطات العدوانية والتوسعية.

لقد كانت تصريحات المسؤولين الصهاينة عشية انعقاد مؤتمر باريس مفرطة في الوضوح ولا تدع مجالا للاجتهاد (المغرض)، وتشير إلى أن ما انطوت عليه كان أمرا تم الاتفاق عليه في أنابوليس، وحيث يتحول مؤتمر باريس إلى مجرد حفل للتوقيع عليه. وفي الاجتماع الأسبوعي لحكومة إيهود أولمرت الذي سبق افتتاح المؤتمر مباشرة، قال أولمرت لوزرائه: «بالطبع تبقى المسألة الأساسية لإسرائيل هي قدرة السلطة الفلسطينية على مواجهة المسائل الأمنية وتفكيك المنظمات الإرهابية، وضمان أن لا يمارس الإرهاب ضد إسرائيل». وفي الإطار نفسه، وفي كلمتها في مؤتمر باريس، أكدت وزيرة الخارجية تسيبي ليفني المعنى نفسه عندما قالت: « تحسين الأوضاع الاقتصادية للفلسطينيين والمخاوف الأمنية الإسرائيلية هما طرفا معادلة واحدة »، وهي تعني أن تحقق الأولى مرهون بتحقق الثانية.

وتعليقا على خطط بناء مستوطنات جديدة وتوسيع المستوطنات القديمة، لم تزد وزيرة الخارجية الأميركية عن القول: إن توسيع المستوطنات لا يساعد على (بناء الثقة) بين الفلسطينين والإسرائيليين! أما مساعدها، ديفيد ولش، فكان (أبعد نظراً) حيث قال: الإدارة الأميركية تريد معرفة ما إذا كانت هناك عطاءات مستقبلية للبناء في المستوطنات! والمسؤولان الأميركيان معذوران أن ينسيا أن الاستيطان كله كان غير شرعي حتى جاء جورج بوش الابن فجعله شرعيا، وهو ما لا يجب أن ينساه الرئيس محمود عباس وكبير مفاوضيه صائب عريقات اللذان اعترضا رفعا للعتب. وقد ردت ليفني عليهما بالتذكير والتشديد على «عدم إمكان الدخول إلى غرفة المفاوضات مع اتهامات متبادلة»!

وقد بررت كلمة عباس في مؤتمر باريس كل تجاهل لحقوق الشعب الفلسطيني التي يفترض أن تعنيها مقولة (الدولة الفلسطينية)، إذ أكد على مواقف تمثل (كلمة السر) في كل ما حصل عليه من دعم سياسي ومالي، فرفض التفاهم مع حركة (حماس)، وفي الوقت نفسه شدد على أنه لن يتخلى عن قطاع غزة، بينما أكد رئيس وزرائه سلام فياض على أنه معني برفع المعاناة عن (الغزاويين) لكنه لم ينس أن يذكر بأن الوضع القائم في غزة لا يمكنه من تقديم العون لهم، ودون أن يتطرق أي منهما للحصار الذي تشارك فيه سلطتهما مع (المجتمع الدولي) في فرضه على (الغزاويين) الذين يبدو أنهم خسروا جنسيتهم الفلسطينية حتى إشعار آخر!

لكن الأخطر في خطاب عباس تأكيده على (الالتزام بخريطة الطريق) وتشديده على أن (مكافحة الإرهاب) هي الأولوية الأولى لديه! فكيف يمكن أن يعتبر اتهاما أن يقال إن المعنيين (أقنعوه) أن كل ما حصل عليه شيء مرهون بتصفية المقاومة الفلسطينية؟ وفي الإطار اقترح الرئيس الفرنسي نيقولا ساركوزي إرسال قوات دولية إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة (لمساعدة الأجهزة الأمنية للسلطة) في التصدي والقضاء على منظمات المقاومة في الضفة وفي قطاع غزة على حد سواء، فعندها فقط يمكن إسقاط كل الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني والتغلب على كل عقبات الطريق إلى قيام (الدولة الفلسطينية). وقد فضح البيان الختامي الصادر عن مؤتمر باريس كل ما تم الاتفاق عليه في اجتماع أنابوليس، وما تم التوقيع عليه في باريس، بكلمات قليلة افادت أن الدعم السياسي والمالي الذي قدمه المشاركون في المؤتمر «سيكون لمواكبة عملية السلام التي انطلقت من أنابوليس»، وأن هذا «الدعم السياسي والمالي القوي مقدم إلى حكومة الرئيس محمود عباس ورئيس وزرائه سلام فياض ورؤيتهما لمستقبل الدولة الفلسطينية»! وبالمقابل، فقد قرر المؤتمر ضمناً ولكن بشكل واضح، أنه لا دولة فلسطينية خارج هذه الرؤية، التي هي في آخر التحليل رؤية إسرائيلية تسقط كل الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني التي نسوا جميعا أنها ليست للبيع.

الأوطان لا تباع..

صلاح محمد

هذا الحراك السياسي الذي تقوده الإدارة الأمريكية وتتحكم به، من اجتماع أنابوليس وما قبله إلى جولة رئيسها في منطقتنا، والضجيج الذي رافقها بفعل إعادة إنتاج المواقف الأمريكية المتناقضة على طول الخط مع مصالح شعوبنا... إلى أين يؤدي، هل هناك حل عادل في الأفق للقضية الفلسطينية.

ما هي طبيعة هذا الحل، هل حقا أن هذه الإدارة تريد حلا أم تواصل إدارة هذه الأزمة مع إحداث مشاغلة جديدة مرتبطة بتدوير زوايا موقفها، إذا كانت تسعى للحل فما الذي منع هذه الإمبراطورية طيلة هذه المدة من إيجاده، لماذا هذا الطرح الاستفزازي لمشاعر كل شعب فلسطين ومعه أمتنا العربية لجهة وأد حق العودة بهذا الاستخفاف، ولماذا لم يتم الرد الفوري عليه في رام الله، لأن الكبير والصغير يعلم باستحالة مرور أية تسوية إذا كانت على أنقاض حق العودة، لأننا نكون في هذه الحالة أمام تصفية لن تمر وليس أمام تسوية سياسية، بالتالي سوف يبقى الهدف الاستخدامي للقضية الفلسطينية والمناورة بأطروحات حلها من أجل التعامل مع الملفات الأخرى التي صنعت أزمة الإدارة الأمريكية مثل: الموضوع الإيراني والمقاومة في كل مواقعها، هناك قاسم مشترك اتجاه القضية الفلسطينية لدى زعماء البيت الأبيض سواء كانوا من الديمقراطيين أو من الجمهوريين، في هذا السياق يكاد الرئيس بوش أن يكرر نصا موقف سلفه الرئيس كلينتون الذي جمع الوفدين الفلسطيني والإسرائيلي يوم ٢٠٠٠/١٢/٢٣ أي قبل شهر من مغادرته للبيت الأبيض، طارحا رؤيته للتسوية، حيث شملت كافة العناوين: الدولة، الأرض، الأمن، القدس، اللاجئين والمستوطنات.. وصولا إلى العنوان الذي يفضله البيت الأبيض كخاتمة لرؤيته أو أفكاره.. وهو اتفاق إنهاء النزاع، تكلم كلينتون حول «دولة فلسطينية كوطن للشعب الفلسطيني، ودولة إسرائيلية كوطن للشعب اليهودي.. وذلك ضمن الحل على أساس الدولتين، وكانت آخر كلماته: «هذه هي أفكاري، إذا لم تقبل فإنها لن تزال عن الطاولة وحسب، وإنما تذهب معي أيضا عندما أترك منصبي» وكان كلينتون قد زار غزة في عام ١٩٩٦ من أجل شطب جزء أساسي من ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية، كلماته لم تذهب بل ورثها خليفته الرئيس بوش، والسبب يعود إلى أن هذه «الأفكار» تصون مصالح إسرائيل على حساب مصالح الفلسطينيين، وهو ما أكده بوش في مؤتمريه مع كل من أولمرت والرئيس عباس في مدينة القدس ثم في رام الله، مشيرا لرؤيته للدولة الفلسطينية، وحاول اللعب على التناقضات الفلسطينية الداخلية بصب المزيد من الزيت على نارها، من خلال تحميل السلطة الفلسطينية مسؤولية ما يجري في غزة مطالبا بوضع حد لمشكلة صواريخ غزة.. أما العذاب والحرمان اللذان يتلوى بسببهما أكثر من مليون ونصف مليون فلسطيني في القطاع من جراء السياسة الإسرائيلية المدعومة أمريكيا.. فهو غير معني به، وإذا كانت هذه الإدارة جادة في حل «الدولتين» فلماذا لا تطبق قرارات الشرعية الدولية ذات الصلة بهذا الجانب مثل القرارات التي تطالب إسرائيل بالانسحاب إلى حدود الرابع من حزيران ٦٧، بدلا من تجاوزها أو إلغائها، هذا الثنائي البغيض يريد دولة فلسطينية لكنه يريدها مفرغة من مقومات الدولة وتكون مكلفة بمهمة إنهاء المقاومة.

قبل وصول الرئيس بوش للمنطقة بأيام قليلة نشرت بعض وسائل الإعلام المحلية خبرا لم يصار إلى تداوله كما يجب، كان ملخصه على النحو التالي: إن البلدان الأوروبية قد عرضت على السلطة الوطنية الفلسطينية مشروعا لتوطين الفلسطينيين في أماكن تواجدهم وبدورها رفضت هذا العرض.. فهل يكون هذا الطرح بمثابة بالون اختبار لجس نبض شعب فلسطين وقواه توطئة «للأفكار الأمريكية» لإنهاء حق العودة التي تناولها بوش في المؤتمر الصحفي، إضافة إلى باقي الرزمة من تلك القضايا التي أنهت فكرة الحل الأمريكي: مثل تفهمه للرؤية الإسرائيلية من موضوعي القدس، الاستيطان ثم الحدود... وربطها بأمن إسرائيل، يضاف إلى ذلك الأخبار التي تروج والمواقف العملية في أكثر من موقع في منطقة المشرق العربي حول التوطين في لبنان والأردن، في الأولى حيث جرى التركيز الأمريكي مع حلفائهم هناك على التوطين من خلال استثمار مأساة أهل مخيم نهر البارد لفرض التطبيع التلقائي المتدرج مع مخطط التوطين، ولولا عمق وعي أهل المخيم ومستوى ارتباطهم بالوطن، ثم تحفز القوى الوطنية اللبنانية والفلسطينية لأصبح لبنان أول بلد عربي يشهد التوطين، هكذا نرى أن عمل الإدارة الأمريكية المتوارث في هذا الحقل ليس عفويا بل هو مدروس ومتناغم مع شركائها، له مؤيدوه من عرب أمريكا: هنا يتم التسلل من وسط الجراح والمآسي التي تعيشها العديد من المخيمات الفلسطينية لتمريره بالقطعة، لكن وحده الموقف الشعبي والوطني الفلسطيني والتقيد بالقرار الأممي رقم ١٩٤ كفيل بإفشال هذه الحلقة من الرؤية الأمريكية، المهم هنا مواصلة التمسك بحق الأجيال في وطنهم وعدم التفريط به في حالة عدم التمكن من فرض العودة في هذه المرحلة النضالية.

في موضوع القدس: كما أسلفنا القول، هناك تطابق أمريكي إسرائيلي اتجاهها، حيث

التركيز أولا على التخلص من العامل البشري الفلسطيني داخلها.. وثانيا: حل مشكلة العبادة على قاعدة بقاء السيادة للصهاينة، إلى ذلك أشار أولمرت في مؤتمره الصحفي مع بوش بأن القدس ليست مطروحة ضمن قضايا الحل النهائي، أما سكانها من الفلسطينيين فيمكن مناقشة وضعهم، في سياق تاريخي متصل نقول: لقد تم ضم القدس الشرقية إلى دولة الاحتلال بعد أقل من ثلاثة أسابيع من انتهاء الحرب العدوانية عام ١٩٦٧، بإجراءات «قانونية» سريعة لم يلازمها ضم السكان وأبقوا على جواز السفر الأردني، مع منحهم الهوية الإسرائيلية التي تعادل إقرار الإقامة فقط، وبناء على ذلك أصبح السكان الفلسطينيون مقيمين وليسوا «مواطنين».. بعد ذلك صاغ الصهاينة مجموعة أخرى من القوانين تقر إلغاء حق الإقامة وقتما شاءوا.. بمعنى قد اتبع هؤلاء المحتلون منذ الأيام الأولى لاحتلال الضفة الفلسطينية بما فيها القدس الشرقية فرض الوقائع الجيوسياسية، مما يصعب كثيرا من إعادة تقسيم القدس مرة أخرى... الخ بهذا المسلك أرادوا إحداث «الخلخلة» السكانية في المدينة المقدسة، بمصادرة أراضيها، والمئات من سكانها، وإقامة المشاريع الاستيطانية، البناء داخل الأحياء العربية.. وصولا لمرحلة القدس الكبرى الجاري العمل بها في هذه الفترة والتي تبلغ مساحتها أكثر من ١٠٪ من مساحة الضفة.

في الاستيطان: لقد أصبحت المفاهيم والحقائق واقفة على رأسها، فالإسرائيليون والأمريكيون لا يتحدثون إلا عن إيقاف البناء الاستيطاني، وإزالة البؤر «غير الشرعية»، وهذه الأخيرة لا تساوي شيئا في ميزان هذه المفصلة، التي يصل عددها إلى ما يقارب المئتي بؤرة.. لكن سكانها لا يتعدون الألفين، أما الكتل الاستيطانية الرئيسية التي قضمت أفضل أراضي الضفة وجزءاً هاما من مساحتها وتحكمت بغالبية مياهها الجوفية.. يبلغ عددها مائة وخمسون مستوطنة يسكنها في حدود ٤٥٠ ألف مستوطن استعماري، أي أن حصر الحديث حول البؤر فقط يهدف إلى «قبول التضحية بها» مقابل الإبقاء على الكتل وفرضها كوقائع.

نخلص للقول: بأن مشروع الدولة الفلسطينية بالمضمون الوطني يصبح تطبيقه أمرا مستحيلا مع تلك المستوطنات التي تقطع أوصال الضفة على المستويين الديمغرافي والجغرافي، وتسيطر على أكثر من ٥٠٪ من الأراضي.

في موضوع الحدود: وإن بدا هذا العنوان غير محدد في إطار الفكرة الأمريكية حول الدولة إلا أنهم من حيث الشكل يتحدثون عن عنوان جذاب، الانسحاب من الأراضي التي احتلت عام ١٩٦٧، لكنهم سرعان ما يفرغونه من أية مضامين.برز ذلك في رسالة بوش إلى شارون وكذلك وثيقة إعلان بوش المتزامنة مع تلك الرسالة في ١٤ أبريل ٢٠٠٤.. أو في حديثه في القدس ورام الله، وأنابوليس.. كلها معطيات تؤكد على: بقاء الاستيطانفي الضفة، بقاء القدس الشرقية على حالها أي جزء من «عاصمة» دولة الاحتلال... في هذا الإطار ابتدعت الإدارة الأمريكية في عهد كلينتون «مخرجا» على حساب المصالح الفلسطينية وهو «التبادلية» أو «تغيرات يتفق عليها» بالتالي شطب مطلب الانسحاب إلى ما قبل الرابع من حزيران، وهنا وصلت الأمور إلى درجة خطيرة من العنصرية، لأن التبادلية باتت تعني لدى الإسرائيليين التخلص من بعض المناطق الفلسطينية ذات الكثافة السكانية التي بقيت صامدة في الأراضي التي احتلت عام ١٩٤٨ بحجة المحافظة على الطابع اليهودي النقي للدولة الصهيونية لتكون وطنا قوميا لليهود.. وما ينتج عن ذلك من مأس لشعب فلسطين.



كلما أرادت الإدارة الأمريكية توفير الغطاء السياسي لموضوع ما فإنها تلجأ إلى مرجعية خارطة الطريق الصادرة عن الرباعية في أبريل عام ٢٠٠٣ وهي بالأساس أفكار أمريكية: تحدد آليات وخطوات التسوية الأمريكية... وفي حينها سجلت الحكومة الإسرائيلية ١٤ تحفظا عليها، أحاطتها إدارة بوش بمناخ إيجابي، هذه الخارطة تحولت إلى سيف مسلط على رقبة الطرف الفلسطيني حيث يطالب بتطبيقها من جانب واحد وبالذات الشق الخاص بالمقاومة... الخ.

على الإدارة الأمريكية أن تدرك أن قضية بهذا المستوى لا يمكن أن تحل بهذه الخفة وفي آخر أيام عهده هذا أو ذاك من رؤسائها، ويستحيل حلها بشكل عادل إلا من خلال: عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم وممتلكاتهم التي رحلوا عنها بقوة الإرهاب الصهيوني.. أو بالاستجابة للحد الأدنى من المطالب الفلسطينية كما يعبر عنه في هذه المرحلة: بإقامة دولة فلسطين على كامل الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧.. دون ذلك سوف يستمر الاشتباك المفتوح.. بين المشروع التحرري الوطني العربي والمشروع الإجلائي الاستعماري، لأن الأوطان لا تباع.

حالة الاقتصاد الفلسطيني في قطاع غزة

إمكانية التنمية في ظل الحصار

غازي الصوراني

نشهد في هذه اللحظة المهينة من تاريخنا، تراجعاً حاداً للأفكار الوطنية والديمقراطية التوحيدية، وهو مشهد زاخر بمظاهر القلق والإحباط واليأس بسبب حالة التفكك والانفصال بين الأهداف الوطنية التي ناضل من أجلها فقراء شعبنا الفلسطيني، وبين الصراع والاقتتال على السلطة لحساب البرامج والأهداف والمصالح الخاصة لطرفي الصراع فتح وحماس، وصولاً إلى المأزق شبه المسدود عبر مجموعة من العوامل أو الإشكاليات بدءاً من استفراد العدو الإسرائيلي بشكل ومضمون الحل المرحلي وفق رؤيته السياسية والأمنية منذ ما قبل أوسلو وبعده وصولاً إلى «أنابوليس» مؤخراً، إلى جانب تآكل النظام السياسي الفلسطيني في السلطة والمنظمة معاً، وما يجري من تكريس انفصال قطاع غزة عن الضفة الفلسطينية ما يعني تدميراً للمشروع الوطني التحرري الفلسطيني برمته.

وفي هذا السياق، فإن ما يعرض علينا اليوم من حلول تخديرية وفق منطق إرادة العدو الأمريكي الإسرائيلي تحت مسميات متنوعة من «أوسلو» إلى «أنا بوليس» التي ترفض مبدأ الحديث عن الدولة الفلسطينية المستقلة على كامل الأراضي المحتلة ٦٧، كما ترفض الحديث عن حق العودة وإزالة المستوطنات والانسحاب الكامل،لا تسعى إلا إلى تكريس الموقف الأمريكي الإسرائيلي.. أو شرعية المحتل وشروطه المذلة، وبالتالي فإن الحد الأدنى المطلوب الذي يمكن أن يقبله شعبنا كنهاية أخيرة لسقف التنازلات يتلخص فيما ورد في وثيقة الوفاق الوطني، التي يتوجب التمسك بنصوصها والتمترس حول بنودها وأسسها بحيث تكون مخرجاً أو محدداً مرحلياً لعملية التحرر الوطني والديمقراطي والتنموي التي يتطلع إليها شعبنا.

وبالتالي فإن الحديث عن التنمية وخلق فرص عمل في ظروفنا الراهنة - وفق عنوان الندوة المقترح من المعهد - يبدو نوعاً من السخرية والوهم أو حديثاً حالماً أو مثالياً أو هروباً من هذا الواقع المحكوم بقانون المحتل الغاصب وممارسته العنصرية النازية، والمحكوم أيضاً في اللحظة الراهنة بالفصل أو الانقسام بين الضفة والقطاع وما نتج عنه من مظاهر ومؤشرات التمزق السياسي والاقتصادي والاجتماعي والانحطاط والتراجع واليأس لأسباب ذاتية فلسطينية في معظمها رغم الخلل الكبير في ميزان القوى المختل بصورة غير مسبوقه بيننا وبين العدو الإسرائيلي.

ففي هذا المناخ، يأتي الحديث عن مظاهر تراجع الاقتصاد الفلسطيني، وتزايد نسب البطالة والفقر في مجتمعنا، كضرورة لا تتوقف عند الجانب الاقتصادي، بل تتخطاه نحو البعد السياسي في صيغة موحدة لا انفصام بينهما، بحيث يفرض هذا المدخل، زيادة وتفعيل عملية الضغط الجماهيري والسياسي على طرفي الصراع حماس وفتح التي تستهدف وقف ومواجهة كل مظاهر الانقسام والعودة إلى تكريس وحدة النظام السياسي الديمقراطي التعددي الفلسطيني، بمثل ما تستهدف مراكمة مقومات البديل



اليساري الديمقراطي المطلوب، وهي عملية باتت أكثر من ملحة لانتشال مجتمعنا من هذا المأزق الخطير الذي يهدد وجودنا وأرضنا وقضيتنا.

من هنا فإن استمرار حديثنا عن التنمية في ظل الاحتلال و اتفاقاته وحصاره وممارساته العنصرية النازية من جهة و استفحال مظاهر الانقسام السياسي والاقتصادي الداخلي من جهة ثانية، سيجعل من مفهوم التنمية كائناً غريباً مشوهاً للشخصية الوطنية. قد يؤدي - في ظل استمرار المظاهر والصراعات الداخلية و تراكمها - إلى حالة من اليأس تنذر بفقدان شعبنا لمقومات وعيه ومشروعه الوطني وهويته مقدمة لفقدان وعيه وانتمائه القومي.

لذلك فإن الحديث عن التنمية وخلق فرص عمل في هذه المرحلة، يصدمنا بثنائية متناقضة، الوجه الأول لهذه الثنائية تتفاعل في إطاره ثلاثة معوقات تعرقل كل منها نمو الفرص الاحتمالية المتاحة لعملية التنمية المنشودة، وهي :

١- الاحتلال وعدوانه الهمجي شبه اليومي، وحصاره وإغلاقاته التي تحول دون امتلاك مجتمعنا للقدرة على اتخاذ القرارات الاقتصادية و السياسية.

٢- المعوقات الذاتية الفلسطينية الداخلية في إطار الصراع على السلطة وصلاحياتها بين فتح وحماس التي تكرس الانقسام السياسي والمجتمعي والجغرافي.

٣- المعوقات العربية والدولية: و هي تنحصر في تراجع الدعم العربي الرسمي عموماً عن تأييده الواضح والصريح لقضايانا العادلة والمشروعة في مواجهة المحتل الإسرائيلي من جهة وغياب الدعم الاقتصادي من جهة ثانية، ويرجع ذلك إلى تعمق تبعية النظام العربي واحتوائه في إطار السياسة الأمريكية، بحيث بات يرى في القضية الفلسطينية عبئاً ثقيلاً عليه يسعى إلى الخلاص منها بأي ثمن، وهو تحليل ينطبق على مجمل العلاقات الدولية التي باتت محكومة أو متوافقة مع نظام العولمة الأمريكي.

أما الوجه الثاني لهذه الثنائية المتناقضة الذي يمكن أن يمتلك القدرة على مواجهة هذه المعوقات، فهو: البديل الوطني الشعبي الديمقراطي في إطار الرؤية القومية العربية الوحدوية (وهو البديل الغائب أو الضعيف غير



المؤثر حتى اللحظة) باعتباره الخيار الوحيد الممكن الذي يمهد الطريق نحو الخطوة الأولى الضرورية لإنجاح عملية التنمية المنشودة لفلسطين بكل أبعادها التحررية الوطنية والقومية، ذلك أن أي حديث عن التنمية في فلسطين - في الحاضر و المستقبل - في ضوء المتغيرات العالمية و الإقليمية و المحلية، لا بد و أن يتوصل استنتاجاً، إلى أن آفاق تطور هذه التنمية ستظل مغلقة بدون الالتزام المطلق بمنطلقات وآليات النضال التحرري الوطني الديمقراطي في إطار الحركة القومية الديمقراطية الشعبية من ناحية وعلى قاعدة التمسك بمفهوم وتطبيقات الوحدة الوطنية والتعددية الديمقراطية الفلسطينية كطريق مستقبلي وحيد يمكننا من إزالة الاحتلال والمستوطنات عن أرضنا المحتلة عام ٦٧ وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة المستقلة كاملة السيادة كحل مرحلي، رغم إدراكنا ووعينا لصعوبة أو استحالة هذا الحل في ظل ميزان القوى المختل بيننا وبين العدو راهناً.

وفي كل الأحوال فإننا نفترض أن هذا الفهم للتنمية يجب أن يشكل أحد المحاور الرئيسية لنشاط و برامج الحركة الوطنية الفلسطينية لأنه المحور المكمل عبر علاقة جدلية و متصلة لعملية التحرر الوطني و الاستقلال والدولة، فالانهيار الاقتصادي - الاجتماعي الناتج عن استمرار فصل الضفة عن القطاع، وتفكك النظام السياسي الديمقراطي الفلسطيني، وانهيار التجربة الديمقراطية، واستفحال مظاهر الهبوط السياسي والفقر والبطالة والقلق واليأس، يدفع أو يراكم بالضرورة نحو خلق مقومات الانهيار السياسي والاجتماعي بما يجعل من الفوضى والعشوائية والفلتان الأمني والاقتصادي من ناحية وتزايد تحكم القوى الخارجية (الأمريكية الإسرائيلية) في مستقبلنا من ناحية ثانية، عاملاً مقرراً في أوضاعنا السياسية الاقتصادية المجتمعية، وفي كلا الحالتين يصبح مستقبل شعبنا معلقاً بعوامل لا دخل لإرادة جماهيرنا في تشكيلها أو التأثير فيها، وهذا بالقطع وضع يائس، ما أتعس الأمة التي تجد نفسها فيه.

- أما بالنسبة للحصار المفروض على شعبنا في قطاع غزة الذي تحول إلى سجن كبير لكل سكانه، فإننا نشير بوضوح إلى الدور الرئيسي للولايات المتحدة، المقرر والحليف الاستراتيجي للعدو الإسرائيلي، فيما وصلت إليه الأوضاع الفلسطينية والعربية من تبعية وتخلف وخضوع.

وفي هذا الجانب أشير إلى الدعم المالي الموعود والمشروط المقدم في الضفة من الولايات المتحدة و أوروبا وإسرائيل، الهادف إلى إخضاع مشروعنا الوطني والقومي لمقتضيات التوسع الامبريالي الصهيوني، بمثل ما يهدف إلى توسيع الهوة بين القلة من أصحاب المصالح و بين الأغلبية الساحقة من أبناء شعبنا، فهو دعم يهدف إلى المزيد من تغييب مبادئ العدالة الاجتماعية والمساواة، ما يعني اتساع إطار الفساد وآلياته وأدواته، إنه الدعم الذي

يحول المعادلة من حرب ضد الفقر والبطالة إلى حرب ضد الفقراء أنفسهم كما يمارسونها اليوم في قطاع غزة، سفينة نوح الفلسطينية والحاضنة للهوية الوطنية، مستهدفين تركيع القطاع وإذلاله واستسلامه للمخطط الامبريالي الصهيوني لكي يتحول أبناء شعبنا في الوطن و الشتات إلى مجرد كائنات اقتصادية تستسلم للقمة العيش و ضروراتها تمهيدا لنكبة اجتماعية و ثقافية تضاف إلى النكبة السياسية أو التكيف الذي ترفضه جماهير شعبنا من الفقراء و الكادحين مثلما ترفض و تلفظ أدواته في هذه اللحظة السوداء المؤقتة.

على أي حال أود أن أؤكد - بداية - على عدد من الحقائق المرتبطة بموضوع ندوتنا اليوم:

١) الحصار ليس جديداً، فهو سمة من سمات العدو الإسرائيلي وجزء حيوي من سياساته ضدنا منذ أوسلو وصولاً إلى «أنا بوليس».

٢) اعتماد الاقتصاد الفلسطيني - بدرجة عالية - على الدول المانحة مع إدراكنا أن القسم الأكبر من هذه الدول منحاز لسياسات العدو الإسرائيلي.

٣) التراجع الحاد في الدور العربي الرسمي الداعم للأهداف الوطنية الفلسطينية وللاقتصاد الفلسطيني.

٤) الحصار والعدوان الصهيوني/ الأمريكي الحالي، يتخذ أبعاداً سياسية واجتماعية ترتبط بمستقبل النظام السياسي أو المشروع الوطني الفلسطيني المهدد بالتفكك والانقسام السياسي والقانوني، علاوة على البعد الاقتصادي الذي يمثل مصدر المعاناة والألم المباشر لشعبنا.

أما بالنسبة للمأزق الاقتصادي الذي يتعرض له قطاع غزة اليوم فهو يتمثل في مجموعة من المؤشرات نذكر منها:

١) انخفاض الدخل القومي، وانخفاض المدخرات، وتراجع نصيب الفرد من الناتج المحلي بصورة ملحوظة بسبب استمرار سياسة الحصار الاقتصادي المشدد، مما يعني أن هناك تراجعاً حاداً في مختلف المؤشرات الاقتصادية الكلية نتيجة للحصار بسبب فقدان الدخل وانخفاض الإنفاق الأسري ارتباطا بالتراجع الحاد في القوة الشرائية الناجم عن الغلاء الفاحش في الأسعار، مما أدى إلي تغيير الأنماط الاستهلاكية الذي تزامن مع التراجع في الدخل وانتشار ظاهرتي البطالة والفقر في الأراضي الفلسطينية.

٢) الانهيار المتواصل في البنية الاقتصادية لقطاع غزة، سواء بالنسبة للموارد المادية الضعيفة تاريخيا، أو بالنسبة للمنشآت الصناعية التي توقف أكثر من ٩٠٪ منها عن العمل، وكذلك الأمر بالنسبة لقطاع الزراعة الذي توقف عن التصدير بصورة شبه كلية، إلى جانب التدهور المريع في قطاع الإنشاءات، والتجارة، والخدمات في سياق التراجع الحاد للواردات والصادرات بصورة غير مسبوقه.

٣) الارتفاع المتوالي للأسعار (أدى إلى تغير إكراهي مرير ومذل في أنماط الاستهلاك لدى الأسر الفلسطينية من أصحاب الدخل المحدود) و في هذا السياق فلا السلطة في رام الله و لا حركة حماس في غزة عملتا على تثبيت أسعار السلع الأساسية أو تنفيذ أية برامج داعمة لقطاع الصناعة، أو الزراعة، أو الإنشاءات، أو للفقراء بصورة ملموسة ومتصلة.

٤) اتساع حجم البطالة و الفقر، و ارتفاع نسبة الإعالة ١-٦ تقريباً (البطالة في قطاع غزة اليوم تصل إلى ٣٣٪ ما يعادل ٩٩ ألف عاطل، من مجموع القوى العاملة البالغة حوالي ٣٠٠ ألف منهم (٨١٠٤٠)[١] في القطاع العام و(١٠٣٨٣٣) في القطاع الخاص و(١٦١٢٧) عامل في الاونروا والمؤسسات غير الحكومية و(٩٩٠٠٠) عاطل عن العمل، وهؤلاء المتعطلين يعيلون ما يقرب من ٥٩٤ ألف نسمة (ما يعادل ٣٩,٦٪ من مجموع سكان القطاع البالغ ١,٥ مليون نسمة) يعيشون تحت مستوى خط الفقر، أو في حالة من الفقر المدقع في ظروف لا يعرفها إلا من يكتوي بنارها.

٥) ثبات الأجور وعدم دفعها بصورة دورية، وحرمان البعض منها، آخذين بعين الاعتبار الفرق في متوسط الأجر اليومي في القطاعين العام، والخاص حسب بيانات مسح القوى العاملة في الربع الثالث من العام ٢٠٠٧ [٢]، فقد بلغ متوسط الأجر اليومي في القطاع الخاص نحو (٤٠) شيكلاً، أما في القطاع الحكومي فقد بلغ (٧٨) شيكلاً، بينما بلغ هذا المتوسط نحو (٨٩) شيكلاً في الاونروا والمنظمات غير الحكومية، وفي هذا الجانب فإن الدخل الأكثر انخفاضا نجده في قطاع الزراعة الذي لا يتجاوز فيه متوسط الأجر اليومي للعامل (٢٩) شيكلاً فقط، وفي هذا السياق فإن أعلى معدلات الفقر في القطاع تنتشر في مخيماته أولاً وفي شرق وشمال محافظة غزة ومدينتي رفح وخان يونس.

٦) قامت قوات الاحتلال الإسرائيلي باتخاذ جملة من الإجراءات ضد سكان قطاع غزة في أعقاب الحسم العسكري في منتصف حزيران الماضي، تمثلت بفرض حصار اقتصادي مشدد تمثل بإغلاق المعابر والمنافذ، وإلغاء (الكود) الجمركي الخاص بقطاع غزة ومنع رجال الأعمال الفلسطينيين من الخروج للعالم الخارجي ومنع دخول المواد الخام اللازمة للصناعة، والتقييد للبنوك في استجلاب (الشيكل) وفرض ضغوطات على البنوك في قطاع غزة، وأغلقت المعابر التجارية في وجه الاستيراد والتصدير، مما أدى إلى تدهور الوضع الاقتصادي وما رافقه من تزايد نسب البطالة والفقر وكل مظاهر المعاناة والحرمان التي تنتج بدورها مزيداً من مظاهر القلق والإحباط واليأس وغياب الآفاق السياسية.

إن حديثي عن هذه المؤشرات لا يلغي وجود أنماط استهلاكية في قطاع غزة وصلت حد الترف المفرط لدى بعض الشرائح الاجتماعية البورجوازية العليا عموماً والتجارية الكومبرادورية خصوصاً عبر التحكم في الأسعار واحتكار السلع والتهريب وغير ذلك من الممارسات التي ساهمت في تزايد الارتفاع في الأسعار بصورة غير مسبوقة.

على أي حال في ظروفنا الفلسطينية الراهنة، فإن الفقر لا يتوقف عند نقص الدخل أو البطالة و انخفاض مستوى المعيشة، بل يشمل أيضا غياب الإمكانية لدى الفقراء وأسرهم من الوصول إلى الحد الأدنى من فرص العلاج و تأمين الاحتياجات الضرورية.

والأخطر أن هذه الظاهرة من استفحال الفقر و البطالة قد ساهمت في توليد المزيد من الإفقار في القيم مما سهل و يسهل استغلال البعض من الفقراء و المحتاجين في العديد من الانحرافات الأمنية و الاجتماعية بحيث لم تعد ظاهرة الفقر مقتصرة على الاحتياجات المباشرة بل أصبح مجتمعنا الفلسطيني عموماً يعيش فقراً في القيم وفقراً في النظام وفي القانون والعدالة الاجتماعية والسبب الرئيسي في ذلك هو الحصار الأمريكي الإسرائيلي بالطبع.

آثار الحصار والإغلاق على الأنشطة الاقتصادية :

١- أثر الإغلاق على التجارة :

استمرار عمليات إغلاق المعابر، والتحكم بحركة الصادرات والواردات أدي إلى تراجع في الحركة اليومية للشاحنات التجارية الأمر الذي اثر بشكل سلبي على قدرات القطاعات الاقتصادية المحلية من ناحية واحجام المستثمرين عن تنفيذ العديد من المشاريع الاقتصادية داخل قطاع غزة.

أما من حيث التأثير المباشر فقد أدت هذه الإجراءات إلى انعدام التصدير وتراجع حجم واردات قطاع غزة بشكل حاد، فقد بلغ مجموع الواردات هذا العام حتى نهاية سبتمبر ٢٠٠٧، (٣٠٠) مليون دولار فقط، تتوزع كما يلي: من الضفة بمعدل ١٥٪ ومن إسرائيل ٧٠٪ ومن الخارج ١٥٪ (خاصة مصر وعبر عمليات التهريب) علما بأن واردات قطاع غزة طوال الأعوام الماضية كانت بمعدل ٦٥٠-٧٠٠ مليون دولار سنوياً. كما واجه قطاع الإنشاءات على وجه التحديد انخفاضاً وتدهوراً حاداً ومتواصلاً منذ منتصف ٢٠٠٧، وما تبقى منه مهدد بالتوقف الكلي مع بداية العام ٢٠٠٨.

وقد سجل تراجع عام في تسجيل الشركات (حوالي ٧٠٪) وتشير البيانات بعدم تسجيل أية شركة أجنبية منذ الربع الثاني من العام ٢٠٠٦.

٢- أثر الإغلاق على القطاع الصناعي في قطاع غزة :

تراجعت المنشآت العاملة في القطاع الصناعي من حوالي ٤٠٠٠ مصنع خلال شهر يونيو ٢٠٠٥ إلى ٧٨٠ مصنع خلال الأسبوع الأول من شهر يوليو ٢٠٠٧ هبطت إلى ٤٠٠ مصنع فقط في نهاية نوفمبر ٢٠٠٧، وقد أدى ذلك إلى انخفاض أعداد العاملين في القطاع الصناعي في قطاع غزة من ٣٥,٠٠٠ عامل إلى نحو ٤,٢٠٠ عامل[٣].

وكانت أكثر القطاعات الصناعية تضرراً هي قطاع صناعة الأثاث، والملابس، والنسيج، والصناعات الغذائية، إذ انخفضت عدد المنشآت العاملة في قطاع صناعة الأثاث في قطاع غزة من ٦٠٠ مصنعاً خلال العام ٢٠٠٥ إلى نحو١٢٠ مصنعاً في يوليو٢٠٠٧، ثم تراجعت إلى ٥٠ مصنعاً في سبتمبر ٢٠٠٧ وانخفض عدد العاملين في صناعة الأثاث من ٥,٥٠٠ عامل إلى نحو ٥٥٠ عامل في يوليو ٢٠٠٧ ثم تراجع إلي ٢٢٠ عامل في سبتمبر٢٠٠٧، هذا وتقدر الخسائر الإجمالية المتراكمة لقطاع الصناعة بمبلغ نصف مليون دولار يومياً منذ فرض الحصار حتى أول ديسمبر الحالي (ما يعادل ٧٥ مليون دولار) الأمر الذي يؤشر إلى تزايد الخسائر المباشرة نتيجة استمرار الحصار، مما يدفع إلى تآكل رأس المال الصناعي وهروبه إلى الخارج، والحد من قدرة القطاع الصناعي في المستقبل.

٣- أثر الإغلاق على القطاع الزراعي في قطاع غزة :

نشاط القطاع الزراعي من الأنشطة الهامة التي يعتمد عليها سكان قطاع غزة إذ تساهم هذه الأنشطة بنسبة كبيرة في الاقتصاد المحلي من حيث القيمة المضافة والتشغيل.

وقد أثرت سلباً اغلاقات المعابر التي تحد من حركة استيراد المستلزمات الإنتاجية مثل الأدوية الزراعية والأسمدة، والحبوب، والنايلون المستخدم في الدفيئات الزراعية، واعاقة تصدير المنتجات الزراعية.

وكانت محاصيل الجوافة، والبطاطا، والفراولة، والزهور من أكثر المحاصيل عرضة للخسارة في الربعين الثالث والرابع من هذا العام ٢٠٠٧.

وبالتأكيد فإن استمرار إغلاق المعابر والمنافذ الحدودية يهدد موسم الزراعات التصديرية، فعلى سبيل المثال لا الحصر يتوقع أن تصل خسائر مزارعي التوت الأرضي حوالي ١٠ مليون دولار، وخسائر مزارعي الزهور حوالي ٤ مليون دولار، إلى جانب خسائر المنتجات الزراعية الأخرى، الخضار والحمضيات..الخ.

٤- أثر الحصار على إمدادات الوقود والطاقة الكهربائية :

لاشك أن للتهديدات الإسرائيلية المتواصلة بقطع إمدادات الطاقة والكهرباء عن قطاع غزة تأثير سلبي على كافة الأنشطة الاقتصادية والصحية والاجتماعية.

وقد قامت شركة ألون دور الإسرائيلية بوقف إمداداتها من الوقود إلى أسواق القطاع، وذلك فور إغلاق المعابر منذ منتصف حزيران الماضي، ولمدة ٢٤ ساعة وعادت واستأنفت تموين القطاع بكميات محدودة من احتياجاته الأساسية، تكفيه يوما بيوم، دون القدرة على تخزين كميات احتياطية.

وبناءً على تقرير جمعية أصحاب محطات الوقود في قطاع غزة[٤] فإن الاحتياجات اليومية للقطاع من المحروقات هي: (٣٥٠) ألف لتر من السولار، (١٢٠) ألف لتر بنزين، (٣٥٠) طن غاز بالإضافة إلى (٣٥٠) ألف لتر يوميا من السولار الصناعي لتشغيل محطة الكهرباء، إلا انه في ضوء القرار الإسرائيلي في نهاية نوفمبر ٢٠٠٧ بخصوص تخفيض كميات المحروقات، فقد انخفضت كميات السولار اليومية إلى (٩٠) ألف لتر فقط بنسبة انخفاض ٧٤٪، وانخفض البنزين إلى (٢٥) ألف لتر فقط بنسبة انخفاض ٧٩٪، وانخفض الغاز إلى (١٠٠) طن بنسبة انخفاض ٧١٪.

٥- أثر الإغلاق على حركة الأفراد والبضائع :

أغلقت إسرائيل المعابر المؤدية إلى قطاع غزة، ومنعت دخول أكثر من ٨٠٪ من السلع والبضائع والمواد الخام باستثناء بعض السلع الأساسية من الأغذية والأدوية وتوقفت مؤخرا عن توريد احتياجات القطاع الكاملة من الوقود حيث تسمح اليوم بتوريد ثلث الاحتياجات فقط.

قامت السلطات الإسرائيلية بمنع الطلاب، والمرضى، والتجار من السفر إلى الخارج، مما أدى إلى حرمان هذه الفئات من التعليم، والعمل، والعلاج في الخارج (بلغ عدد الوفيات من المرضى بسبب الحصار ١٥ حالة وفاة حتى نهاية نوفمبر ٢٠٠٧).

٧- توقف المشاريع الإنشائية والعمرانية :

توقف معظم المشاريع الإنشائية، والعمرانية، والتطويرية الخاصة والعامة، نتيجة إغلاق المعابر ومنع دخول مواد البناء إلى الأسواق الفلسطينية في قطاع غزة، ومن أهم هذه المشاريع التي أوقفت مشروع تطوير شارع صلاح الدين الواصل شمال القطاع بجنوبه بتكلفة إجمالية تقدر بحوالي ١٨ مليون دولار، وكذلك شارع النصر والعديد من المشاريع الأخرى.

كما توقفت مشاريع البناء والتطوير التي

تنفذها الأونروا والتي تقدر بحوالي ٩٣ مليون دولار وتشكل مصدر دخل لما يزيد عن ١٢٠ ألف شخص. وفي هذا السياق نشير إلى توقف المشاريع المتعلقة بالمرحلة الأولى لميناء غزة بكلفة (٦٩) مليون دولار ومشروع المطار بكلفة (٨٧) مليون دولار ومشروع الطريق الساحلي بكلفة (١٧٩) مليون دولار ومشروع تطوير ميناء الصيادين بحوالي (١٠) مليون دولار.

ويبلغ مجموع المشاريع في قطاع البناء التي تم إيقافها وتعطلها بنحو ١٦٠ مليون دولار بما فيها مشاريع وكالة الغوث الأونروا وبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي ومشاريع أخرى.

الخسائر اليومية
بسبب الحصار على قطاع غزة:

- **الخسائر الإجمالية المباشرة:** تقدر بحوالي ٤٨ مليون دولار شهرياً (منذ منتصف حزيران ٢٠٠٧) و تتوزع على قطاع الصناعة بمعدل ١٦ مليون دولار شهرياً بنسبة ٣٣٪ وعلى قطاع الزراعة بمعدل ١٢ مليون دولار شهرياً بنسبة ٢٥ ٪ وعلى القطاعات الأخرى، التجارة والإنشاءات والخدمات والصيد بمعدل ٢٠ مليون دولار شهرياً بنسبة ٤٢٪.

- **الخسائر اليومية غير المباشرة :** وهي في تقديري تزيد عن خمسة ملايين دولار يوميا، لكن ذلك التقدير يحتاج إلى دراسة عاجلة من المتخصصين المشهود لهم بالمصداقية الوطنية و في هذا الجانب يمكننا الإشارة إلى عدد من الجوانب الرئيسة المولدة لهذه الخسائر غير المباشرة وهي:

١) النتائج الكارثية على العاملين في القطاعات الاقتصادية عموماً و قطاعي الصناعة و الزراعة خصوصاً و آثار الحصار على إغلاق ٨٩٪ من مجموع المنشآت الصناعية من حيث الخسائر الناجمة عن عدم توفر المواد الخام و توقف فرص المبيعات و التصدير.

٢) الارتفاع المذهل في أسعار العديد من السلع و المواد الغذائية و الضرورية ارتباطاً بتحديد العرض من جهة و بالسوق السوداء، أو الاحتكار من بعض تجار القطاع الخاص الذين لا همّ لهم سوى الربح من جهة ثانية.

٣) التراجع التدريجي في الإنتاج الحيواني، والبيض، والألبان بسبب ضعف توريد الأعلاف ما قد يودي إلى انهيار الثروة الحيوانية و خاصة الدواجن اللاحمة، و البياضة و التي تزيد قيمتها عن ٥٠ مليون دولار.

٤) الخسارة غير المباشرة الناجمة عن غياب فرص توليد الدخل مما سيراكم في حرمان اقتصادنا في القطاع من النمو الطبيعي و عزله عن اقتصاده في الضفة وعلاقاته مع الأسواق العربية والأجنبية.

لم تقتصر السياسة الإسرائيلية المتمثلة بالحصار والإغلاق المشدد على الآثار الاقتصادية بل أدت إلى آثار اجتماعية وظواهر خطيرة كارتفاع معدلات البطالة وازدياد نسبة الفقر التي ارتفعت معدلاتها:

- وصول معدلات البطالة إلى حوالي ٣٣٪ من مجموع القوى العاملة في قطاع غزة، سترتفع لتصل نسبة البطالة إلى حوالي ٥٠٪ بسبب تعرض قطاع الخدمات لعوامل الانهيار مع استمرار الحصار وعزل القطاع عن العالم الخارجي، وما سينجم عن ذلك من وقف حوالي ٥٠ ألف عامل في قطاع الخدمات عن العمل خلال الشهرين القادمين، مما سيفاقم مشكلة البطالة واتساعها، وفي هذا الجانب نشير إلى ان ٥٢٪ من فئة الشباب (٢٠-٢٤ سنة) عاطلين عن العمل.

- ازدياد نسب الفقر المدقع إلى حوالي ٣٧٪ من مجموع السكان ونسب خط الفقر إلى أكثر من ٧٠٪، وقد تركزت أعلى معدلات للفقر في محافظات شمال غزة وخان يونس بنسبة ٧٣٪ و ٧٥٪ على التوالي(٥).

- إن الحديث عن استفحال مظاهر الفقر، والبطالة، وكل أشكال المعاناة والحرمان التي يعاني منها أبناء شعبنا عموماً، وفي قطاع غزة خصوصاً حيث ينتشر الفقر بصورة غير مسبوقة في صفوف الأغلبية الساحقة من أبنائه، وذلك ضمن خطين أو قسمين: قسم يستطيع أن يلبي احتياجاته الأساسية والكمالية (الأقلية) و قسم آخر (الأغلبية) لا يستطيع أن يلبي احتياجاته الأساسية ضمن الحد الأدنى ٢٠٠٠ شيكل (٤٥٠ دولار) شهرياً للعائلة بسبب الغلاء الفاحش. وهذه المجموعة تمثل حوالي ٧٠٪ من مجموع السكان، كما أنها تضم شريحة واسعة من الفقراء الذين يندرجون تحت خط الفقر، أو فقر المجاعة، أو الفقر المدقع ممن يقل دخلهم عن ٣٠٠ دولار شهرياً للأسرة وهي تشكل اليوم حوالي ٣٩,٦٪ من سكان القطاع بسبب تضخم حجم البطالة، والغلاء، وارتفاع الأسعار، والحرمان، والمعاناة بعد أن بات حوالي ٤٥٪ من الأسر الواقعة تحت خط الفقر عاجزة عن تأمين احتياجاتها الأساسية ضمن الحد الأدنى في ظروف الحصار الراهنة التي يمارسها العدو الإسرائيلي بموافقة أمريكية أوروبية وبصمت عربي مريب، حيث تدرك أنظمة النفط العربي الأزمة الخانقة الناجمة عن استفحال مظاهر الفقر والبطالة في بلادنا، لذلك فإن أي مواجهة لمشكلة البطالة لا بد لها من دور عربي لفك الحصار و فتح سوق العمالة العربي لعمالنا العاطلين عن العمل، وفي هذا السياق، فإنه لكي يصل مستوى البطالة في قطاع غزة كما هو عليه في الضفة الفلسطينية (حوالي ١٩٪) ينبغي توفير (٤٢) ألف فرصة عمل في قطاع غزة.

- لذلك لابد من العودة الفورية للحوار الوطني الشامل تمهيدا لإقامة حكومة الوحدة الوطنية - على أساس وثيقتي القاهرة والوفاق



الوطني- التي يمكن عبرها العمل على تامين الاستثمارات بدلاً من (المعونات الاغاثية وأهدافها المشبوهة) التي يتوجب ألا تقل عن ١,٦ مليار دولار (أقل من ٠,٢٪ من الناتج العربي) للعاطلين عن العمل في القطاعات الإنتاجية الذين يبلغ عددهم - في الضفة والقطاع - حوالي (١٢٠) ألف عامل على اعتبار أن متوسط تكلفة خلق فرصة عمل واحدة في القطاعات الإنتاجية، و الصناعية - خصوصاً - تقدر بمبلغ (١٣) ألف دولار بما يتيح و يوفر لقطاعي الصناعة والزراعة - خصوصاً - القدرة على الاستمرار في العجلة الإنتاجية في الضفة و القطاع بدلاً من هجرة رأس المال إلى الخارج.

- بالطبع، هناك آثار متوسطة المدى على الاقتصاد الفلسطيني في قطاع غزة تتحدد في إسهام الحصار الحالي في عرقلة، أو وقف مقومات و عناصر النمو الاقتصادي، ووقف إمكانيات مجابهة الفقر والبطالة وكذلك وقف و تعطيل أية برامج وطنية لإعادة تأهيل وتوسيع البنية التحتية ومشاريع بناء الموسسات العامة ومن ثم تكريس العوامل التي تعزز انفصام القطاع عن امتداده الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في الضفة نحو مستقبل غامض، ومعقد ضمن موازين القوى المختلة الراهنة.

- وفي ضوء ما تقدم فإن المطلوب من كافة القوى السياسية، والفعاليات الوطنية، والاقتصادية الدعوة إلى مجابهة وفك الحصار عربياً وفلسطينياً ودولياً لتوفير الفرصة أمام الاقتصاد الفلسطيني وفك الحصار عن قطاع غزة، و إلغاء اعتبار السوق الفلسطيني كمحمية إسرائيلية تصديراً أو استيراداً، كذلك إلغاء هذه القيود والاتفاقات بما يمكننا من الوصول إلى علاقات اقتصادية خارجية حرّة ومتنوعة مع الدول العربية والصديقة تمهيداً للانفكاك من هذه التبعية الاقتصادية المذلة للاقتصاد الإسرائيلي، والبدء بإيجاد السبل التي تضمن ارتباط اقتصادنا ودمجه بالاقتصاد العربي كرهان رئيسي من رهاناتنا الوطنية والقومية... ولن تتحقق بعض أو كل هذه الأهداف بدون العودة السريعة إلى الحوار الوطني الشامل والمبادرة إلى تشكيل حكومة وطنية موقتة باتفاق كافة الأطراف على برنامجها وآليات عملها، خاصة بعد أن بات واضحاً لجميع أبناء شعبنا حجم التقاطع الواسع في البرنامج السياسي لكل من طرفي الصراع فتح وحماس، ما يؤكد على رفض كافة الذرائع أو الشروط المطلقة أو التعجيزية التي يطرحها هذا الفريق أو ذاك دون أي مبرر منطقي، أو موضوعي سوى كيفية اقتسام الكعكة أو المصالح التي لن تؤدي - في حال استمرار هذا التناقض بينهما - إلا لمزيد من تكريس الانقسام بين الضفة والقطاع دونما أي آفاق لمشروعنا الوطني في الحرية والاستقلال وحق العودة والدولة، علاوة على المزيد من المعاناة والحرمان والفقر للأغلبية الساحقة من أبناء شعبنا الذين لن يصبروا طويلا على مثل هذه الأوضاع، خاصة ونحن نعيش على أبواب مأزق آخر أو كارثة جديدة في ضوء نتائج ،أنابوليس، إن لم يتدارك الجميع من القوى والفعاليات الوطنية والإسلامية تحمل مسئولياتهم وممارسة دورهم الوطني في استعادة روح البرنامج الوطني الديمقراطي المقاوم وروح الوحدة الوطنية وروح الشرعية الديمقراطية وسيادة القانون ووحدة المجتمع بجناحيه في الضفة وغزة وتوحدهما السياسي مع الأهل في الشتات، لأن البديل سيتجلى في مزيد من تراكم عوامل التبعية، والضعف، والتفكك الذي سيفضي لا محالة إلى مزيد من الهبوط والتنازلات التى سيدفع فقراء شعبنا وأجيالهم القادمة ثمنا باهظا على الصعيدين الوطني والديمقراطي إذا ما استمر صمت أو تقاعس القوى السياسية عموما، واليسارية خصوصا - رغم تراجعها الشديد الناجم عن هشاشة دورها وتفاقم أزماتها - الأمر الذي يفرض على كافة القوى السياسية والفعاليات الاجتماعية والاقتصادية والوطنية الأخرى، سرعة المبادرة المنظمة الجادة بالاستناد إلى القطاعات الشعبية والوطنية المتضررة، للبدء بتشكيل الإطار السياسي الجماهيري الضاغط على طرفي الصراع - فتح وحماس - ليتحملا مسئولياتهما الوطنية بإعادة اللحمة بين جناحي الوطن قطاع غزة و الضفة الغربية كمهمة مركزية، أولية ومباشرة في هذه المرحلة، تدفع صوب البدء الفوري بالحوار وصولا إلى تشكيل حكومة وطنية موقتة تمهد وتوفر الحد الأدنى من المقومات المطلوبة لاستعادة وحدة مكونات النظام السياسي الديمقراطي الفلسطيني وفق وثيقتي القاهرة والوفاق الوطني بما يضمن:

- الاتفاق على أسس وبرامج الرؤية الإستراتيجية الفلسطينية المطلوبة لتحقيق أهداف النضال الوطني والديمقراطي التعددي في هذه المرحلة بكل أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبما يؤدي إلى موقف دولي وعربي لوقف الحصار والإغلاق.

- البدء بالخطوات العملية الممكنة لبناء ،اقتصاد الصمود، وتشجيع الاعتماد على الذات المرتبط تكاملياً مع الاقتصاد العربي، وإنشاء المشاريع المنتجة بمساهمة البنوك والقطاع الخاص، في الوطن والشتات تعزيزاً لعوامل الصمود من أجل التحرر والديمقراطية والتنمية.

- إن دعوتي لكم لممارسة الضغط السياسي الجماهيري المنظم والفعال والمتصل، تنطلق من حرصنا جميعاً للخروج من هذا المأزق شبه المسدود الذي يتعرض له شعبنا وقضيتنا، عبر تحقيق وحدة الصف الفلسطيني وتعدديته السياسية على قاعدة الحد الأدنى المشترك من البرنامج التحرري الديمقراطي من ناحية، وإعادة الحوار والتوافق بين فتح وحماس ارتباطاً بالاتفاقات المعقودة بينهما - وآخرها بيان مكة - الذي أؤكد على رفضي لكل منطلقات ومحددات ذلك البيان، لكن اللحظة الراهنة لها ضروراتها للخلاص من هذا الانقسام السياسي والوطني والقانوني، بما يمكن من العودة إلى الديمقراطية التي نأمل أن تظل مهداً لعملية التحرر الوطني والديمقراطي وليست لحداً لها.

هوامش:

١- انظر تقرير ،التغيرات الاقتصادية والاجتماعية لقطاع غزة، الصادر عن معهد دراسات التنمية -غزة - أكتوبر ٢٠٠٧ - ص٢١.

٢- المصدر السابق - ص٢٣.

٣- وفقا لبيانات الجهاز المركزي للإحصاء فان عدد العاملين في القطاع الصناعي في قطاع غزة تراجع من ١٧,١٨٤ عامل في الربع الثاني من العام ٢٠٠٧ إلى ١١,٦٩٣ عامل في الربع الثالث ٢٠٠٧. ويرجع التضارب في البيانات مع الاتحاد العام للصناعات، لان الاتحاد يعتبر الصناعات المسجلة أو التي لها علاقة الاتحادات التخصصية هي الرسمية، بينما الحرف الصناعية لم يحصيها، فيما جهاز الاحصاء يأخذها بعين الاعتبار.

٤- جريدة الأيام ٢٠٠٧/١٢/١.

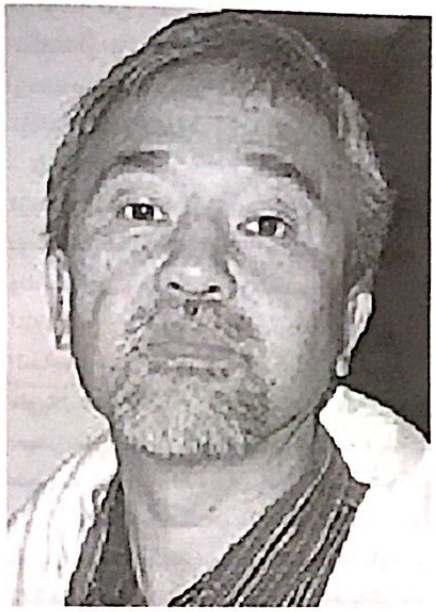
٥- التقرير السابق - معهد دراسات التنمية - ص٤.

كوزو أوكاموتو

الياباني

الفلسطيني الأممي

د. عدنان جابر



١- الإنسان حين يثور وحين يدفع الثمن

في سجن كفار يونا (بيت ليد) سنة ١٩٧٢ استمعتُ وغيري من الأسرى الفلسطينيين إلى راديو إسرائيل وهو يبث نشرة أخبار تورد مقتطفات من محاكمة الثائر الياباني كوزو أوكاموتو. أذكر أن كوزو قال يومها: «إنني جندي في الجيش الأحمر الياباني أحارب من أجل الثورة العالمية، وإذا مت سأتحول إلى نجم في السماء...».

لم تتح لي حتى الآن رؤية كوزو شخصياً، لكن كلماته التي قالها في المحكمة الإسرائيلية ذكّرتني بكلمات الشاعر التركي ناظم حكمت الذي قرأنا له في سجن بئر السبع ديوان «الناظرون إلى النجوم»، ديوان ساهم في رفع معنوياتنا، ومن كثرة ما تناقلته أيدينا تمزق واهترأ لكنه علق في نفوسنا وذاكرتنا، ما جعلني أسعى بعد خروجي من السجن لأضع وردة حمراء على قبر الشاعر التركي المدفون في جدار الكرملين، عندما سافرت إلى موسكو في رحلة علاجية لقدمي العزيزة الصامدة الممتلئة بـ ٦٠ شظية من الرصاص الصهيوني المتفجر «الدمدم» منذ ٥ حزيران ١٩٦٩ حين طعنت ثلاثة جنود إسرائيليين بـ (سيخ كباب) أمام الحرم الإبراهيمي الشريف في الخليل وكان عمري ١٧ عاماً، سيخ صنعته في «مدرسة الأمير محمد» المهنية في الخليل، وهذا ما جعل بعض زملائي الأسرى يطلقون عليَّ لقب «عدنان السيخ»، وكنت أعلق على ذلك مداعباً: «سيخ فلسطين وليس سيخ الهند». تقول كلمات حكمت التي ذكّرتني بكلمات كوزو:

ورغم هذه القضبان
فإن قلبي لا يزال يخفق
مع أبعد نجم في الفضاء

سنة ١٩٧٢ كان عمر كوزو ٢٨ عاماً، شاباً ثائراً ممتلئاً بالثورة والعنفوان، بكامل صحته الجسدية والعقلية. أما الآن فكوزو عمره ٦٣ عاماً، لحق به دمار في صحته الجسدية والعقلية، ويحتاج إلى من يرعاه ويهتم بأموره، ما يفصح ليس فقط عن الحقيقة السافرة للعدو الصهيوني وسجونه البغيضة، بل عن حقيقية أخرى بسيطة ومريرة في أن: إن من يختار عليه أن يتحمل تبعة اختياره، ومن يسير في درب الثورة عليه أن يتحمل النتائج ودفع الثمن، في صحته وحياته ومستقبله، عليه أن يكون جاهزاً لكافة الاحتمالات، بما فيه احتمال تدمير جسده مقابل احتفاظه بشرف المعنى والموقف، وأن ينطبق عليه ما قاله أرنست همنغواي في (الشيخ والبحر): «الإنسان يمكن أن يحطم، لكنه لا يهزم».

لا يجوز أن يحمّل أحدنا الله والناس والوطن (جميلة) إذا ناضل وضحى، والإنسان عليه أن يتقبل نتائج ما يؤمن به ونتائج مواقفه واختياراته هذا صحيح. وإذا كنت قد تحدثت عن نفسي قبل قليل، فليس ذلك فقط بفعل الذاكرة وتداعياتها وانتمائي إلى فئة الأسرى، بل لأنني أريد القول بأن التضحية أشكال ومستويات ودرجات، وأنا أقيس نفسي بمن عانى وضحى أكثر مني. ونحن الأسرى، السابقين والحاليين، نعرف أن من بيننا من عانى وضحى إلى درجة فقدان البصر، إلى درجة المرض النفسي والجنون الفعلي (لا الجنون الإبداعي!)، وهناك من أضاء إلى درجة الاشتعال حتى الاحتراق الكامل، إلى درجة الاستشهاد.

في السجن، لم أكن أخشى سوى شيء واحد: الجنون، أن أفقد عقلي. ففي هذه الحياة الممتلئة بالمباهج والمفعمة بالقسوة، بالكاد ينجح من له عقل، فما بالكم إذا فقد الإنسان عقله. الحمد لله، خرجت من السجن وأنا بعقل سليم في جسم غير سليم!

أما زميلنا ورفيقنا كوزو، فهو من الذين خرجوا من السجن، وهم (رغماً عنهم) محطمون جسدياً وعقلياً، وإن كانوا، من بين الحطام، يُظهرون ابتسامة، ويَرفعون شارة نصر!

٢- الجيش الأحمر وعملية اللد

الجيش الأحمر الياباني هي منظمة دولية أسستها الآنسة فوساكو شيغينوبو في شباط (فبراير) ١٩٧١ بعد انشقاقها عن الحزب الشيوعي الياباني. كان حجم المجموعة حوالي ١٠٠ شخص، وكانت في فترة من الفترات عندما كانت في قمة نشاطها «أكثر الحركات الفدائية إثارة للخوف». كان للجيش الأحمر الياباني علاقات وطيدة مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وكانت أهداف الجيش الأحمر الياباني الإطاحة بالحكومة اليابانية والحكم الإمبراطوري والملكي لبدء ثورة عالمية.

في صبيحة يوم ٣٠ أيار ١٩٧٢ تمكنت مجموعة تحمل اسم مجموعة الشهيد «باتريك اوغويللو» مكونة من ثلاثة رفاق من أعضاء الجيش الأحمر من اقتحام مطار اللد (أسمه حالياً مطار بن غوريون الدولي). ألقت المجموعة خمسة قنابل يدوية، ثلاث منها على الطائرات الجاثمة في المطار وواحدة على قسم الجمارك في المطار والخامسة على السيارات الموجودة في المطار وقد أسفر ذلك عن قتل ٢٦ إسرائيلياً وجرح أكثر من ٨٠ آخرين.

بعد إلقاء القنابل قامت المجموعة بالانسحاب من المطار واشتبكت في طريقها مع دورية إسرائيلية قرب سجن الرملة حيث أسفر الاشتباك عن إصابة ٥ أفراد من الدورية.

الرفاق اليابانيون الثلاثة أستشهد منهما اثنان هما البطل تسويوشي أوكودايرا (باسم) والبطل ياسويوكي ياسودا (صلاح) بالإضافة إلى أسر البطل كوزو أوكاموتو (أحمد). وكانت هذه العملية بتخطيط من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

بعد ١٣ عاماً في الأسر الصهيوني، تم في ٢٠ أيار ١٩٨٥ الإفراج عن كوزو أوكوموتو في إطار عملية تبادل واسعة (عملية الجليل) التي قامت بها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة). وانطلاقاً من الاحترام الكبير لهذا الثائر الياباني الفلسطيني الأممي، استقبلت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أوكوموتو استقبالاً حاراً في منطقة البقاع اللبنانية، وتم رفعه على الأكتاف.

٣- قصة كفاح.. قصة معاناة

في ١٥شباط ١٩٩٧ قامت قوة أمنية لبنانية بمداهمة منزل أمية عبود في جب جنين وألقت القبض على كوزو وخمسة يابانيين آخرين وتم سجنهم ثلاث سنوات بتهمة الدخول خلسة إلى لبنان.

في ٢ آذار ٢٠٠٠ أشهر كوزو إسلامه داخل سجن رومية مع رفيقه كازيو توهيرا في محاولة للحصول على لجوء سياسي في لبنان مع قرب انتهاء مدة الحكم. أما أداتشي فقد تزوج من سيدة لبنانية هي أمية عبود بعد اعتناقه الدين المسيحي.

وقد قامت مجموعة من الشباب اللبناني باعتصام مفتوح في بيروت مقابل وزارة الداخلية للمطالبة بإعطاء كوزو أوكوموتو ورفاقه حق اللجوء السياسي، وكانوا يهتفون: "على خط النار... كوزو شباب ثوار... كوزو ضد الرجعية... كوزو والصهيونية... كوزو».

تم منح كوزو حق اللجوء السياسي في لبنان وهو اللاجىء السياسي الأول في لبنان. وقال مسؤول لبناني إن كوزو أوكاموتو قد منح حق اللجوء السياسي نظرا لسوء المعاملة التي تلقاها في السجون الإسرائيلية، لكن رئيس الوزراء الياباني وصف قرار بيروت بانه مؤسف جدا، وقال بأن طوكيو ستواصل محاولة ترحيله.

أما رفاق كوزو فقد تم ترحيلهم في آذار ٢٠٠٠ من لبنان إلى الأردن، علماً أن هؤلاء اليابانيين ، بالإضافة إلى كوزو، يعدون أبطالا في نظر غالبية اللبنانيين لنصرتهم القضية الفلسطينية ومجابهة إسرائيل التي تحتل أراض لبنانية، وقامت السلطات الأردنية بطردهم إلى اليابان، وغادروا عمان بصحبة دبلوماسيين يابانيين، وقامت قوات الشرطة اليابانية المسلحة باحتجازهم حال وصولهم إلى مطار ناريتا في طوكيو، والأشخاص الذين اعتقلوا هم: ماساو أداتشي البالغ من العمر ٥٩ عاما، وكازو توهيرا ٤٦ عاما، وهاروو واكو ٥٠ عاما إضافة إلى ماريكو ياماموتو البالغة من العمر ٥٨ عاما.

كوزو ممنوع من إجراء أي مقابلة صحافية وفق ما تنص عليه شروط الحصول على بطاقة لاجئ سياسي. وهو غير قادر أصلاً على إجراء أي نوع من المقابلات أو الحديث مع أحد حتى لو أراد ذلك بسبب حالته النفسية. تقوم الجبهة الشعبية بتأمين مستلزماته والأشخاص الذين يقومون برعايته. وهو يستطيع أن يقوم بالأشياء الضرورية فقط، يدخل الحمام، يأكل، يرتدي ثيابه، ويذهب إلى الحلاق. بعد خروجه من السجن لم يكن يستطيع أن يستعمل يده ليأكل، ولا يحسن استخدام الملعقة أو السكين، وكان قد فقد كلّ معرفة بنظام الحياة اليومي مثل غسل وجهه، تنظيف الأسنان،والاستحمام.

تطوّع «الرفيق» بلال لمهمة رعايته وانتقل مع عائلته (زوجته دارين وطفلتهما) من صور إلى بيروت للإقامة في بيت كوزو. تعدّ حالة كوزو أوكوموتو مستقرة اليوم بالنسبة إلى ما كانت عليه عشية خروجه من السجون الإسرائيلية في أيار١٩٨٥. الطبيب عامر كان من الأشخاص الذين رأوه في ذلك الوقت: «أتذكّر أنه كان مدمرّاً بشكل غير عادي، لم يكن قادراً على تفسير ما حصل معه». ويستطرد مضيفاً التفاصيل: «كان ظهره منحنياً ورجلاه مقوّستين. أسنانه ملتهبة ومسوّسة بحيث بدا فمه أسوداً، وكان يصدر أصواتاً تعبّر عن حالة الخوف والطلب، وكان يضحك ضحكة بلهاء فيما ضحكته اليوم هي أكثر تعبيراً عن الواقع».

كانت معركة كوزو في السجن أن يحتفظ لنفسه بصورة المناضل الثوري، خصوصاً أن هذا ما كانوا يحاولون تدميره فيه من خلال أساليب التعذيب النفسي التي مارسوها ومنها أنهم وضعوه في زنزانة واحدة مع يهودي شاذ جنسياً.. كلّ ذلك في إطار مخطط لإفقاده معنوياته.

كوزو اليوم طفل كبير. يتمتع بحاسة قوية تكشف له من يحبه فعلاً ومن يشفق عليه. لا يتأخر عن تناول أدويته المهدئة التي يعرف مفاعيلها، فقد عرض مرة على الرفيق سميح أن يتناول حبة «لكي ينام يومين"، قال له ضاحكاً. وهو يطيع دارين عندما تحذّره من كثرة التدخين، ويفتح العلبة ليُري سميح كم سيجارة يدخّن في اليوم. وفي خضم كلّ هذه الحياة، يتذكّر كوزو أنه كان طالب جامعة يدرس العلوم الطبيعية في اليابان.

هذا هو كوزو أوكوموتو، سيرة ملحمية من النضال والتضحية والمعاناة.. والصمود.



اليسار عند احتلال الوطن:

يقاوم أم يساوم؟

باقر إبراهيم



لم يقتصر الموقف من الغزو الأجنبي، على قناعات أو عقائد الأحزاب والمفكرين والأجزاء الطليعية في شعب معين، ولا على يسار أو يمين. فمقاومة هذا الغزو كان وما يزال موقفاً عاماً، أقرته كل المبادئ التي عرفها الإنسان، وصارت حقاً معترفاً به.و واجبا كذلك.

لكننا آثرنا أن يتناول هذا العرض والتحليل، مواقف اليسار عموماً، وفي العراق تحديداً، من موضوعة مقاومة الغزو الأجنبي.

إن أدب المقاومة، هو صنف هام من الاداب ، و أصوله عريقة في أدبنا العربي، من ناحية تحفيز النضال دفاعاً عن الحق العربي ضد الغزو والاجتياحات.

إذا كان أدب المقاومة معروفاً عندنا، فهل يوجد أدب الخيانة؟ أقول نعم ، فهو الفكر الذي يسمح به الغزاة، إنه الفكر الذي يقبل بالغزو قبل وقوعه، ثم يسانده أو يبرره بعد وقوعه، ثم ينتهي إلى تسفيه كل قيم النضال الوطني والقومي والاممي.

من المصادر المهمة التي تناولت ادب المقاومة، كتاب بعنوان (أراغون- تأليف سامي الجندي) . ومعروف أن أراغون هو شاعر فرنسا الشيوعي المقاوم.

ورد في هذا الكتاب، إن جورج بوليتزر، قد كتب في مجلة (الفكر الحر)، الممنوعة من الاحتلال النازي ما يلي: « لا يستطيع التعبير عن نفسه غير فكر واحد: الدعوة للإمبريالية الغازية و خدامها. الأدب الفرنسي مسموح له بالظهور، اليوم في فرنسا، الأدب الشرعي يعني أدب الخيانة. غير أن ذلك، لم يمنع الحزب الشيوعي الفرنسي من أن يضع خطة حكيمة ماهرة للمقاومة الفكرية من جهة، ويجذب المفكرين ناحية الحزب الشيوعي، من ناحية أخرى..».

ولنا أن نتساءل، قبل الاستطراد في التفاصيل، أية خطة وضعها الشبيه الشيوعي العراقي؟

في هذا العرض، أقدم للقارىء ، الصورتين المتناقضين تناقضاً صارخاً: المقاومة - والخيانة، الثبات - والردة... ويستطيع القارىء أن ينتقل، في لقطات عديدة، ومن زوايا مكانية وزمانية متنوعة، لرؤية أحداث الأمس واليوم. لكن المطلوب منه، أن ينتهي إلى تبين الغث من السمين، والصادق من الزائف.

❖❖❖❖

نتناول هنا، مواقف اليسار من مقاومة الغزو الأجنبي بصورة خاصة. لكن ما يهمنا أيضاً هو أن يتصل الماضي بالحاضر، ومقاومة الأمس بمقاومة اليوم.

فالمقاومة المعاصرة، لها روادها ومبدعوها الذين وضعوا اليد على مكامن الخطر، ثم أشاروا إلى مصادر أسلحة المقاومة، في عصر صار فيه الغازي المحتل ليس جيشاً لبلد معين، بل هو نظام الهيمنة الإمبريالية العالمية، الذي تصدرته أمريكا.

ولنأخذ على سبيل المثال، أحد رواد ثقافة المقاومة المعاصرة هذه - ادوارد سعيد، ونتوقف عند وصف الناقد الأكاديمي الأردني (محمد شاهين) لدوره في المقاومة المعاصرة حين قال عنه في جريدة (القدس العربي)، الصادرة في ١٩/ ٨/ ٢٠٠٥: «ماذا تعني الثقافة أذن، أو ماذا تعني المقاومة، بصورة أدق، ماذا تعني ثقافة المقاومة؟ ربما نقول بادئ ذي بدء، ماذا يجب أن لا تعنيه ثقافة المقاومة... عند ادوارد سعيد؟

إننا لو أردنا، على سبيل المثال، أن نضع عنواناً موازياً، أو نصاً موازياً لكتابه « العالم، النص، والناقد».. لقلنا: «العالم، المقاومة، والمقاوم».

إذ أن إدوارد سعيد عندما نادى بضرورة وجود علاقة حتمية بين العالم والنص والقارئ،كان يؤمن بوجود مثل هذه العلاقة بين الأطراف الثلاثة الأخرى،كي لا تبقى المقاومة مثل النص المجرد والمنفصل عن منتجه..»

في تاريخ المقاومة

عرفت كل الشعوب التي تعرضت للغزو الأجنبي، ضروبا رائعة في المقاومة الوطنية للغزو. ويسجل تاريخنا الحديث، مآثر الشعب العراقي، المعروفة في هذا الميدان، وأبرزها دروس ثورة ٣٠/حزيران/١٩٢٠ ضد الاستعمار البريطاني، التي كانت أحد نماذج حرب الأنصار البالغة الأهمية، في جوانبها السياسية والاجتماعية، وكذلك في الفن العسكري الذي أبدعه الثوار خلالها.

ومن العلامات الواضحة الآن، أن مقاومة الشعب الفلسطيني الباسلة الصابرة، طيلة أكثر من ٧٠ عاماً، صارت تتواصل وتتلاحم مع مقاومة الشعبين اللبناني والعراقي، لمواجهة عدو واحد و أطماع موحدة تنتهج أساليب متشابهة.

والشعب الليبي، أحد تلك النماذج المشهودة في التاريخ العربي، حين قاد مقاومته ضد الغزو الايطالي، الشهيد عمر المختار، كما هي مقاومة الشعب الجزائري، بقيادة جبهة التحرير أحمد بن بيلا ورفاقه، والشعب اليوغسلافي بقيادة جوزيف بروس تيتو، والشعب الفيتنامي بقيادة الحزب الشيوعي الفيتنامي وهوشي منه والجنرال جياب ورفاقهما.

عام ١٩٣٧، غزت اليابان الصين. وكانت تدور في الصين آنذاك، حرب أهلية بين الشيوعيين وحكومة الكومنتانغ اليمينية بقيادة جان كايشك.

بدون أي انتظار، تحوّل الحزب الشيوعي الصيني إلى الدعوة للجبهة الموحدة لمواجهة الاحتلال الياباني، جبهة تشمل كل الصين، بما فيها حكومة الكومنتانغ العدوة.

لم تتحقق تلك الجبهة رسمياً، بل على أرض الواقع، ولم ينتظرها الحزب الشيوعي الذي شرع بتنظيم مقاومة الشعب للاحتلال.

قتل من الصينيين في تلك الحرب الوطنية، أكثر من سبعة ملايين شخص بينهم نسبة عالية من الشيوعيين.

يخبرنا التاريخ الحديث، أن الفرقة الدولية (الأممية) ، تأسست في خريف عام ١٩٣٦ للدفاع عن الجمهورية الأسبانية التي أطاح بها، بالسلاح وبالغدر العالمي، فرانكو في ١٨ / تموز / ١٩٣٦.

ضمت الفرقة الأممية، قادة ومفكرين وأدباء وشعراء من عديد منه مناطق العالم، بينهم الشاعر الألماني غوستاف ريجلر، وبابلو نيرودا، وكوستلرواهر نبورغ، وهمنغواي، ومالرو ، الذي نظم وقاد سرب طيران.

ونعيد السؤال ماذا فعل الشبيه الشيوعي العراقي؟

مع المقاومة الفرنسية

كلف موريس توريز، قائد الحزب الشيوعي الفرنسي، الشاعر الشيوعي أراغون، بإصدار جريدة (سوسوار)، دفاعاً عن القضية الأسبانية. وقبل ذلك كتب أراغون، حينما دخل هتلر براغ في ١٦ / ٣ / ١٩٣٩ ما يلي:

«... يكفي هذا الكذب، يكفي هذا الكذاب. إننا لا نريد أبداً ذلك الذي يقدّم لنا كل نظريات العدو على إنها معقولة..

وفي ليلة رأس السنة ١٩٣٩، كتب أراغون: «أتمنى الصلح الذي يزيل ذكرى ميونيخ من أركانها. ولئن كانت إعادة السلم، تتطلب، كما في أيام نابليون حرية العالم، أن نقاوم والسلاح في أيدينا، أولئك الذين يريدون أن تركع فرنسا، وتنحني أكثر، فمن منا الذي يرهب ذلك ؟».

هذي الطريق أعيدها!

تابعت مسيرة الردة لبعض مناضلي اليسار في العراق، كيف بدؤوا يتهاوون على مدرجات الانحدار السياسي والأدبي والأخلاقي.

لكن ما أثار اهتمامي، هو تسارع بعض متقاعدي اليسار، للانخراط في النشاط الفكري والإعلامي والانتخابي في (عملية الاحتلال السياسية).

هم سلكوا طريقاً جديداً ، مختلفاً عن ماضيهم. وقد يظنون إنهم يعيدون نفس الطريق. وهنا يحتمل درجة عالية من الغباء، ومن توافر حوافز الركض وراء الانتفاع المادي أو الشهرة الزائفة، في أغلب الأحوال، عند هؤلاء.

لكن طريق النضال الصادق له من يواصلونه أو يعيدونه.

«أنشد أراغون قصيدة بعنوان: « نشيد الذي مات تحت التعذيب» ، واعتبرت هذه القصيدة مرثية لعامل مات في السجن تحت التعذيب اسمه (جبرييل بيري)، وغدت نشيداً شعبياً تلتف حوله الأصوات التي ترفض الاحتلال. تقول القصيدة:

إذا وجب عليه أن يعود
هل يراجع ذلك الطريق؟
الصوت الذي يصعد من الأصفاد
يقول أراجعه غداً
أموت وتبقى فرنسا
غرامي ورفضي
يا أصدقائي إذا مت
سوف تعرفون لماذا

سمعنا في السجون العراقية، في مطلع الخمسينات من القرن الماضي نفس القصيدة ترجمها شاعر عربي، أتذكر منها الأبيات التالية:

صوت يرن من الحديد
يحدث الجيل الجديد
هذي الطريق أعيدها
إن كان يمكن أن أعيد

❖ ❖ ❖ ❖

المقاومة السوفييتية

لابد أن نشير، في عرضنا هذا، إلى مأثرة المقاومة في بلاد السوفييت. فهذه المقاومة واجهت الاحتلال الألماني النازي، منذ بدايته في ٢٢ / حزيران / ١٩٤٢ حتى تحرير الأرض السوفييتية منه. فكانت تلك المقاومة، واحدة من أروع صور المقاومة الوطنية للغزاة الأجانب.

لم يستغرق الاحتلال النازي لبعض دول أوربا سوى أيام معدودات، لكن غزوه للاتحاد السوفيتي، أستغرق نحو ألف يوم، لم يواجه فيها الجيش السوفيتي الرسمي وحده، بل المقاومة الشعبية على شكل حرب العصابات وتقديم الفداء، ضد غزاة قساة يندر أن عرف التاريخ الإنساني مثيلاً لهم في الماضي.

بعد الغزو، كان من أبرز الشعارات التي صاغها الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، للمواجهة، هي: «كل شيء للجبهة.. كل شيء للنصر، و «العدو سيحطم والنصر حليفنا» و«لا خطوة إلى الوراء»!

وتحت قيادة الحزب، تم تشكيل ٦٢٠٠ مجموعة من المقاتلين الأنصار، تجاوز عدد أفرادها مليون مقاتل، دمرت الألوف من دبابات وآليات العدو وإسقاط العديد من طائراته.

وفي فترة الحرب الوطنية، شارك في مقاتلة العدو ٩ ملايين شيوعي من أعضاء الحزب، استشهد منهم أكثر من ٣ ملايين في حين فقد الشعب السوفيتي ما بين ٢٧-٣٠ مليون مواطن.

وجدير بالذكر أن قيادة الحزب، خصصت ٦٠٪ من قادة وكادر الحزب للجيش ولقوات الأنصار، كان بينهم ٥٤ عضواً أو مرشحاً لعضوية اللجنة المركزية للحزب.

إن أحد دروس تلك المقاومة، إنها تساعدنا في إدراك وتلمس الطاقة الهائلة للطبيعة الإنسانية، حين توجه نحو الطريق السليم، وحين تستند إلى قناعات الناس وحماستهم.

إنها توصلنا إلى قناعة، بأن حماس الناس في التصدي لغزاة الوطن وقت المحن والشدائد، لا تقف أمامها أو تعيقها مثالب وأخطاء القيادات. في تلك المقاومة، قدم الملايين من سكان شعوب الاتحاد السوفييتي حياتهم، فداءً لاستقلاله، ولطرد الغزاة عنه.

عن تلك المقاومة الباسلة، صدر الكثير من الكتب والأفلام السينمائية والمسرحيات، وغنى لها الشعراء وأبدع في وصفها الفنانون، وأقيمت النصب التذكارية لأبطالها، وحصلت عشرات من مدن المقاومة على وسام (المدينة البطلة).

بعد التحرير ظهر نوع متميز في الاتحاد السوفييتي من ثقافة المقاومة ومن أدبها، كان وسيظل مصدراً ثرياً، يثير فينا حماسة المقاومة ويثري تجربة جيل المقاومين العراقيين الفتي.

في تلك الحرب الوطنية استشهد الملايين من الوطنيين السوفيات، كان بينهم ملايين أيضاً من أعضاء الحزب الشيوعي، من كل القوميات والأديان ومناطق البلاد، حفزتهم عقيدتهم أن يعتبروا الدفاع عن الوطن أمام غزاته من أولى واجبات عضو الحزب الشيوعي.

فماذا كان موقف مثيلهم في الحزب الشيوعي العراقي؟

اليسار الإيطالي والمقاومة العراقية

كنت قد نشرت في ٧ / ٨ / ٢٠٠٣ ، مقالة بعنوان : آخر صرعات العولمة.، شيوعية الاحتلال.، تناولت فيها موقف الحزب الشيوعي العراقي تجاه الاحتلال، من وجهة نظر اليسار الإيطالي، أعيد هنا بعض فقراتها: ،

كتب الصحفي الإيطالي (روبرتو سارتي) مقالة في ٢ / ٧ / ٢٠٠٣ ، قال فيها إن الصحيفة الإيطالية اليومية (المانيفستو) الصادرة في ٢٢/ حزيران ، كتبت أقول: ،على الحزب الشيوعي العراقي أن يأخذ الأمور بيده، بأن يحمل السلاح ويوقف جميع اللصوص.، ولكنهم بدلاً من ذلك فهم يقعدون في مكاتبهم فماذا ينتظرون؟.

للأسف ليس لزعماء الحزب الشيوعي النية في إتباع هذه النصيحة. وفي الناصرية، مدينة فهد الخالد، مؤسس الحزب الشيوعي، عبرّ سكرتير منظمة الحزب هناك قائلاً: ،بأن الجميع ضد الاحتلال.، وهو أمر واقع!وعندما تصبح لنا حكومة ، عندها يمكننا التفاوض سلمياً حول رحيلهم (رحيل الأمريكان)!

هذا سلوك قانوني بالكامل، عندما تصبح لنا حكومة!

يتجاهل هذا السكرتير أن أي حكومة ستسمح لها الولايات المتحدة بالوجود، ستكون مجرد بيدق بيد الأمريكان... فلن يكون بالإمكان إرساء حكومة شعبية حقيقية إلا عندما يجبر الأمريكان على مغادرة البلاد. وإن الجماهير هي الوحيدة القادرة على إنجاز هذه المهمة.

لم يكن ذلك مجرد رأي عابر كتب خارج العراق.انه صرخة مدوية عسى أن تسهم في إعادة الوعي والصحوة للنيام أو المغفلين الذين يسيرون وراء هذا النمط من قيادات تصر على دفع العراق نحو الهاوية.

انتهى ما كتبته قبل ما يزيد عن عامين. لكن الوقائع اللاحقة أظهرت أن تلك القيادات لم تكتف بمجرد الجلوس في مكاتبها بانتظار شفقة المحتل، بل تحولت إلى عضيد يناصره وتلاشت أماني المخلصين بإعادة الوعي والصحوة لهم.

❖❖❖❖

الشيوعية الإيطالية جوليانا سفرينا، تعمل صحفية في نفس الجريدة اليسارية التي تحدثنا عنها أعلاه (المانيفستو).غامرت جوليانا بحياتها دفاعاً عن الحقيقة في العراق، ولفضح جرائم الاحتلال فيه.

كتبت جوليانا مقالاً عنوانه: ،لقد أصبحت الفلوجة رمزاً للمقاومة ضد الاحتلال الأمريكي،

نكايةً بهذا الموقف، تعرضت لاختطاف مدبر دام شهراً، وأطلق سراحها في أذار الماضي، ثم نجت بأعجوبة من القتل العمد وهي في طريقها من الاعتقال إلى مطار بغداد.

افتداها بنفسه يوم ٤/ آذار/ ٢٠٠٥، (كاليباري) ، ضابط المخابرات الإيطالي الذي كان يرافقها!

يجدر بنا أن نذكر أن جوليانا سفرينا أصدرت كتابها عما أصاب العراق بعنوان (في جبهة العراق - يوميات حرب دائمة). ومن أجل تأليف هذا الكتاب، عرضت حياتها للخطر.

وقالت سفرينا، عند عرض الطبعة العربية من كتابها في الجزائر:

،إن الأمريكان لا يريدون أن يكون هناك إعلام حقيقي عن الحرب في العراق، لأنهم يدركون بأنها حرب قامت على كذب ويفعلون كل شيء لعرقلة عمل الصحافيين.،.

اليسار الدنماركي و السويدي

في ١٥/ آذار/ ٢٠٠٥، نشرت جريدة (مترواكسبرس) الدنمركية ، تصريح يورن أندرسون) عن (المنظمة الدنمركية للاشتراكيين الأمميين)، قال فيه: ،إنهم يطالبون بمساندة المقاومة العراقية ضد الاحتلال. وتعتبر المنظمة أن الجنود الدنمركيين الموجودين في العراق مع (قوات التحالف)، هم هدف مشروع للنضال التحرري للعراقيين، شأنهم في ذلك، شأن الجنود الألمان عند احتلالهم للدنمرك،.

كما ذكرت الجريدة، أن وزير الدفاع الدنمركي (رون كاد)، قد أصيب بالهستيريا أثر ذلك التصريح... وكان (أندرياس نوخر اسموسن)، رئيس وزراء الدنمرك، قد زار العراق يوم ١٧/ آذار/ ٢٠٠٥، لتطمين قواته هناك، حيث يعارض وجودها الشعب الدنمركي، وخاصة الشيوعيون والاشتراكيون، كما ذكرنا.

❖❖❖❖

في السويد حيث تعيش نخبة من مئات المناضلين الوطنيين و القوميين العراقيين و العرب ، من كل الاتجاهات، كان لهؤلاء شرف الإسهام مع الرأي العام السويدي في فعالياته المأثورة لنصرة العراق.

كرست تلك الفعاليات، لفضح الحصار على العراق وتجويع شعبه، والتهديدات بالحروب ، ثم لاجتياحه وتدميره.

لجأ منظموها إلى تحشيد التظاهرات الجماهيرية الضخمة والى وقفات الاحتجاج في الشوارع، حتى عند تساقط الثلوج و هطول الأمطار .. نظموا الندوات وكتبوا في الصحف وأجهزة الإعلام الأخرى، جمعوا التبرعات و أرسلوا موفديهم للتضامن مع العراق المحاصر و المهدد.

هكذا كان صوت السويد مرتفعاً في كبريات مدنها. وكانت إحدى مأثرهم، أنهم سعوا لمنع التجاوز على حياد السويد، أو التلاعب على

دورها الرسمي المسالم.

في كل تلك الفعاليات، كان اليسار السويدي، العقل الموجه واليد المحركة فيها. وخاصة: الحزب الماركسي – اللينيني، وحزب الخضر، وحزب اليسار (الشيوعي سابقا) ، وشطر مهم من مناضلي الحزب الاشتراكي الديمقراطي الحاكم، وممثلي الكنائس وشخصيات ثقافية وفنية كثيرة .

اليسار العربي والمقاومة العراقية

لا تفوت أجهزة الأعلام التي تدعي تمثيل اليسار العراقي، أو تصريحات بعض قادته، أية فرصة للأدعاء بأن الأحزاب الشيوعية والعمالية، وحركات التحرر العربية والعالمية، تتضامن، كما في السابق، مع مواقفها الراهنة، التي مهدت لأحتلال العراق ثم ساندته وكانت في خدمته.

تناولنا ما يدحض تلك الادعاءات، في بلدان كثيرة. وما يهمنا هنا، تبيان مواقف الفصائل الأساسية والفعالة، في الحركة الشيوعية، في الوطن العربي.

في ٢١/ آب (أغسطس) / ٢٠٠٤، وجهت ستة فصائل شيوعية عربية وهي:

الحزب الشيوعي السوري

حزب الشغيلة الأردني

الحزب الشيوعي الفلسطيني

الماركسيون اللنينيون اللبنانيون

الحزب الشيوعي المصري

الشبيبة الشيوعية اللبنانية،

مذكرة مفتوحة إلى الحزب الشيوعي العراقي قالت فيها:

«... جاء انهيار الاتحاد السوفيتي، ليكشف العفن المستشري في العديد من قيادات الأحزاب الشيوعية العربية والذي تميز بارتدادها عن مبادىء الماركسية – اللينينية، في أصعب الظروف.

إنه لما يحزن كل وطني غيور، أن يرى الحزب الشيوعي العراقي يتربع كعضو فيما يسمى (مجلس الحكم)، الذي يجمع كل العملاء وكل من دخل العراق على ظهر دبابة.

إن هذا المجلس، ليس المكان الصحيح لورثة الشيوعيين الأبطال، وبالذات القائد الشيوعي الرفيق فهد، الذي ضحى بحياته مع الألوف من الشيوعيين الشرفاء في زنازين القهر والتعذيب...

مهما كانت الأعذار والمبررات، فإن الثقة بإمكانية تحرير العراق سلمياً، وبالتفاهم مع المحتل،يتنافى مع فهمنا للأهداف الحقيقية، فهم جاؤوا إلى المنطقة، وصرفوا المليارات، ليبقوا، ولن يتم إخراجهم إلا بالقوة. فواهم من يعتقد بغير ذلك.

إن الشيوعيين في جميع أنحاء العالم، مع جميع شرفاء العالم، يتوجهون إلى كل من يتواجد من شيوعيي العراق في مجلس الحكم، إن يتركوا هذا الموقع الخياني، وأن يلتحقوا في صفوف المقاومة العراقية الباسلة...»

لقد أتينا على أبرز النقاط في هذا النداء العربي المسؤول ، الموجه إلى الحزب الشيوعي العراقي. ونحن نعتز به ونثمنه.

ونقول أيضاً أنه يمكن أن يتوجه إلى قواعد الحزب الشيوعي العراقي وأصدقائه، وإلى الذين صوتوا له، حين جرى خداعهم والتغرير بهم.أما مخاطبة القيادات فنقول:

لقد أسمعت لو ناديت حياً

ولكن لا حياة لمن تنادي

اليسار والثقافة العراقية يقاومان

نعم ارتدت قيادات، وارتد بعض المثقفين العراقيين، كما في بلدان أخرى. ركض بعضهم وراء الغازي المحتل وأعوانه. لم تكن تلك، سوى الصورة السوداء العابرة، من صور الثقافة العراقية، والجزء المتعفن فيها.

في تاريخ العراق سجل عريق، في مقاومة الغزاة، مثل ما في الجزائر وفلسطين، وفي كل دنيا العرب.

لقد كرست أنظمة الاستبداد العربية، وغيرها، صفة المثقف الجبان ، الخانع الذليل، وتصدت لمن يرفض، بهدف قهره. والغريب أن يعلن التنديد بهذه الصفات الذميمة ، حملة ثقافة الاحتلال الأجنبي، وصحافته وإعلامه، الذين هيأووا لاحتلال بلادهم وسوغوه ثم دعموا استمراره.

فهل يوجد يسار رافض؟

عبر عن جوهر سليقة اليسار العراقي، ليس حملة الثقافة والمعرفة وحدهم، بل معهم بسطاء الناس وكادحو الشعب الشغيل. وإليكم نموذجاً عنهم:

كتب المناضل صالح حسين (حكايات فلاحية:......... / أبو سارة) على موقع الكادر، بتاريخ ٢٢ / حزيران (يونيو) ٢٠٠٥ ، ما يلي:

«في ٢٠/ حزيران/ ٢٠٠٥، رحل عنا الرفيق علوان عبود (أبو حسين) وهو فلاح من النعمانية – محافظة واسط قضى أربعين عاماً من النضال في صفوف الحزب الشيوعي وفي النشاط بين الفلاحين.

نذر علوان نفسه للحزب، عندما كان متمسكاً بالثوابت الوطنية، وتحمل المعاناة كشيوعي يؤمن بمبادئه وبالقيم التي انتمى إليها.

لقد دعت القيادة المرتدة لحزبنا، الأعضاء الباقين إلى التجمع في بيوت معينة اتخذتها مقرات بعد أيام قليلة فقط من الاحتلال.

في تلك المقرات، صدم الرفاق القدامى وفوجئوا بتوجيهات القيادة التي خذلتهم بضرورة المساعدة على إنجاح التجربة الجديدة تحت ظل الاحتلال الأجنبي. وعرضت هذه القيادة عليهم في وقتها الرواتب كمتضررين أو قطع أرض ومسؤوليات حزبية جديدة وما إلى ذلك من أسس شراء الذمم.

لكن علوان ، وغيره من الرفاق الذين صدموا بسلوك قيادتهم التي هرولت وعملت مع المحتلين، قالوا صراحة :

يا رفاق كنا نظن أنكم ستدعونا إلى حمل السلاح ضد المحتلين،لا للتعاون معهم..!!

هذه السليقة الرافضة للظلم والقهر، في طبيعة الشعب الكادح، شجعت وحفزت صوت الثقافة الرافضة والمقاومة كي يعلو، محفزاً للفعل الطيب، في الصحيفة والفضائيات، في الشارع وخطب الجوامع، في الأشرطة المسجلة، السرية والعلنية.

بعض حملة الثقافة والأدب والإعلام الحر، استقل وسعى لتكوين نفسه، رغم الحصار والتجويع والحروب النفسية والأذى... آخرون تسربوا إلى عقر دار الخصوم ، ينشدون البحث عن النزر اليسير الممكن من كلمة الصواب المفيدة. ولن تنفع أية فاشية أو مكارثية في اقتلاعهم منها.

من يقاومون في مواجهة قلاع أعداء العراق، ومن يقاومون داخلها، هم جميعاً يقبضون على الأسلحة التي سوف تسهم في دك تلك القلاع.

الحلقة المفرغة

.. ومستقبل الديمقراطية عربيا!

محمد صوان

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١، بدا أن هناك أجندة دولية جديدة. وعلى الرغم من أن بعض الدول حاولت التكيف معها في البداية عبر تقديم أولوية الأمن على الإصلاح السياسي، إلا أن إدراج الديمقراطية، وحقوق الإنسان على الأجندة الدولية أحرج هذه الدول، وقد تجلى ذلك في انتقاد واشنطن لبعض حلفائها المقربين لعدم قيامهم بالإصلاحات الضرورية.

لقد أوجد ذلك «مكاناً للتفاؤل» داخل المجتمعات العربية، حتى أن البعض وجد في الاحتلال الأمريكي للعراق «بادرة لكسر الحلقة المفرغة» المتمثلة في انعدام إمكانية (التغيير من الداخل).. بل عبر شكل من أشكال (التدخل الخارجي).

لكن، ماذا كانت النتيجة؟!.. لقد هزمت فكرة «التدخل الخارجي» لإحلال الديمقراطية شر هزيمة. وأصبحت الديمقراطية بعدها قيمة (منفرة)، بدلاً من أن تكون جذابة ومحرضة على التغيير والإصلاح. لذلك أصبحت النتيجة مأساوية. فالفشل الأمريكي في العراق كان وجهه (الناصع) دخول البلاد في حرب أهلية دموية. ما يستدعي وضع المعادلة السابقة في إطار جديد. فإذا كان التغيير لم يعد ممكناً من الداخل، فستكون النتيجة مأساوية إن أتى التغيير من الخارج. وبذا نصل إذن إلى حالة من «العدم المطلق» التي تحدث عنها المفكر الألماني هيدغر، وانتقلنا من الإحباط المعمم إلى تلاشي الأمل.

وهذا ما يستدعي التأمل ملياً في مآلات المنطقة العربية، ليس على مستوى أنظمتها السياسية فحسب، وإنما على مستوى تكوين بناها الحزبية، والاجتماعية العميقة التي باتت ترسم مستقبلها الأبعد. وغالباً ما ترتبط هذه البنى بنمط القيم التي تحكم هذه التحولات وتدفعها مقدماً، وتظهرها عارية على صعيد الفعل السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي والثقافي.

ضمن هذا المدخل السياسي ذو الخلفيات الاجتماعية والثقافية، تتم قراءة أزمة المجتمعات العربية المعاصرة على أنها أزمة حزبية سياسية اجتماعية تبدأ جذورها مع بداية تشكل الدولة العربية ونشأتها في أواخر القرن التاسع عشر و مطلع القرن العشرين .. ووصلت ذروتها في مصر إبان عهد محمد علي باشا، الذي نجح في جعل مصر دولة حديثة بالمعنى التقني للكلمة. غير أن التحالف الغربي تمكن من إجهاض المشروع النهضوي المصري وتصفيته، والذي عنى في نهاية المطاف إخفاق المشروع النهضوي العربي برمته، حيث بدأت الدولة العربية المعاصرة بمحاولة تشييد بنائها على أساس فكرة المركزية والسيطرة المطلقة والشاملة على مؤسسات وهيئات ومنظمات المجتمع، مما استدعاها إلى فرض وتعزيز وسائل الحكم التقنية والأمنية ونظمها الإجرائية. وترسخت فكرة التقدم في الاجتماع السياسي بوصفه الغاية المنشودة التي يسعى لتحقيقها الجميع، وبما يعني محاكاة المفهوم الغربي من ضرورة اكتساب قدرات العصر وتقنياته ومظاهره السطحية، أي مماشاته والخروج من حالة الجمود التي يعيشها المجتمع العربي، والتي كرستها المواريث التقليدية وعصور الانحطاط المديدة التي مر بها. وهكذا، أصبحت الدولة العربية تحاكي نماذج جاهزة من التقدم الغربي وتلهث من أجل تكريسها في المجتمع العربي دون الأخذ بالسياقات الخاصة والبيئة الثقافية والتربوية والدينية التي نشأ من خلالها المجتمع العربي في تاريخه الخاص، وعندها نشأت إشكالية النخبة الحاملة لقيم التقدم والدولة الحديثة وتكرست عزلتها في المجتمع وابتعاده عنها. كذلك، تكرست هذه العزلة من خلال (الأطروحات التغييرية) التي خلقت أجواء من الانعكاسات السلبية على ثقافة المجتمع، ذلك أنها تبنت مفهوم (السلطة المطلقة الأبدية) بوصفها المحرك الأساس للخروج بالمجتمع من التخلف والجمود إلى (التقدم والحداثة)، مما خلق مناخاً من التوتر الدائم بين أهداف الدولة والنخبة وبين خيارات المجتمع وآماله. وبالتالي، فالدولة العربية المعاصرة هي ثمرة الحداثة المزيفة أو المفسدة، حيث أن الدولة العربية أخفقت في إنشاء الحداثة وتحقيقها، وليس ذلك بسبب ما يتميز به المجتمع من عناصر وقيم ونزوعات تقليدية ودينية فحسب، إنما بسبب بنية هذه الدولة التحديثية نفسها التي لا يمكن لها أن تقود إلا إلى الحداثة المجهضة.

إشكالية ممارسة الديمقراطية:

إن الدولة العربية المعاصرة هي حاصل تضافر واجتماع ثلاثة أقانيم سلطوية شمولية (توليتارية) رئيسة:

الأول: التنظيم المحكم للمجتمع من خلال تعزيز قبضة القوى والأجهزة القمعية من إدارة وأمن وجيش ومخابرات، وجوهر هذا التنظيم هو ضمان سيطرة السلطة المباشرة على الشعب بطبقاته وشرائحه وفئاته الاجتماعية والسياسية والثقافية.

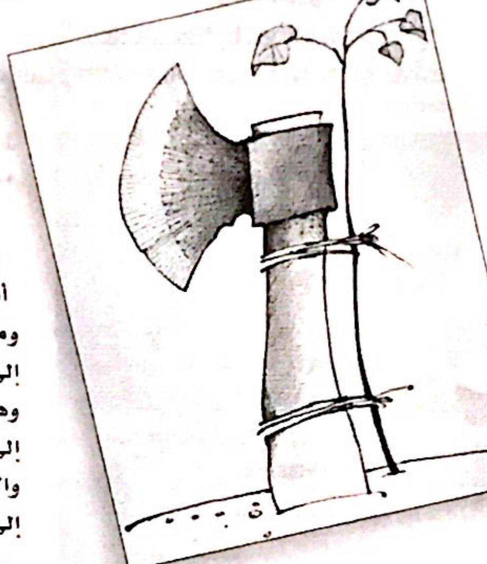
الثاني: التقدم التقني ووضع السلطة في مركز القلب من عملية تحقيق هذا التقدم بما يعنيه من استبعاد المشاركة الشعبية الفعلية في الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية، وتركيب علاقة وثيقة بين الطبقة الحاكمة والسلطة بحيث تنشأ حالة من التماهي بين النخبة الحاكمة والسلطة.

الثالث: الوعي التاريخي الذي يجعل من المجتمع الهدف المباشر للسلطة. وهنا، يتجلى هدف السلطة من التغيير القائم على خلق الوعي الشعبوي المكرس من خلال السلطة وعن طريق أجهزتها الأمنية والمخابراتية والإعلامية.

لقد انتهى نموذج الدولة المعاصرة في الوطن العربي إلى قطيعة لا تكف عن التفاقم بين السلطة والأمة، ونشأ صراع المصالح والأهداف المتضادة، بين طموحات هذه السلطة في التركيز والسيطرة من أجل الإثراء المباشر من ثروات الوطن، ومصالح الأمة في التنمية

وتحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وضمان الحريات الأساسية وحقوق الإنسان. ولكن بحكم السيطرة المطلقة للسلطة المستبدة التي ركزت جميع المسؤوليات والصلاحيات في يدها عبر أجهزة متعددة ومتنفذة تمكنت من إخضاع المجتمع لرغباتها ومصالحها وغاياتها، وانتهى المجتمع إلى نموذج مهزوم أو منهك يفتقر إلى أي فعل منظم وحقيقي، ضاع مركز توازنه وقدرته على التوجه التاريخي بعدما انحسرت أهدافه إلى طموحات عاجلة في ضمان الأمن الشخصي، وتحقيق الاكتفاء المعيش دون طلب الحاجة أو الوصول إليها. لقد تحققت إذن القطيعة الكاملة بين النظام السياسي والمجتمع.... بحيث تكاد تجمع التحليلات السياسية والاجتماعية جميعها، سواء تلك التي تحاول قراءة الواقع وفقاً لمتغيراته السياسية اللحظية اليومية، أو تلك التي تقرأ التحولات الاجتماعية الطويلة الأمد في المجتمعات العربية . مع ضرورة التخلص من القراءة الأحادية للمجتمع . والتي تصر على قراءته «انثروبولوجيا» ووفق ثقافته السائدة، أو تلك التي ترى في سكونه دليلاً على عدم قدرته على التغيير، بحيث يجب النظر إلى الأزمة وفق وعبر أطرها السياسية السلطوية التي لعبت دوراً رئيساً في إنشائها وتشكيلها.. فالقراءة (البانورامية) للمجتمع العربي تبرز بوضوح مآلات هذا المجتمع في القرن الحادي والعشرين. فالعراق والجزائر مثلا . تلك الدولتان اللتان كانتا مرشحتين إلى الوصول إلى مصاف الدول المتقدمة، حسب تقرير الأمم المتحدة في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، بسبب قدراتهما الذاتية الضخمة وإمكاناتهما البشرية . انتهتا إلى ولوج حرب أهلية طاحنة لا تهدأ حتى تتصاعد، مما أعادهما إلى ما دون الصفر، وهو ما حفز الولايات المتحدة بشكل رئيسي إلى احتلال إحداهما وهي العراق بحجة البحث عن (أسلحة الدمار الشامل)، وتبددت بعيداً أحلام التنمية وأوهام التقدم، حيث أصبحت الجزائر عرضة للنزاع الأهلي الدموي الذي أخذ شكله السافر في تورط المؤسسة العسكرية (الجيش) في عمليات القتل أثناء صراعها مع الجماعات الإسلامية، كما ثبت ذلك في أكثر من دليل. أما العراق المقسم طائفياً وعرقياً بفعل الاحتلال الأنكلو أمريكي، فقد أنهك الحصار قواه الذاتية على مدى اثني عشر عاماً قبل احتلاله.. الأمر الذي بدد قدراته البشرية والعلمية بالهجرة إلى خارج الوطن.. وخضع إلى احتلال مباشر لا يبدو أنه سينسحب منه قريباً.

أما البلدان العربية الأخرى التي ناضلت شعوبها في أوائل القرن الماضي من أجل تحقيق الاستقلال وإقامة



الجمهوريات الدستورية التي تضمن التعددية السياسية والحزبية والاقتصادية والمشاركة الشعبية الأوسع والتداول السلمي للسلطة عبر صناديق الاقتراع، فإنها عادت إلى الملكية مجدداً عن طريق الجمهوريات الوراثية.. وربما يبقى الانقسام والتشظي المال الكامن في المستقبل، فالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تعيشها البلدان العربية تؤهب يومياً للعبور نحو المجهول الذي ينتظر الجميع على خوف ووجل.. فهل يكفي ذلك لقراءة الآفاق المسدودة أمام البلدان العربية؟!.. أم أن المستقبل القادم نفسه سيحمل من الإجابات الشافية التي لم نستطع حتى التنبؤ بها في الوقت الحالي؟!..

خلاصة القول:

المشهد العربي بلا شك قاتم وسوداوي، والإحباط المجتمعي نلاحظه باستمرار في تصاعد معدلات الهجرة إلى الخارج وازدياد معدلات الجريمة والبطالة والفقر في الداخل. فالنخب الحزبية العربية المعاصرة . كما ثبتت بالوقائع . لا تملك عقيدة ذاتية في حاضرها، لا ديمقراطية ولا تنموية ولا تحديثية ولا قومية ولا حتى دينية، وتحديداً لدى الدول التي تبنت الإسلام عقيدة أيديولوجية لها، وإنما عقيدتها الحقيقية هي مصالحها وإيمانها بنفسها ووجودها وسلطتها، أي بفعاليتها كأداة قمع وضبط وسيطرة.. إن الأحزاب العربية . سواء من كان منها في السلطة أو المعارضة . قابلة لتغيير برامجها السياسية من النقيض إلى النقيض. فنراها تنتقل من العلمانية إلى القومية إلى الدينية من دون أن تشعر حتى بضرورة الحاجة إلى تبديل السلطة والأشخاص. لقد أضحت البنية الاستبدادية كامنة وثاوية في عقل وقلب قيادة هذه الأحزاب والأنظمة، بحيث أصبحت تسأل عن بقائها وبقاء امتيازاتها ومصالحها دون السؤال عن شرعيتها وحاجتها إلى التعبير عن رغبات ومصالح مجتمعاتها، وهذا ما جعل مستقبل البلاد العربية ينتهي إلى آفاق مسدودة، لا سيما مع غياب أفق التغيير والإصلاح والديمقراطية.. وانعدام التطلعات إلى المستقبل في ضوء الواقع الراهن.

تبدو الديمقراطية كقيمة وممارسة هنا خيار حتمي لا بد من الولوج فيه، حتى تتحول الأزمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى هم واهتمام يومي ونقاش وحوار علني وسلمي تشارك فيه جميع التيارات العلمانية والقومية والدينية، ويسهم بالتالي في تحقيق البدائل الديمقراطية عن طريق التداول السلمي للسلطة، والتي تضمن تحقيق الطموحات المجتمعية للأغلبية الساحقة، وتضمن في الوقت نفسه حقوق الأقليات وأطرها السياسية والثقافية. أما الأزمة الاجتماعية، فلا تتم معالجتها بمعزل عن ارتباطاتها السياسية، لكن التخفيف من حدتها والعمل على وضعها كإطار للمنافسة يحتمان الدخول في الحوار الأخوي والرفاقي بين جميع القوى السياسية والاجتماعية والثقافية، بشكل يزيل حدة التوتر المتصاعد بين هذه القوى، ويمنعها من اللجوء إلى بدائل غير سلمية وغير ديمقراطية، ربما تدخل البلاد في حروب أهلية تعصف بالجميع، ويخسر فيها الجميع.

حينما يكون التفكك الفلسطيني مصلحة إسرائيلية عليا...!

قراءة في فلسفة المؤسسة والرؤية الاسرائيلية تجاه الخريطة السياسية الفلسطينية

نواف الزرو
كاتب صحفي وباحث في شؤون الصراع
رئيس القسم العبري والابحاث الفلسطينية - الاسرائيلية في صحيفة الدستور الاردنية

كان الكاتب الاسرائيلي «مناحيم بن» قد سلط الضوء في مقال له في معاريف ٢٠٠٧/١٠/١ على ملف الخريطة السياسية الفلسطينية في الرؤية الاسرائيلية قبيل مؤتمر انابوليس حيث قال: «إن الفرقة الفلسطينية هي مصلحة إسرائيلية عليا»، والمؤكد أن هذه البدهية لا تغيب عن الفلسطينيين أبداً، في الوقت الذي لا تغيب فيه عن الأجندات والمخططات الإسرائيلية في حالتي الحرب والمفاوضات، فدولة الاحتلال تعمل على تمزيق الخريطة الفلسطينية السياسية والجغرافية والسكانية على مدار الساعة، ناهيك عن مساعي «إسرائيل» الرامية إلى نقل الفتنة إلى الضفة بعد أن وقعت الكارثة في غزة...!، وفي هذا الصدد نقلت صحيفة جيروزالم بوست الإسرائيلية الناطقة بالإنجليزية ٢٠٠٧/٩/٥ عن تقييم حديث للجيش الاسرائيلي حول الصراع القائم بين حركتي فتح وحماس «أنه يوجد حوالي ٨٠ ألف قطعة سلاح غير شرعية بين أيدي «الإرهابيين» في الضفة الغربية - على حد زعمها، وأضافت الصحيفة «أن هذه الأسلحة مخبأة بمعظمها في المنازل الخاصة أو مخابئ سرية»، ونقلت الصحيفة عن مسؤول أمني كبير قوله «لديهم الأسلحة والمتفجرات والأهم من ذلك أنهم يتمتعون بحافز كبير وأن حماس حالياً في «مرحلة انتظار»، وتحاول أن توحد بعض الفصائل المنفصلة عنها في



مختلف أنحاء مدن الضفة، مع المجموعات «الإرهابية» التي تقيم في مدينتي نابلس وجنين شمال الضفة»، وأردفت «أن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية تشعر بالقلق من احتمال انهيار قوى حركة فتح مثلما حدث في غزة»، ولهذا السبب، فقد عبر كبار المسؤولين في المؤسسة العسكرية عن معارضتهم للخطة التي طرحها المنسق الأمني الأمريكي في المنطقة الجنرال كيث دايتون التي تقترح زيادة خمسة فرق عسكرية إضافية توضع بتصرف محمود عباس ليتمكن من مواجهة «تهديدات» حماس، وقال مسؤول إسرائيلي «إن الأمر لا يتعلق بعدد الرجال بل بتحفيز رجال فتح على القتال والدفاع عن السلطة الفلسطينية».

وفي سياق تحريضي واضح اختتمت الصحيفة الإسرائيلية قائلة: «إن القيادة الوسطى في الجيش الإسرائيلي تعتقد أن الوقت بدأ ينفذ من عباس وأنه في الأشهر القليلة المقبلة ستحاول حماس الإطاحة بحكومته في الضفة والاستيلاء على الفروع الأمنية والمؤسسات التابعة للسلطة، ولذلك تحتاج القوى الأمنية للشعور بان لديها أسباب للقتال، يجب أن يشعروا أن لديهم حياة أفضل

الدولة الصهيونية تعمل على تمزيق الخريطة الفلسطينية السياسية والجغرافية والسكانية على مدار الساعة

يتطلعون إليها، وإلا فلن يشكلوا أي تحد بالنسبة لقوات حماس».

فهل هناك أوضح وأوقح من هكذا تحريض إسرائيلي خبيث بغية تأجيج الفتنة الاهلية الداخلية الفلسطينية ونقلها من غزة إلى الضفة أيضاً...؟!

«إسرائيل» النهج - تحطيم المجتمع الفلسطيني

لذلك ربما يكون مصطلح «تفكيك النص الفلسطيني» هو الأدق إلى حد كبير في وصف المشهد الفلسطيني الراهن وتداعياته المحتملة، فتفكيك النص الوحدوي النضالي /الكفاحي الصمودي الفلسطيني كان من أهم وأخطر أهداف الاحتلال الإستراتيجية على الإطلاق، ولعل ما جرى ويجري اليوم إنما يحقق لهم هذا الهدف المرعب الذي قد يترتب عليه فلسطينياً أسئلة وجودية تتعلق بمصير القضية والمشروع الوطني الفلسطيني برمته...!

بل وأبعد من ذلك فقد «نجحت إسرائيل - حسب الباحث بنفنستي - في تحطيم المجتمع الفلسطيني إلى أجزاء والفلسطينيون يساعدون في تكريس هذه الظاهرة وعليه هم بحاجة الى غريبالدي حتى يوحد صفوفهم/ عن هارتس ٢٠٠٧/١٠/١١»، ويضيف الكاتب: «التدارس المعمق للمشكلة الفلسطينية يظهر أننا نقوم بتفكيك هذه المشكلة وتجزئتها إلى أجزاء صغيرة بصورة مريحة لنا على افتراض أن «المشكلة الأصغر أسهل على الحل»، فنحن اعتدنا على نهج التفكيك جدا لدرجة أننا نسينا أننا لم نقم بتفكيك المشكلة إلى أجزاء وإنما فعلنا ذلك مع الشعب الفلسطيني حيث قسمناه في الأجيال الثلاثة الأخيرة إلى مجموعات فرعية، ونحن لم نقم بالتفكيك القسري فقط، بل تسببنا في قبولهم بالهوية المشرذمة وخضوعهم للأجندة التي أمليناها عليهم».

مخطط أمريكي مبيَّت

وانتقالا إلى المخطط المبيت لتفكيك النص الفلسطيني لعلنا نوثق بداية وقبل الذهاب في تحليل تداعيات الحدث الفلسطيني على المؤتمر، ذلك الدور الامريكي التامري على الفلسطينيين بالتواطؤ مع الحكومة الاسرائيلية بغية تفكيك النص الفلسطيني، فهاهي صحيفة «يونجا فيلت» الألمانية تكشف النقاب مؤكدة: «إن إدارة بوش خططت منذ فترة طويلة لتفجير الأوضاع الداخلية الفلسطينية وتحريض تيار موال لها داخل حركة فتح على القيام بتصفيات جسدية لقادة الفصائل العسكرية لحركة حماس/ عن الوكالات».

وقال المعلق السياسي للصحيفة «فولف راينهاردت»: «إن هذا الاتهام مبني على أقوال لا تحتمل اللبس أدلى بها مسؤول الاتصال العسكري الأميركي المقيم في إسرائيل الجنرال كيث دايتون أواخر مايو/ أيار الماضي أمام جلسة استماع في لجنة الشرق الأوسط بالكونغرس الأميركي».

كارتر: سياسة واشنطن تهدف لتقسيم الفلسطينيين

وهو الأمر الذي أكده الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر حينما دعا من على قناة الجزيرة الولايات المتحدة وإسرائيل والاتحاد الأوروبي إلى إنهاء سياستهم القائمة على تفضيل حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) على حركة المقاومة الإسلامية (حماس).

وأوضح كارتر «أن تعهد واشنطن وأوروبا وإسرائيل بدعم الحكومة الجديدة في رام الله ومنع المساعدات عن غزة جزء من «سياسة خاطئة تهدف إلى تقسيم الفلسطينيين إلى شعبين/ الجزيرة - الأربعاء ٢٠٠٧/٦/٢٠».

وأوضح كارتر «أن واشنطن وتل أبيب «فعلتا كل ما بوسعهما لمنع تسوية الخلافات بين حماس وفتح».

فلسفة المؤسسة الإسرائيلية منع الوحدة الفلسطينية

وحينما تؤكد وزيرة الخارجية الاسرائيلية تسيفي لفني خلال جلسة الحكومة الاسرائيلية «على ضرورة العمل بشكل متزامن ضد حركة حماس ومن أجل تقوية حكومة سلام فياض لمنع حركتي فتح وحماس من استئناف العمل المشترك بينهما /عن الإذاعة العبرية الرسمية/ ٢٠٠٧/٧/٨»، وحينما تحذر لاحقاً من الوحدة الفلسطينية قائلة: «الوحدة الفلسطينية تعني جموداً وتدهوراً/ عن موقع عرب ٤٨ بتاريخ ٢٠٠٧/٨/٦»، مضيفة: «إن هذا يتطلب من الإسرائيليين والفلسطينيين الحسم، وينبغي أن يدعم العالم العربي الخطوات الإسرائيلية حيالها عن طريق التطبيع على مراحل»، فإنها تكون قد شرحت لنا على نحو عميق فلسفة المؤسسة الإسرائيلية ورؤيتها لقضية الوحدة الوطنية الفلسطينية.

ولذلك نقول: عندما يقتتل الفلسطينيون ويذبحون بعضهم بعضاً، بمثل هذه البشاعة العمياء كما تابعنا مؤخراً في غزة، فإن ذلك لا يخدم غير مشروع الاحتلال تماماً، في الوقت الذي يدق مدماكا آخر في نعش المشروع الوطني الاستقلالي الفلسطيني، وفي الآفاق الحقيقية لتحقيق الطموحات الوطنية الفلسطينية.

عندما قرر البلدوزر - شارون - في حينه تبني وتطبيق خطة «فك الارتباط» عن غزة، كان من بين أهم وأخطر أهدافه تحويل القطاع إلى معتقل كبير للفلسطينيين محاصر ومسيج بالقواعد العسكرية والجدران العازلة، ناهيك عن العبث بالوضع الداخلي الفلسطيني، وتأجيج الخلافات والصراعات الفلسطينية - الفلسطينية وتوصيلها إلى مرحلة الاقتتال والتصفيات الذاتية والتدمير الذاتي بغية إشغال الفلسطينيين بأنفسهم وكي لا تقوم لمشروعهم الوطني الاستقلالي قائمة من جهة، وكي ترتاح «إسرائيل» منهم من جهة أخرى ربما لثلاثين أو أربعين عاما أخرى، ناهيك عن تكريس الاستيطان والتهويد في الضفة الغربية إلى أبد الآبدين...!

لذلك يمكن أن نقرأ هذه الحرب البينية الفلسطينية التي جرت على أرض غزة وتتواصل إعلامياً وميدانياً إلى حد كبير على أرض الضفة، على أنها لا تصب في الحصيلة إلا لصالح الاحتلال الذي سعى دائماً لبعثرة الوضع الفلسطيني، وإعادة صياغة المشهد السياسي الفلسطيني، ويمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك بالقول بأن هذه الحرب الفلسطينية إنما هي حرب اسرائيلية بالوكالة..!.

في هذه المضامين الخطيرة مفيد أن نعود لمراجعة وقراءة فلسفتهم وأدبياتهم الأيديولوجية والسياسية وما يقولون هم - أي الإسرائيليون - عن هذه التطورات والاحوال الفلسطينية التي تريح العدو وتخلق له الفرصة التاريخية للانقضاض...!

آراء ومواقف إسرائيلية أخرى

يضاف إلى ملخص تحليل الخبير بروم سلسلة آراء ومواقف إسرائيلية آتية من مختلف أطراف الطيف السياسي، والإعلامي، والحزبي الإسرائيلي نلخصها فيما يلي بعبارات مكثفة: المحلل السياسي ناحوم برنياع - يديعوت احرونوت ١٥/ ٦/ ٢٠٠٧ كتب قائلاً: «إن المصادمات الفلسطينية الداخلية التي تمنت إسرائيل حدوثها طوال سنوات تحدث أخيراً»، وهاهو البروفيسور درور زئيفي - «يديعوت احرونوت، ١٨/٦/٢٠٠٧ يعرب عن الفرحة العارمة أيضاً قائلاً: «أصبح واضحاً تماماً اليوم أنه يوجد كيانان فلسطينيان، أحدهما في غزة، والثاني في الضفة، وهذه فرصة نادرة لإسرائيل»، وأضاف: «لو كنا علماء نخطط لتجربة في المختبر، لما استطعنا أن نخطط لتجربة أكثر نجاحاً: فلدينا جماعتان متمايزتان بوضوح، ومنفصلتان جغرافيا بلا اتصال بينهما تقريباً، تسيطر على كل واحدة منهما جماعة متجانسة نسبياً، وترفض الجماعتان محادثة بعضهما بعضا».

الفصل بين غزة والضفة مناسبة تاريخية للدولة الصهيونية للإجهاز على القضية الفلسطينية

اما رأي ايتام الوزير الإسرائيلي عن حزب المتقاعدين فقد أعلن «أن ما حدث في قطاع غزه أمرٌ جيدٌ لصالح إسرائيل/الإذاعة العبرية ١٥/٦/٢٠٠٧»، مضيفا: «من الآن فصاعداً أصبح هناك كيانان فلسطينيان، واحد يقع في الضفة الغربية وآخر يقع في قطاع غزه وهذا أمر جيد لنا»، مستخلصاً: «فلنترك الفلسطينيين يذوبون في عصيرهم لمدة جيل أو جيلين من عمرهم وبعد أن يعقلوا يمكن لإسرائيل حينها توقيع اتفاقية سلام معهم».

وفيما قال المحلل السياسي لقناة «إسرائيل» الثانية أيهودي يعاري ١٢/ ٦/ ٢٠٠٧ «إن «إسرائيل» تستطيع الآن تسجيل انتصار كبير لها بعد أن قامت حركتي حماس وفتح بعمليات اغتيال متبادلة»، استخلص الكاتب المستشرق غي باخور في يديعوت ١٧/٦/٢٠٠٧ قائلا: «الدولة الفلسطينية تبددت في نهاية الاسبوع في دقيقة صمت»، مضيفاً «إن الفلسطينيين يعيدون كتابة تاريخهم من جديد».

أما في التداعيات العملية على وحدة الجغرافيا الفلسطينية فكشفت يديعوت احرونوت النقاب عن «أن رئيس الوزراء الإسرائيلي أيهود أولمرت قرر التعامل مع الضفة وغزة ككيانين منفصلين ومنع أي اتصال بينهما وهذ اصبحت حاجة ملحة».

وكشفت معاريف في موقع آخر قائلة: «في ظل التطورات الدراماتيكية في مناطق السلطة الفلسطينية فإن أولمرت قرر العمل على تكريس السياسة الاسرائيلية القاضية بوجوب خلق عزل بين مناطق الضفة وبين غزة بهدف قطع قدرة التأثير لحماس في الضفة»، وقال مصدر سياسي إسرائيلي كبير إن «هذه مصلحة إسرائيلية».

وأعرب المقربون من أولمرت وفقا للإذاعة العبرية ١٦/٦/٢٠٠٧ عن اعتقادهم «أن زيارة أولمرت لواشنطن الأخيرة جاءت «في أفضل توقيت، بالنسبة إليه بعد التطورات الأخيرة في غزة و«التي عززت موقف إسرائيل دولياً من حماس».

وعلى نحو مكمل أفادت«القناة الثانية» في التلفزيون الإسرائيلي «أن الرئيس الإسرائيلي المنتخب شمعون بيريز قال خلال حديث هاتفي أجراه معه الرئيس جورج بوش لتهنئته على انتخابه، أن إسرائيل ترى في التطورات الأخيرة «فرصة للفصل بين قطاع غزة والضفة»، على أن يتم التعامل مع الحكم في القطاع على أنه «إرهابي»، بينما تعمل واشنطن وتل أبيب على تقوية الضفة اقتصادياً وتحويلها إلى منطقة جذب استثمارات و«متحررة من تهديدات حماس».

ونقلت الإذاعة العبرية عن أوساط أمنية في إسرائيل قولها «إن الصدع بين الضفة والقطاع نهائي غير قابل للرأب، وأن الفصل يبدو تاماً ولم يتبق الآن سوى متابعة سلوك حماس ورؤية ما إذا كانت قادرة على تصريف شؤون أكثر من ١,٥ مليون إنسان تحت حصار اقتصادي وعزلة سياسية».

هل يوجد «شعب» فلسطيني؟

وقد ذهبت الفرحة الاسرائيلية أبعد من كل ذلك بوضع علامات استفهام حتى وجود الشعب الفلسطيني، اذ كتب د. أوفير هعبري في يديعوت احرونوت ٢٦/٦/٢٠٠٧ يقول: «الشقاق السياسي والثقافي الذي أخذ يزداد بين عرب غزة واولئك الذين في يهودا والسامرة يثير للبحث إمكانية إقامة وحدتين سياسيتين مستقلتين ومستقبل القومية الفلسطينية عامة، لكن - يضيف - قد يكون علينا أن نسأل هل كان يوجد في مرة ما حقاً «شعب» فلسطيني؟».

الفصل بين غزة والضفة مناسبة تاريخية

ويستكمل الكاتب والاديب الإسرائيلي عاموس عوز - يديعوت احرونوت ٣١/٧/٢٠٠٧ الرؤية الإسرائيلية قائلا: «إن الفصل بين غزة تحت سلطة حماس وبين الضفة التي يحكمها المعتدلون هي ساعة مناسبة تاريخية لصنع السلام بين إسرائيل وحكومة محمود عباس، فحكومة أولمرت وحكومة عباس تقبلان مبدأ دولتين لشعبين، وفكرة المناطق مقابل السلام والتوجه الذي يؤيد إنهاء الاحتلال الإسرائيلي، وليست نقاط الاختلاف قليلة، لكن لا يوجد في أية واحدة منها فرق كبير بين الجانبين، قد يُقرب تفاوض مكثف الاختلاف ويفضي إلى مسودة اتفاق».

عزل قطاع غزة- حلم اسرائيلي يتحقق

وعلى نحو أخطر يكشف لنا حقيقة التوجه الإسرائيلي في قصة الفصل والعزل أعربت محافل إسرائيلية عن اعتقادها «أن إسرائيل ستنجح في عزل غزة عن الضفة الغربية والقدس الشرقية وغور الاردن عن باقي الضفة الغربية/عن المصادر الاعلامية ١٨/٦/٢٠٠٧»، وكتب باتريك انيدجار يقول: «بعد سنتين على انسحاب إسرائيل الأحادي من غزة، تحقق على ما يبدو حلم ارييل شارون وأيهود أولمرت بعزل هذا القطاع من خلال اعتمادهما سياسة تقضي باضعاف محمود عباس».

ولذلك نقول في خاتمة قراءة المشهد الفلسطيني والنوايا والخطط الأخرى الإسرائيلية المبيتة ضد الفلسطينيين ومشروعهم النضالي أن الحقيقة الكبيرة المستخلصة والأهم هنا أن «الوحدة الوطنية الفلسطينية»، و«القيادة الجماعية من أقصى الإسلام مروراً بفتح الوسط وصولاً إلى أقصى اليسار، هي المخرج من المأزق وهي البديل الملح والعاجل لهذه المشهد الفلسطيني النكبوي...!

ونثبت الخلاصة المفيدة دائماً: إذا أردت أن تعرف حقيقة الوضع الفلسطيني فاقرأ نوايا ومخططات العدو... وانظر إلى أنيابه...!

البنية النفسية للفاشية

تحليل النموذج الصهيوني

أحمد.م.جابر

في تحليل صار يعتبر كلاسيكياً للفاشية انطلق أدورنو الإيطالي في مقياسه الشهير[1] من فرضية مفادها أن الاعتقادات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تشكل نمطا واسعا متماسكا يعبر عن نزعات عميقة في الشخصية. وفسروا البناء الشخصي لأصحاب الشخصية التسلطية من خلال ضعف (الأنا) التي تتوق إلى بناء قيمي سليم مما يدفع لتعويض ذلك بالبحث عن مصادر خارجية يستندون إليها في خلق بناء قيمي شكلي خاص بهم. وان كان في حقيقة الأمر لا يعبر عن قدرة ذاتية حقيقية متميزة. وهكذا بإمكاننا تلخيص سمات الشخصية التسلطية عند أدورنو وزملائه: بالتقليدية والالتزام بقيم الطبقة الوسطى المحافظة والقبول غير النقدي بالسلطات ورفض ومعاقبة الخارجين على القيم التقليدية ومعارضة التفكير التأملي والتمسك بالمزاجية والنمطية واسقاط الدوافع الانفعالية واللا شعورية على الخارج والافتتان بالقوة واحتقار العلم والتركيز المفرط على القضايا الجنسية[2].



وقد انتقد روكيتش الاستناد إلى هذا المقياس (أدورنو وزملائه) لقياس الفاشية لأنه نشر أصلا على أساس أنه مقياس للتسلطية. وقد اعتبر أن الانتقال من الفاشية إلى التسلطية يمثل انتقالا من الخاص إلى العام. فالتسلطية عند ميلتون روكيتش أوسع من الفاشية التي يعتبرها (تسلطية يمينية)[3] وهو يرى أن مقياس الفاشية يقيس جانبا واحدا من جوانب التسلطية مركزا في تحليله على التصلب والجمود.

ويشير التصلب إلى عجز نسبي عن تغيير الشخص لسلوكه واتجاهاته عندما تتطلب الظروف الموضوعية ذلك والتمسك بطرائق غير ملائمة للسلوك والشعور، و التصلب يمثل مقاومة اللجوء إلى أنواع جديدة من الاستجابات التكيفية[4]. ويتصل التصلب بمفاهيم أخرى أهمها (عدم تحمل الفوضى) الذي تحدث عنه فرانكل برونشفيك والمقصود به الرغبة بالتعامل مع كل شيء على أنه أبيض وأسود وهكذا يقسم الفاشي العالم إلى أقسام، فهناك أنا والآخر، نحن والغوييم.

ويرتبط التصلب بمفهوم الجمود أي «مقاومة التغيير بالنسبة للأنساق كلية المعتقدات فالجمود خاصية للنسق الكلي للمعتقدات التي تعيق صاحبها عن إحداث تغيير[5] فمرجع سلوك الذهن الجامد هو النسق الكلي للأفكار أكثر منه فكرة واحدة.

ويشير مفهوم الجمود عند روكيتش إلى مجموعة من المظاهر السلوكية المعرفية المتعلقة بالأفكار والمعتقدات المنتظمة في نسق ذهني مغلق مسبقاً. فهو طريقة منغلقة على التفكير مرتبطة بأيدلوجية، بصرف النظر عن مضمونها، وبنظرة تسلطية في الحياة وعدم احتمال الأشخاص الذين يختلفون ويعارضون المعتقدات الخاصة بأصحابها.

يرتبط الجمود بنظرة الفاشي إلى ثبات العالم، فالعالم عنده كيان ثابت معطى مسبق، وهو على صورته (للمصادفة) يتعين عليه مجرد التكيف معه، وأي خروج عن هذه القاعدة تحيل الفاشي إلى الاضطراب والبحث عن موازنة فورية وإعادة تقويم لاستعادة المنظور الملائم والمألوف، وهكذا بعد استخدام كل الحيل تلجأ الفاشية إلى العنف المتسم إرهابا.

ونظرة الفاشي إلى ثبات العالم تنعكس في الصورة المنمذجة التي يقدمها عن الآخر، فالعرب والمسلمون في نظره، متخلفون، بدو مغامرون، محبون للجنس بشكل مثير للاشمئزاز، كسالى وخاملون، وشرقيون عموماً، والفلسطينيون في الذهنية الصهيونية إن لم يكونوا ديداناً أو صراصير حسب الحاخام عوفاديا يوسف، فهم إرهابيون، قتلة، مخبولون، أفاع وكلاب، معادون للسلام.

واستكمالا لنظرة أشمل يركز روكيتش على (المجاراة) (conformity) فإن الشخص يستجيب كما تريد منه الجماعة أو طبقا لتوقعاتها، وهو لا يعتقد فيما يفعله بصورة واقعية، فهو يساير الجماعة دون اتفاق (بينه وبين نفسه) خاصة معها[٦].

يحيل هذا المنطق إلى نقص في المرونة الفكرية، يرتكز على ثوابت ومسلمات لا تقبل النقاش لأنها محاطة بدلالات وجدانية وشحنات لا شعورية تجعل كل نقاش مهدد لثبات الحياة ومعناها.

ترتبط هذه الصفة بسلوك الاستبرار الذي يتبعه الفاشي وهي عملية نفسية علائقية تهدف إلى تبرير العدوان على الغير من خلال تأثيره، كما يحدث، رد فعل براءة للذات، وعندما تضطرب شخصية الفاشي وتتبدد سكينته لأسباب موضوعية أو ذاتية فان السلوك المتوقع هو البحث بكل الوسائل عن إعادة النظام للعالم الذي ينهار من حوله واستعادة السكينة والأمن الداخلي، فيبحث عن آخرين مطابقين له، يجدهم في عشيرته أو حزبه أو شيعته، ويشكل هؤلاء الآخرون صورة تكاد تكون امتداداً بيولوجيا للأم الحامية،



ويلعبون دور (الحضن الطيب) حسب تعبير ميلاني كلين[٧].

حيث يسود التماثل ويطغى نقاء المجموعة، ويتجسد النظام الطبيعي، و نلاحظ من جديد أن المجموعة التي تضيق بأي نقد تشعر أنها مهددة نرجسيا عندما يخاطر أحد بمناقشة قناعاتها أو بإبراز نقاط ضعفها.

قد يكون مفيدا أن نلفت النظر إلى أن من يقرأ تحليل لوكاتش المذهل للآثار السيكولوجية للمعاناة الألمانية إثر هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، يلحظ بين السطور تاريخ الولايات المتحدة بعد ١١ أيلول، لقد أنتجت هزيمة الحرب الأولى هتلر وحزبه النازي، موسوليني وحزبه الفاشي وتحولت الأنا المضطربة الألمانية والإيطالية إلى نظام فاشي والمؤشرات جميعها تحيل إلى هذه الأنا المضطربة نفسها المسيطرة على المجتمع الأمريكي بعد ١١ أيلول فيصبح التحرش بالفاشية أشبه بإيقاظ وحش نائم وربما تكون الحسنة الوحيدة (بتحفظ) التي تنتج عن هذا التحرش، عن مهاجمة العالم المنظم للفاشية هي أنه في لحظة البحث عن الانتظام وإعادة الضبط لنظامه وسلوكه يكشف عن وجهه الحقيقي وتتبدد دفعة واحدة جميع الأقنعة المستعارة التي تم الركون إليها للاختباء خلفها في لحظات الهدنة مع العالم النازع للتمرد.

الفاشية باعتبارها استبداداً:

يشير التحليل (النفس - اجتماعي) أن الفعل المؤسس للاستبداد هو فعل الاستيلاء أي انتزاع الحكم والقبض عليه من دون تفويض من المجتمع أو ضد إرادته.

يكتسب الاستبداد معناه السيئ من كونه اغتصاباً واحتكارا للحق المشترك مع الآخرين، فهو فعل يقوم على الاستحواذ والاستيلاء والسيطرة على شيء هو حق مشترك مع الغير[٨].

والاستبداد في إفادته معنى الانفراد فإنه يتضمن دون شك نفي الآخر وعدم الاعتراف به مشاركا في الحق العام

والاستبداد يحول العلاقات بين الأفراد من علاقات تحكمها وتنظمها قوة الحق إلى علاقات تضبطها محض القوة.

نجد توافقا كبيرا وشبه تطابق ما بين الاستبداد والشمولية بمحتواها الفاشي، فإذا



كانت الشمولية ترتكز على عنصر التركز حول الذات (الإيكوسنترية) ما يعني الميل إلى رد كل شيء إلى الذات، فهي أيضا ترتكز على الإثنوسنترية ما يحيل إلى ميل للحكم على كل شيء بمعايير الرهط الاجتماعي الذي ينتمي إليه الفرد[٩].

أو كما يلحظ ماكس فيبر[١٠] أن المؤسسة الاستبدادية هي مفهوم نوعي يجمع سمات لطبقة كاملة من المؤسسات المتخصصة في التحفظ على الأشخاص والضبط الاستبدادي لنمط حياتهم. وفي مقال نشره الفيلسوف الإيطالي جيوفاني جنتيلي بعنوان «الأسس الفلسفية للفاشية» استعمل صفة التوتاليتارية totalitarian بمعنى الإحاطة والشمول واحتواء كل شيء في صفة للنظام الفاشي[١١].

أما الاستبداد بمعناه النفس فرويدي فقد لحظ أنه يستعمل بالترادف مع مفهوم المتسلط، باعتباره شخصية مرضية، تتصف بالزورية (البارانويدية paranoid) بمعنى الاتصاف بالتوقع الدائم أن الآخرون ينتقصون من قيمة الفرد، أو يحاولون إلحاق الأذى به أو تهديده، على شك دائم بإخلاص وصدق المحيطين به دون مبرر وفرط باليقظة والانتباه والانزلاق بسرعة إلى الحنق ووهم الشهرة وعدم التسامح مع أي سلوك يتم تقييمه على أنه مهين، وعدم الثقة بالآخرين بسبب الخوف الدائم من إمكانية استغلال أي معلومة ضده، نلاحظ هنا تطابقا تاما

ع سيكولوجيا الحصار والبحث عن الأمن ختراع الأعذار لتشديد الحصار الداخلي تخاذ موقف عدائي تجاه الخارج. لقد رأينا الصهيونية تضيق بأي نقد، وتغضب بشدة اداء فيصبح الناقد إذا كان يهوديا كارها اته، ومرتدا عن قيم الشعب اليهودي، أما إذا م يكن يهوديا فهو ببساطة (لا سامي) ويعلم جميع كيف تستخدم الصهيونية المحرقة كل تجاري أرعن لاحتكار المأساة وتظهير فسها باستمرار محتكرة دور الضحية لليهود، برة سلوكها مسلك الجلاد بهذا الاحتكار وقح.

أما النرجسية فهي صفة أخرى من صفات هذه الشخصية، وباختلاطها بالتعصب بأشكاله تعطي نتائج كارثية، لتتميز بالتعجرف والنقص في التعاطف وفرط الحساسية تجاه آراء الآخرين وإعزاء العنصر الايجابي للنفس وإسقاط النوازع السلبية على المختلف الذي لا ينتمي للرهط فتبالغ في إنجازاتها وحسناتها وتتوقع من الآخرين أن يعترفوا لها بالجميل بصورة خاصة بمبرر أو بدونه ، وتستحوذ على النجاح والشهرة والتألق هذا النمط من الناس غالبا ما يمتلك مشاعر مزعزعة بالقيمة الذاتية وتعتبر آراء الآخرين واعترافهم به مهمة جدا، ويستجيب لأي نقد سلبي، بالغضب أو بمشاعر الإهانة أو الإذلال ويميل هذا النمط لاستغلال الآخرين و استخدامهم جسرا لتحقيق أهدافه الخاصة مع نقص في التعاطف معهم أو الحساسية لهم[12] لذلك تعمل الفاشية على خلق المسافة مع الآخرين والبعد عنهم، فكلما ازدادت المسافة بين الأنا والآخر كلما اطمأنت الأنا وخف قلقها.

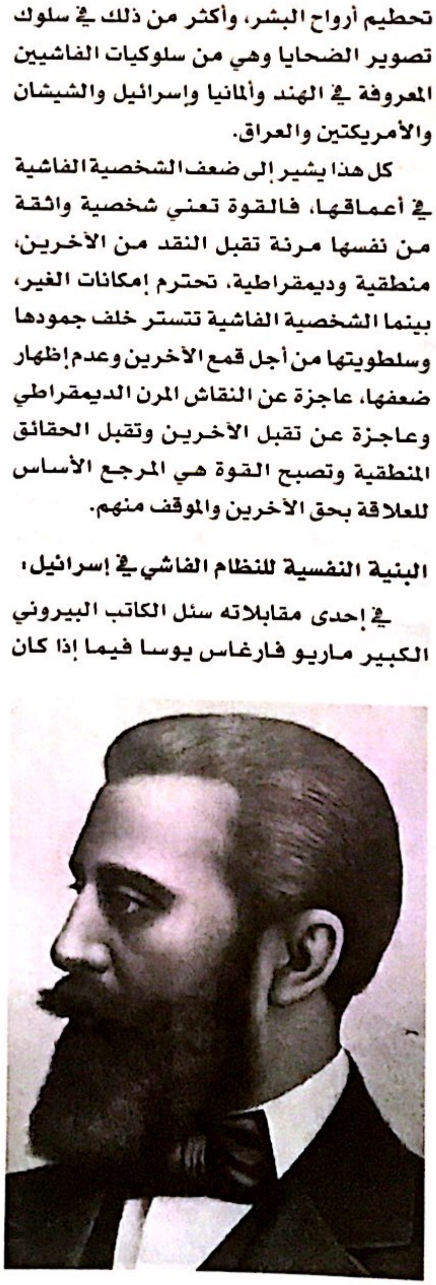
والسادية من جهة أخرى سمة لازمة للفاشية (نتحدث هنا عن الفاشية كنظام وبنية وليس عن أفراد منتمين إلى الفاشية) ، بتعبيرها عن سلوك عدواني وعنيف وقاس تجاه الآخرين من اجل تحقيق السيطرة في العلاقات الخارجية ويحافظ أصحاب هذا النمط على السيطرة على الآخرين من خلال وسائل تتراوح بين الإرعاب والإرهاب اللفظي وصولا إلى سوء المعاملة الجسدية، وغالبا ما يستمتعون بإيلام ضحاياهم أو إهانتهم وفي الغالب يقيدون حرية الأشخاص مع ولع شديد بالأسلحة. وهكذا تصبح السادية حسب إيريك فروم[13] «الشغف بالحيازة على رقابة موجود حي رقابة مطلقة». فإرغام أحد أن يتحمل الألم والإذلال دون أن يكون بوسعه الدفاع عن نفسه يكون مظهرا من مظاهر الرقابة المطلقة.

لقد شاهد العالم بأسره ذلك المظهر- الذي تكرر كثيرا في الحقيقة- عندما اقتحمت القوات الإسرائيلية سجن أريحا وأرغمت عشرات الأشخاص العزل على الوقوف عراة أمام عدسات التلفزة في تلذذ واضح بعذاب الضحية وبدون أي مبرر سوى الإذلال والرغبة في إظهار التحكم الكامل عبر تحطيم أرواح البشر، وأكثر من ذلك في سلوك تصوير الضحايا وهي من سلوكيات الفاشيين المعروفة في الهند وألمانيا وإسرائيل والشيشان والأمريكتين والعراق.

كل هذا يشير إلى ضعف الشخصية الفاشية في أعماقها، فالقوة تعني شخصية واثقة من نفسها مرنة تقبل النقد من الآخرين، منطقية وديمقراطية، تحترم إمكانات الغير، بينما الشخصية الفاشية تتستر خلف جمودها وسلطويتها من أجل قمع الآخرين وعدم إظهار ضعفها، عاجزة عن النقاش المرن الديمقراطي وعاجزة عن تقبل الآخرين وتقبل الحقائق المنطقية وتصبح القوة هي المرجع الأساس للعلاقة بحق الآخرين والموقف منهم.

البنية النفسية للنظام الفاشي في إسرائيل:

في إحدى مقابلاته سئل الكاتب البيروني الكبير ماريو فارغاس يوسا فيما إذا كان



«يمكن القول أن الشعوب والطغاة يتقاسمون مسؤولية الأنظمة الاستبدادية؟» فأجاب «هل كان باستطاعة فرانكو أن يكون موجودا دون الأسبان، هتلر دون الألمان، ماو دون الصينيين؟ بإمكان جميع الشعوب في بداية أي نظام استبدادي أن تقاوم، ولكن الحقيقة أن أغلب الديكتاتوريين ينجحون لبرهة في جذب وإغراء أكبر شريحة من الجماهير، وإذا استثنينا الدعم العسكري نجد أن الطغاة يأتون لأننا نطلبهم، كان تروجيللو شعبيا جداً إلى درجة أن الشعب الدومينيكي لو كان التقى القتلة ليلة اغتياله لافترسهم، ما أريد توضيحه أن الديكتاتورية ليست فقط الإذلال والتعذيب والقهر وإنما هي أيضا انهيار بطيء لمجتمع بأكمله»[14].

أظن أن قارئا حصيفا بإمكانه أن يطور بقليل من التمعن أطروحة يوسا الآنفة، فبالنسبة للنموذج الإسرائيلي ليس الأمر مجرد ديكتاتور جاء إلى سدة الحكم وإنما هو موضوع مجموعة بشرية كاملة تجمعت من أطراف الدنيا لتقيم دكتاتوريتها على أنقاض شعب آخر، وهكذا لم يكن انتخاب فاشي كشارون أو ليبرمان أو شاؤول موفاز أو بيرس مجرد صدفة في تاريخ السياسة الشعبية الإسرائيلية، وإنما هي النتيجة الطبيعية التي يفرزها مجتمع من هذا النوع، لقد حصلت الأحزاب المعادية كلياً للشعب الفلسطيني والسلام على ما يزيد على ٥٠ صوتاً في الكنيست السابعة عشرة، إذ حصل شاس الحزب الديني الرجعي على ١٢ مقعدا، والليكود اليميني المتطرف على ١٢ مقعدا والحزب الفاشي الذي لا يخجل من الإعلان عن نفسه إسرائيل بيتنا على ١١ مقعداً، والاتحاد الوطني والمفدال على ٩ مقاعد وحزب المتقاعدين بقيادة مجرم الحرب ايتان على ٦ مقاعد وهذا كله من أصل ١٢٠ مقعدا دون ذكر الفاشيين في كديما والعمل وميرتس أمثال موفاز وديختر ويعالون وبيرس وتساهي هنغبي وغيرهم كثير.

ولكن كيف يمكن أن تتحول جموع غفيرة من الناس إلى منظومة منضبطة للقتل والإرهاب والكراهية؟ لقد ذكرت حنة أرندت إن «افتتان الدهماء بالشر والجريمة افتتاناً أكيداً ليس بالأمر الجديد، إذ طالما ثبت أن الرعاع يرحبون بأعمال العنف قائلين بإعجاب «لئن كان ذلك غير جميل فإنه بالغ القوة

بالتأكيد.[١٥] حنة أرندت تقدم مشروعا للإجابة في تحليلها «لتفاهة أو بساطة الشر»[١٦] حيث عندما تمت محاكمة (أيخمان) أحد جلاوزة النظام النازي الذي لم تكن علاقته سلبية تماما بالصهيونية وقادتها، والذي تسبب بموت الآلاف في غرف الغاز، بحث الكثيرون عن الخطأ الأساسي في التركيبة النفسية لهذا الإنسان، فلم يجدوا شيئاً. فالرجل «كان يقوم بعمله فقط.» كان بيروقراطيا ينفذ التعليمات على أفضل شكل ممكن. على العكس تماما، الرجل كان منظما ونظيفا ولطيفا في تعامله، يذكرنا هذا الوصف بتعليق يوسي سريد زعيم ميرتس على «دماثة ولطافة وحسن أخلاق» الفاشي ليبرمان بعد عشاء حميم بينهما، ولكن ليبرمان ليس مجرد أداة للنظام بل جزء لا يتجزأ منه، ولابد من الاعتراف أن هذا التحليل قد يفارق تحليلنا السابق لشخصية الفاشي. ولكن استكمالا لتحليل أرندت أثبتت تجارب ستانلي ملغرام حول (مدى الانصياع للسلطة) [١٧] أن معظم الناس العاديين يمكن أن يتحولوا إلى وحوش من الناحية الأخلاقية، يعذبون الأبرياء بدون روادع أخلاقية تذكر، إذا وضعوا في ظروف مناسبة من حيث طاعة السلطة. تصرفات الجنود الإسرائيليين الشبان الذين لا تتجاوز أعمارهم الثامنة عشرة على الحواجز التي يقيمها الجيش الإسرائيلي من تنكيل وتعذيب وإهانة للفلسطينيين تندرج تحت هذا التحليل.

وقد توصل البروفيسور دانييل بارطال من جامعة تل أبيب ورئيس المنظمة العالمية لعلم النفس السياسي [١٨] إلى النتائج التالية:

١- الشعب اليهودي في إسرائيل غير طبيعي، مفرق ويعاني من انقسام حاد، معسكر قومي جبري يقول بـ (لا حل للنزاع في الشرق الأوسط) ومعسكر حمائمي مضغوط هستيري وكلاهما يهرب من الواقع، الأول يتنكر لعلاقة السلام والثاني يهرب من المسؤولية إلى عالم الخيال.

٢- عن السبب النفسي للخوف من التغيير يقول بارطال أن إسرائيل استثمرت الكثير في النزاع مع العالم العربي من ناحية عسكرية واقتصادية ومعيشية وتم تشديد أيدلوجية تفسر وتبرر هذا السلوك، من الصعوبة تغييرها، أسهل أن نواصل رؤية السلبيات لدى الخصم من أن نبذل جهدا لرؤية ألوان رمادية داخل اللون الأسود».

٣- استذكر بارل طال «في تجربة وضع المجتمع الإسرائيلي على أريكة المحلل النفسي» أبحاثا كان أنجزها في السابق ودلت على أن الأطفال اليهود منذ عمر الثانية والنصف يتكون لديهم تصور سلبي عن العرب ويبقى العربي في تصورهم مفردة ملازمة لصفات سلبية شريرة. وقد فحص منذ أكثر من عشر سنوات كتب التدريس العبرية فوجد أنها لا تنفك تكرس النزاع وتمجده، وفي فحص متجدد عام ٢٠٠٢ وجد أن كتب التدريس العبرية ما تزال تعاني من التثبت بالماضي، ويقول «يبدو أن السلام بقي خارج حدود المدرسة».



عقد الصهيونية:

يعرف (هيسنر) [١٩] العقد بأنها ليست أشياء غريبة ملقاة في أعماق الوجود، وقابلة للصعود إلى سطحه، بل منظومات من التصرفات الحاضرة بصورة مستمرة، هي أجزاء من التصرف لم تكن أبدا موضع الاندماج بصورة تامة، معزولة أو مجزأة، مستمرة مثلما كانت قد أثيرت متصلبة جاهزة على نحو مستمر لأن تنطلق.

ثمة ظاهرتان ترتبطان بالعقدة: الأولى شمولها أوضاعا أخرى غير الأوضاع التي تثيرها بصورة مباشرة، والثانية هي انطلاق رد الفعل لمجرد إشارة تلخص وضعا متميزاً.

تنزع العقدة إلى نقل العدوى إلى كلية الوجود، مثل هذا التشوه للواقع وللسلوك العقدي مميزان أساسيان الأول انه سلوك مفرط يتجاوز الحد، مثال إضافة لإضفاء المأساوية على الوضع. والثاني انه سلوك ذو قوالب جامدة رتيب ومتكرر [٢٠]

عقدة المسادة: تفكيك أسطورة

ارتبطت الأسطورة المسماة بهذا الاسم بقصة رواها مؤرخ واحد يدعى يوسيفوس فلافيوس من التابعية الرومانية وقد رافق الجيش في حملته على فلسطين في القرن الأول للميلاد[٢١]. وهناك روايتان للمسادة، واحدة سائدة، مختلقة مزيفة، وأخرى رواها يوسيفوس وإن لم تكن بالضرورة حقيقية لكنها تلتزم بمعايير التأريخ الكلاسيكي الرصين.

ومفاد القصة حسب يوسيفوس: أن مجموعة من العبرانيين تحسبوا لمواجهة الرومان فصعدوا إلى جبل مسعدة قرب البحر الميت مع عوائلهم من نساء وأطفال، وتحصنوا في قلعة أعلاه وبلغ تعدادهم ٩٦٠ شخصا، وتضيف الرواية أن هؤلاء فضلوا الانتحار وقتل نسائهم وأطفالهم بأيديهم اذا ما اقتحم الرومان القلعة على الاستسلام.

وقد أشار يوسيفوس (المؤرخ الوحيد للحادثة) أن هؤلاء كانوا مجرمين وقطاع طرق، وهم من جماعة السيكاري المتعصبة

يهودية التي ازدهرت في زمن ما أصبح يعرف لثورة الكبرى ضد الرومان (٦٦-٧٣م) ودعت ى ممارسة الإرهاب والاغتيالات، وارتكبت جزرة عين جدي ضد الفلسطينيين آنذاك، صفها يوسيفوس «إنها عصابة من القتلة كت في أعلى المسادة»[٢٢].

رغم وضوح النص التاريخي حول حقيقة جموعة التي هلكت في المسادة إلا أن قادة رائيل ومورخيها وكتاب صهاينة حولوا صة إلى دراما شعبية إسرائيلية عبر حرك باتجاهين: أركيولوجي وفولكلوري. غم فشل الإثباتات الحفرية وخبو الحماس علمي للقصة إلا أن الصهاينة واصلوا ماسهم الفولكلوري عبر العمل على استثمار صة المسادة وتحويلها إلى دراما شعبية ستقطب عواطف اليهود وغير اليهود من وي الإيمان التوراتي. فتحولت القصة إلى (أسطورة قومية) ترمز إلى (نهوض قومي يهودي) وتشبع نوعا من الشرعية التاريخية على وجود دولة إسرائيل، ما يولد قناعة لدى المستوطنين اليهود بأنهم أحفاد ماض مجيد، وأن استعادة هذا (الماضي المجيد) لا تتم إلا بتعزيز سيادة دولة إسرائيل وضمان استمرارها، وكرمز له هذا البعد تولد قصة المسادة إحساسا بالتناغم والتضامن بين المستوطنين القادمين من خلفيات حضارية متباعدة. وقد مارست الرواية الأسطورية التأثير على ملايين الإسرائيليين بمن فيهم شخصيات معروفة في النخبتين السياسية والعسكرية.

في تجربة شخصية لاكتشاف حقيقة المسادة أتيح لنحمان بن يهودا المؤرخ الإسرائيلي أن يكتشف أنه قد تم استغلاله وخداعه في نظام التربية الإسرائيلي وفي الجيش وفي منظومة معرفية متكاملة حيث يقول إنه حصل عن المسادة على معرفة «لم تكن خاطئة وحسب،



بل كانت شديدة التحيز أيضاً»[٢٣]. حيث «لم تكن المسادة مجرد حكاية تروى بل زودت هوية جيلي من اليهود الإسرائيليين بعنصر هام من عناصر تعريف هويتنا اليهودية والإسرائيلية».

ويشير بن يهودا هنا إلى منظومة المعتقدات الهامة التي تم تسريبها له ولمئات الآلاف غيره واتضح إنها قائمة على سلسلة من الغش والمزاعم المغرضة والمزيفة أيضاً، هذه المنظومة لا تشكل بناء بالغ الأهمية لتطوير عقول الشباب فحسب بل تشكل حجر الأساس لشعب برمته.

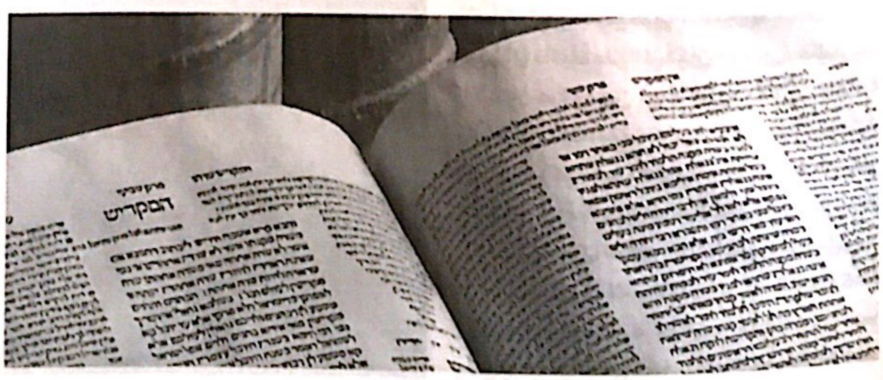
ولقد شكك الكثير من العلماء ليس في صحة النسخة الصهيونية من الرواية فقط بل في صحة رواية يوسيفوس الأصلية، وأبرز هؤلاء عالم الآثار اليهودية شعيا كوهين الذي أشار إلى أنه شخصيا عثر على ست عشرة رواية مشابهة لرواية يوسيفوس ترجع إلى حضارات مختلفة وتنتمي إلى نفس العصر الذي عايشه المؤرخ. و الأسلوب الملحمي الذي استخدمه يوسيفوس كان هو الغالب في تلك الفترة[٢٤] ناهيك عن أن يوسيفوس شخصيا لم يكن شخصا جديرا بالثقة.

وكان برنارد لويس أحد أوائل الباحثين منذ ١٩٧٥ الذين اتخذوا موقفا صارما من رواية المسادة، وهو بانتمائه إلى المنظور الاستدلالي الاجتماعي في تفسير الذاكرة الجمعية يؤكد أن الرواية الحديثة للمسادة تشكل إحدى الحالات في ما يدعوه «التاريخ المختلق». بدورها قدمت شارغل عام ١٩٧٩ ما يمكن اعتباره أول محاولة تفصيلية لفهم الرواية الأسطورة للمسادة كأسطورة سياسية تقوم على حدث تاريخي محدد ثم تستخدم التحليل الوظيفي حسب كتابات دوركهايم ومالينوفسكي للقول أن أسطورة المسادة لعبت دورا حاسما في المجتمع الإسرائيلي كوسيلة لتحقيق الشرعية الاجتماعية والدمج في المقام الأول. حيث أن التماهي مع المسادة يؤكد ادعاء اليهود بالشرعية على هذه الأرض حسب أطروحة برونر وغورفين (١٩٨٤) التي تفيد أن أسطورة المسادة مثلت غلافا خارجيا للأيدولوجيا كما أسهمت في خلق الانضباط الاجتماعي وبلورة الهوية الفردية والقومية وبلورة صلة روحية قوية مع يهود اعتبرهم الإسرائيليون محاربين شجعان قبل ألفي عام مما منحهم الإحساس بالاستمرارية والتواصل مع الماضي البعيد ومع الأعمال السامية البطولية.

وفي كتاب صادر عام ١٩٩٢ طرحت أنيتا شابيرا فرضية أساسها القول أن استعانة الصهيونية العلمانية بقصة المسادة وتوظيفها كان المقصود منه إضفاء الشرعية على استخدام العنف[٢٥].

ولعل ذلك يتجلى في أن النوازع اللاواعية لدى قادة إسرائيل تكشف عن أزمة مع الذات وتشير إلى نزوع نحو انتحار جماعي. حيث تأخذ الأسطورة طابع (قوة محركة) تدفع قادة إسرائيل نحو تحقيق تماثل بين مصير أبطال الأسطورة ومصيرهم.

وفي سبيل هذا التماثل يعيش هؤلاء القادة في حالة هوس للربط بين واقع خيالي ماض وواقع حالي لا بد من جعله بطوليا. وكان الصحافي الأمريكي ستيوارت ألسوب في النيوزويك إبان السبعينيات أول من لاحظ



نزوع قادة إسرائيل في مسلكهم السياسي والدبلوماسي نحو محاكاة الحالة الانتحارية الماثلة في قصة المسادة. جاء ذلك في معرض تعليقه على مواقفهم المتشددة أثناء المفاوضات مع مصر أواسط السبعينيات. وقد ردت غولدا ماتي على ذلك الصحفي في مؤتمر صحفي أثناء زيارتها لواشنطن فقالت «نعم يا سيد ألسوب نحن عندنا عقدة المسادة، وعقدة الهولوكوست وعقدة أفران الغاز»[٢٦].

فرادة الضحية:

تعتبر فكرة الضحية مسألة حاسمة في تمثيل الواقع اليهودي والهوية اليهودية من زاوية مشروع التحرير الصهيوني[٢٧] «الذي استند بحزم إلى أسطورة ضرورة تخليص اليهود من منفاهم ومن عذاب المنفى عبر جمعهم في أرض الميعاد، أصبح كل مطلع يعرف زيف هذه الأساطير ولكن تحليلها باستمرار يبقى ضروريا لكشف وقاحة الصهيونية وزيفها في سبيل دحضها النهائي.

ورغم ولع مؤرخي الصهيونية وأنصارها برواية تاريخ اليهود كضحايا أبديين لكراهية دائمة وشاملة، إلا أن فكرة أنه بالإمكان رواية تاريخ ضحايا آخرين، بل وأن جزءا منهم هم ضحايا «القومية» اليهودية، تثير معارضة عنيفة. ففي حالة المؤرخين الليبراليين تصيبهم مثل هذه الطروحات بعمى أبستمولوجي والى بلبلة فكرية، وتنكشف عندها عدميتهم ولا عقلانيتهم ومفارقة طروحاتهم للمنهج العلمي، وهكذا ينكشف الخطاب الصهيوني، وما يلحق به عن أعراض عدم الراحة من مجرد فكرة أن اليهود أنفسهم أنتجوا ضحايا، والتفسير السائد للتاريخ لا يفسح مجالا للحديث عن اليهود كمضطهدين جماعيين على امتداد سنوات التاريخ الصهيوني منطلقا من أن اليهودي واستمراره الإسرائيلي هو ضحية فقط.

الهولوكوست: فرادة الضحية وضعف المنفى

تعتبر دراسة (الهولوكوست) فرصة لإلقاء الضوء على حالة فريدة من سياق مختلط شديد التعقيد من عوامل سيكولوجية وسياسية واقتصادية في إطار أيدلوجي تضليلي نادر!!

تشير القصة الرسمية الإسرائيلية إلى أن «الكارثة» (بالعبرية شوأة) هي الفظائع التي حلت بالشعب اليهودي إبان الحكم النازي في أوربا في الفترة من ٣٠ كانون ثاني ١٩٣٣ عندما أصبح هتلر مستشارا لألمانيا وحتى ٨ مايو أيار ١٩٤٥ (يوم النصر) عندما انتهت الحرب في أوربا.

و بغض النظر عن حقيقة الهولوكوست التي ليست موضوع هذا البحث، ولكن المهم هنا هو الطريقة التي تم خلالها استبطان الهولوكوست كمركب داخلي وعنصر أساسي في الشخصية اليهودية الحديثة. وإظهار كيف انه (وكما في موضوع المسادة) تم تصوير المحرقة من قبل الصهيونية بشكل أيدلوجي ينطبق عليه ما قاله جون ستيوارت مل منذ زمن بعيد عن أن «الحقائق التي لا توضع موضع التحدي المستمر ستتوقف في نهاية المطاف، عن أن تمتلك وقع الحقيقة، لأن تلك الحقائق ضخمت حتى غدت باطلا»[٢٨].

ولم تستخدم حكاية الإبادة النازية لليهود لتبرير السياسات الإجرامية لدولة إسرائيل كما يذهب فنكلشتاين[٢٩] فحسب، بل أيضا لإعادة صياغة الهوية اليهودية وتشغيل ماكينة بوتقة الصهر المروعة، التي لا تقل بشاعة في الحقيقة - وان رمزيا - عن (غرف الغاز) الهتلرية، وقد يبدو هذا حكما أخلاقيا لا يليق بدراسة تتوخى العلم منهجا، غير أن دراسة تاريخ الجماعات اليهودية المهاجرة إلى إسرائيل وخصوصا اليهود الشرقيين، وعمليات محو ذاكرتهم وتاريخهم وإعادة إنتاجهم كأجزاء من آلة الصهيونية التي لا ترحم تثبت هذا الحكم الذي ذهبنا إليه[٣٠].

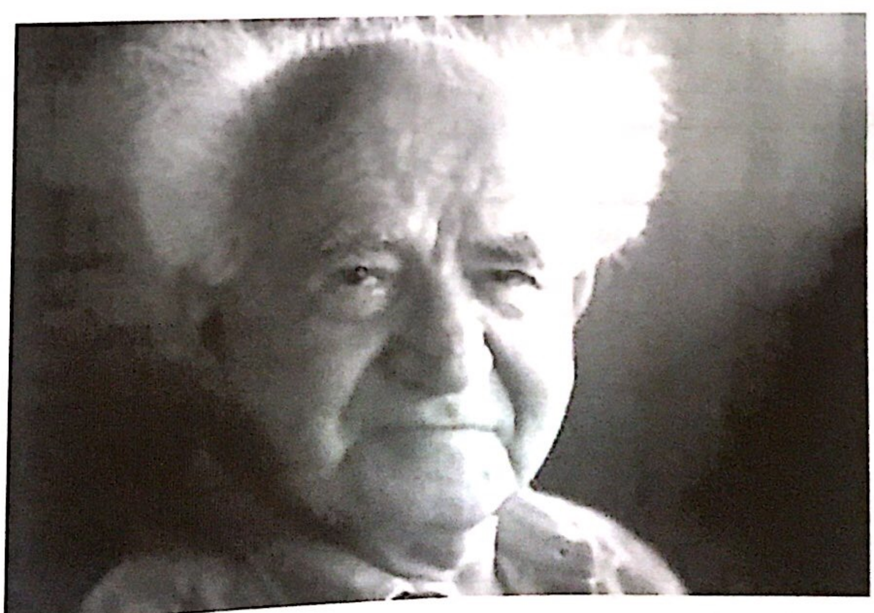
هكذا أصبحت «ذكرى الإبادة النازية بعد أن مررت من خلال موشور أيدلوجي أداة فعالة في يد القيادة الإسرائيلية واليهود في الخارج»[٣١].

وقد لاحظ الكاتب الإسرائيلي المعروف يواس ايفرون أن «الوعي بالهولوكوست»هو في الواقع «عملية تلقين دعائية رسمية، تمخض عنها شعارات وتصورات زائفة عن العالم، وليس هدفها فهم الماضي على الإطلاق بل التلاعب بالحاضر».

وقد صيغ الهيكل الأيدلوجي للهولوكوست على ما يذهب فنكلشتاين على مذهبين جامدين (دوغماوين) مركزيين، الأول: أن الهولوكوست تشكل حدثا تاريخيا فريدا بصورة مطلقة في تأكيد على (الفرادة) والثاني أن الهولوكوست تشكل ذروة كراهية أبدية لا عقلانية يكنها الأغيار لليهود.

وهنا بالضبط يأتي القبول الصهيوني بمصطلح (الهولوكوست) تعبيراً عن عملية (إبادة اليهود) من قبل النازيين حيث أن في هذا القبول تأكيد على المذهبين الآنفين، فالنازيون الأغيار عبروا عن ذروة الكراهية اللاعقلانية لليهود (لا سامية مطلقة) من جهة، واختيار اليهود (كضحية) للإبادة النازية تعبر عن فرادة اليهود الذين حرقوا لأنهم أكثر الشعوب قداسة (قربان مقدس بل الأكثر قدسية).

وهنا يبرز الاستقطاب العنيف للهولوكوست في البنية الذهنية لليهود المعاد اختراعهم صهيونيا، ما يعني تمجيداً للكارثة واحتفالاً بها



ـبير عن الفرادة، وكنتيجة للفرادة من جهة ا بين رفض لها لما تمثله من ذكرى اليهودي ضعيف في المنفى، المساق إلى الذبح بدون اومة وما يتعارض به هذا المفهوم مع فكرة بري الجديد الرائد الاستيطاني المحارب، ان أيخمان النازي الشهير في محاكمته كثر شهرة بعد اختطافه إلى (إسرائيل) أثار الكثير من الدهشة عندما صرح بأن وك الضحايا اليهود كان مدهشا حين لاقوا فهم بدون مقاومة، وفي النقاشات اللاحقة ظر الجيل الجديد من أبناء الاستيطان صهيوني إلى هذا السلوك باعتباره سلوكا موذجيا ليهودي الجيتو الضعيف (الذي يجب ستئصاله) مقابل العبراني الجديد القوي.

الاستقطاب العنيف يبرز في معادلة مستحيلة إذ كيف يمكن استئصال هذه الشخصية، وفي الآن ذاته استمرار تحويل الهولوكوست إلى هوية لمواطن الدولة اليهودية ولدولة في حد ذاتها؟

في الحقيقة فان فكرتي الفرادة وكراهية الأغيار لليهود، رغم كونهما واسطتي العقد في أدبيات (الهولوكوست) إلا أن أياً منهما لم تبرز على الإطلاق في الأبحاث الأكاديمية الحقيقية حول الهولوكوست النازية.

والادعاء بفرادة الهولوكوست هو جزء من المنظومة المخترعة المتكاملة حول (شعب الله المختار) و (الشعب الكاهن) إذ ليست معاناة اليهود هي ما جعل الهولوكوست فريدة بل كون اليهود، واليهود تحديداً، هم من عانوا، بمعنى آخر الهولوكوست مميزة لأن اليهود مميزون وليس العكس. وهذا ما ينزع الأهمية عن أي حادثة مشابهة أو أكثر فظاعة عانت منها مجموعة بشرية أخرى على مر التاريخ.

وقد عبر ايزمار شورش رئيس المعهد اللاهوتي اليهودي بسخرية لاذعة عن ادعاءات فرادة الهولوكوست بوصفها بأنها «نسخة علمانية بغيضة عن فكرة الاصطفاء (الشعب المختار)»[٣٢].

ومن المعروف أن الحركة الصهيونية في سعيها للاستيلاء على فلسطين استخدمت إلى جانب القوة المادية الغاشمة أدوات فكرية مزدوجة ذات طابع ديني وعلماني يعبر الخلط الانتقائي فيما بينها عن طبيعة تفكير فاشي صريح، فإلى جانب فكرة أرض الميعاد ووعود (يهوا) الغامضة، المفتقدة لأي حس أخلاقي، أو ملمح للعدالة المتوقعة من (إله)، استغلت أيضا مذهبية الهولوكوست الجامدة القائلة بكراهية الأغيار الأبدية لليهود لتبرر ضرورة وجود دولة يهودية، ولتفسير العداء الموجه لإسرائيل. حيث وبمقتضى هذه المنظومة من الأفكار تصبح «الدولة اليهودية هي الملجأ الوحيد أمام التفجر الآني و (المحتوم) للاسامية الإجرامية، ويعلق فنكلشتاين ساخرا على هذه الدعاوى «إذا كان العالم بأجمعه يريد اليهود أمواتاً، فالعجيب في الحقيقة هو أنهم ما يزالون أحياء، بل هم على عكس قسم كبير من البشرية لا يتضورون جوعا»[٣٣].

واستخدمت هذه الدعاوى كما ذكرنا لتبرير العدوانية الصهيونية المستمرة، عبر منح تعويض كامل لإسرائيل فإذا كان الأغيار عازمين كحالهم أبداً على قتل اليهود، فلهؤلاء الأخيرون كل الحق في حماية أنفسهم وبالطريقة التي يرونها (في أعقاب الاعتداءات الإسرائيلية المروعة على لبنان في العام ١٩٩٦ والتي بلغت ذروتها بالمذبحة التي ذهب ضحيتها مئة من المدنيين في قانا، لاحظ الكاتب الصحفي الإسرائيلي آري شافيت أن بإمكان إسرائيل التصرف متمتعة بالحصانة، «لأن لدينا اللجنة المعادية للتشهير ومتحف ياد فاشيم ومتحف الهولوكوست»)[٣٤].

عقدة المحاصر

ترتبط عقدة الهولوكوست وفرادة الضحية بوثوق بعقلية الحصار، وقد كتب شاريت في يومياته[٣٥] عن لجوء المؤسسة السياسية - العسكرية في إسرائيل إلى خلق عقلية الحصار بين المستوطنين ورفد خرافة التهديد العربي بإبادتهم وبالتالي تبرر العنف والعدوان «كنت أتأمل في السلسلة الطويلة من الأحداث المفبركة والأعمال العدائية ضدنا التي اخترعناها والكثير من الصدامات التي افتعلناها، والتي كلفتنا الكثير من الدماء، وفي خروقات القانون الدولي التي قام بها رجالنا وكلها جلبت مصائب خطيرة، بالمحصلة حددت مجرى الأحداث كلها وأسهمت في خلق أزمة الأمن،هذا ما أدخل الاستيطانية الصهيونية في حلقة مفرغة من عقلية الحصار التي تغذي الدوران والعدوان الذي يعمق عقلية الحصار، ووصف موشيه دايان عقلية الحصار هذه بأنها «الحلف الحيوي لنا الذي يساعدنا على الاحتفاظ بدرجة عالية من التوتر بين سكان إسرائيل، كما داخل الجيش ومن أجل تحفيز الشباب للذهاب إلى النقب، علينا أن نصرح بأنه في خطر».

عقلية الحصار هذه تخلق ما يسميه جورج أورويل في روايته (١٩٨٤) عناصر بنية ثقافة الخوف باعتبارها البنية المؤسسة على التفكير المزدوج وهي تقوم على أن تعرف وأن لا تعرف، أن تعي حقيقة صادقة كل الصدق، وترى بدلا منها كذبات موضوعة بعناية، أن يكون لديك في اللحظة نفسها وجهتا نظر متباينتان وأن تعتقد وتؤمن بكلتيهما وأن تستخدم المنطق ضد المنطق وتنكر الفناء وادعاءه، وتؤمن أن الديمقراطية غير ممكنة وفي نفس الوقت تدعي أنك حاميها[٣٦].

ولتعزيز عقلية الحصار تلجأ الفاشية الصهيونية إلى طرق عدة نكتفي بنموذجين واضحين في مجالي الجيش والإعلام. فعندما تقرر وزارة المالية القطع من ميزانية الأمن لا تمر أيام حتى يبدأ جنرالات الجيش من مختلف الأفرع بالنواح والادعاء أن «الأمن سيتأذى وأننا على أبواب حرب»[٣٧] وتتمة الاسطوانة «سنقلص الأنشطة العسكرية إذا ما قلصتم الميزانية وسنتوقف عن التزود بأي عتاد جديد، أما الإعلام الصهيوني فمهمته حماية المجتمع من أي معرفة للسياق الذي ينتج المآسي الفلسطينية فلا يوجد ذكر للاحتلال والإهانات وعمليات الاغتيال والاعتقال الجماعي وهدم البيوت والمجاعة التي ولدت الهجمات الانتحارية[٣٨] وهكذا حين يكون العقل العام مغلقا بحذر شديد فإنه ليس من الغرابة بمكان أن يتم قبول السياج دون شروط من قبل معظم الإسرائيليين لأنه له معادلة سحرية، هذا الجدار لذي يزيد الإحساس الهائل بالعزلة ويعزز عقلية الحصار التي غذت السياسات العدائية المتصلبة لجميع حكومات إسرائيل.

تلك المحرمات ترهنها الفاشية لصالحها بعد أن تجعل من نفسها الحارسة لها والمدافعة عنها ومن خلالها وباسمها تفرض سلطتها وتمارسها، وقد لا تكتفي بالموروث من المحرمات، بل تبتكر في الغالب محرمات جديدة أخرى مضافة وخاصة بها في لحظة تاريخية معينة وتجعل منها بمرور الوقت وبالاستثمار قوة قمع ورعب وسيطرة.

(نعتذر عن ادراج الهوامش بسبب طولها ويمكن الاطلاع عليها على موقع المجلة على شبكة الانترنت).

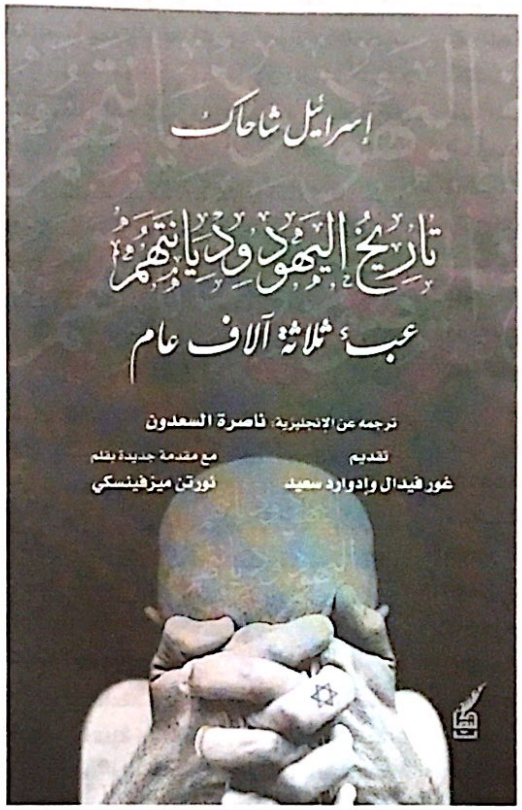
تاريخ اليهود وديانتهم عبء ثلاثة آلاف عام

في كتابه الأكثر شهرة، يقدم أستاذ الكيمياء الحيوية الراحل إسرائيل شاحاك، إضافة جديدة وهامة وأساسية على النقد الموجه للصهيونية واليهودية الأسطورية، واضعاً كما يقول كريستوفر هيتشنز «كل تاريخ المعتقدات التقليدية تحت مجهر نقد مشكك صاخب» في تمحيص ثاقب للدين والتاريخ اليهودي، محللاً بعين الناقد الخبير، المنهجي والعقلاني المتنور سلوك الدين اليهودي إزاء غير اليهود وكيف تمثلت الصهيونية هذا السلوك ليتماهى في أفعالها وأقوالها.

وقد رافق صدور الكتاب سيل لا ينتهي من التعليقات والدراسات المترابطة، ويأتي صدورطبعة عربية جديدة منه، مناسبة لتسليط الضوء من جديد على القضايا المركزية التي يتناولها، وفي هذا السياق تنشر (الهدف) المقدمات المتميزة للكتاب والتي كتبها كل من غور فيدال، وادوارد سعيد، ونورتن ميزفينسكي، وقد اكتفينا بعنونة المقالات بأسماء كتابها دون الحاجة لإضافة عناوين جديدة.

تبقى الاشارة إلى أن الطبعة الجديدة للكتاب بعنوان (تاريخ اليهود وديانتهم-عبء ثلاثة آلاف عام) قد صدرت مؤخراً عن دار كنعان، بترجمة جديدة عن الانكليزية لناصرة السعدون..

أ. ج



غور فيدال

في وقت ما خلال الخمسينيات، أخبرني المؤرخ المعروف على نطاق عالمي بنشر الوقائع المثيرة، جون أف كندي، كيف أنه في ١٩٤٨ تعرض هاري أس. ترومان إلى هجران الجميع حين تقدم للترشح للرئاسة. حينذاك قدمت له الصهيونية الأمريكية مليوني دولار نقداً في حقيبة يدوية، إلى قطار حملته الانتخابية. «لهذا السبب سارع إلى التمرير السريع لقرار الاعتراف بإسرائيل». وبالنظر لأني وجاك لم نكن من معادي السامية (على العكس من والده وجدي) اعتبرنا الأمر من باب الحكايات الهزلية عن ترومان والفساد المستشري في المحيط السياسي الأمريكي.

لسوء الحظ، كانت نتيجة الاعتراف المتسرع بإسرائيل كدولة، هو خمسة وأربعون عاماً من الاضطراب القاتل، وتدمير ما تصور الرحالة الصهاينة أنه سيكون دولة تعددية . تكون موطناً لسكانها الأصليين من المسلمين والمسيحيين واليهود، فضلاً عن كونها مستقبلاً موطناً للمهاجرين المسالمين من يهود أوربا وأمريكا، حتى أولئك المتأثرين بالاعتقاد أن الوسيط الإلهي في السماء قد وهب لهم ملكاً أبدياً، أرض يهودا والسامرة. فالأغلبية من المهاجرين كانوا من الاشتراكيين الطيبين في أوربا، لذلك افترضنا أنهم لن يسمحوا للدولة الجديدة أن تصبح دولة دينية، وأن بإمكان السكان الأصليين لفلسطين العيش معهم على قدم المساواة. كان هذا هو المتصور. لن أستعيد الحروب والذعر في هذا الإقليم التعس، لكني ساقول أن الخلق المتعجل لإسرائيل قد سمم الحياة السياسية والفكرية للولايات المتحدة، وهي الراعي لإسرائيل.

لم تتمكن أية أقلية أخرى طوال التاريخ الأمريكي أن تسطو على هذا الكم من الأموال من دافعي الضرائب الأمريكان لغرض استثمارها في «الوطن». كما لو أن دافع الضرائب الأمريكي مضطر لدعم البابا في دعوته لإقامة دولة بابوية، لأن ثلث شعبنا من الكاثوليك . ببساطة . لو جرت مثل هذه المحاولة، لقامت ضجة كبرى ولرفضها الكونغرس. لكن أقلية دينية تشكل أقل من اثنين بالمئة قد اشترت أو ابتزت سبعين عضواً من مجلس الشيوخ (الأغلبية الضرورية للتغلب على الفيتو الرئاسي غير المتوقع) وفي وقت تمتعوا فيه بدعم وسائل الإعلام.

بطريقة ما، إني أعجب بالطريقة التي تصرّف بها اللوبي الإسرائيلي في إدارة عمله للتأكد من أن بلايين الدولارات، وسنة بعد أخرى، تذهب إلى إسرائيل لتجعل منها «حصناً ضد الشيوعية». في واقع الحال، لم يكن للاتحاد السوفيتي ولا الشيوعية حضور في يوم ما في المنطقة. ما استطاعت أمريكا القيام به هو تحويل العالم العربي الذي كان صديقاً إلى معاد لنا. في هذه الأثناء، أصبح التضليل عما يحدث في الشرق الأوسط أكبر، والضحية الأساسية لهذه الأكاذيب السقيمة -دافع الضرائب الأمريكي من جهة- هو اليهودية الأمريكية، لأنها باستمرار ضحية ابتزاز إرهابيين محترفين مثل بيغن وشامير. ما هو أسوأ من ذلك، مع استثناءات معروفة، ترك المثقفون اليهود الأمريكان الليبرالية، نحو تحالفات مجنونة مع تيارات مسيحية (معادية

امية) في اليمين، ومع المجمع الصناعي تاغون. في ١٩٨٥، كتب أحدهم بوقاحة ليهود حين قدموا إلى المشهد الأمريكي دوا «الرأي العام الليبرالي والسياسيين برالبين أكثر تجانساً في نهجهم، وأكثر ساً للهموم اليهودية». أما الآن، فإن من لحة اليهودية التحالف مع الأصوليين وتستانت، لأنهم بعد كل شيء، «هل ثمة ة من تمسك اليهود، عقائدياً، ومصلحياً، هم التي مضت عليها سنوات طويلة؟» في المنعطف انشق اليسار الأمريكي وأولئك من انتقدوا حلفاء اليهود بالأمس بتهم صولية والضلال، سرعان ما قوبلوا لأوصاف المعتادة مثل «معاداة السامية» أو ليهود كارهي ذواتهم».

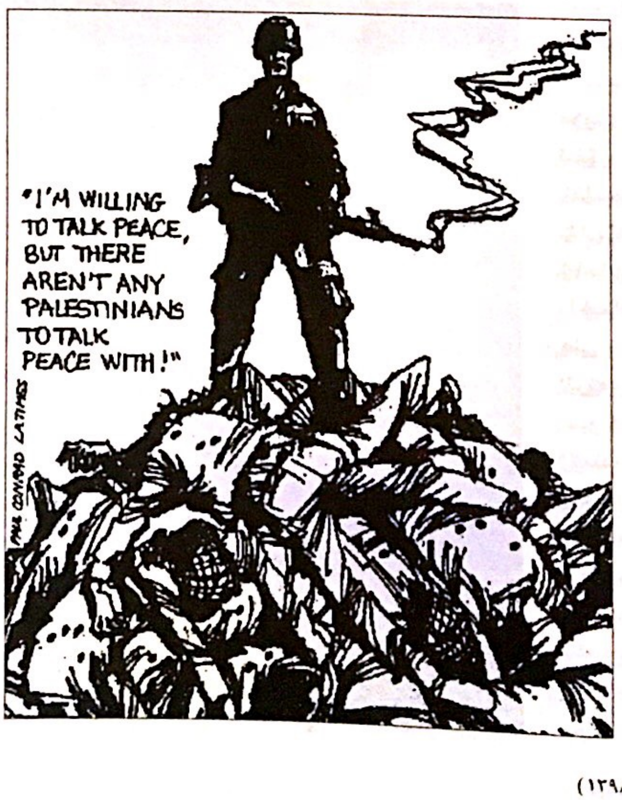
لحسن الحظ، ما يزال صوت العقل حياً وبخير، وفي إسرائيل، بالذات. فمن القدس، لم يتوقف إسرائيل شاحاك عن تحليل ليس فقط السياسات الكئيبة لإسرائيل اليوم، ولكن التلمود أيضاً، وتأثير تقاليد الكهانة على دولة صغيرة تسعى كهانة الجناح اليميني لتحويلها إلى دولة دينية تقتصر على اليهود فقط. داومتُ على قراءة شاحاك طوال سنوات. لديه عين هجاء لرؤية الإرباك في أي دين يحاول عقلنة ما هو غير عقلاني. ولديه حدةُ العالم لتشخيص التناقضات النصية. أنه متعة للقراءة حول د. ميمونيدس كارد غير اليهود.

ليس ثمة حاجة للقول أن السلطات الإسرائيلية تكره شاحاك. لكن ليس لديهم ما يمكن فعله مع أستاذ كيمياء متقاعد ولد في وارشو عام ١٩٣٣ وأمضى طفولته في معسكر اعتقال في بلزن Belsen. في ١٩٤٥ جاء إلى إسرائيل، وخدم في الجيش الإسرائيلي، لم يصبح ماركسياً في السنوات التي كانت الشيوعية فيها هي الموضة السائدة. كان وبقي إنسانياً يكره الإمبريالية، سواء كانت باسم رب إبراهيم أو جورج بوش. كما أنه، يعارض بشكل لبيب تعاليم الجانب الشمولي في اليهودية. ومثله مثل العالم الكبير توماس بين، يبين شاحاك المشهد أمامنا، فضلاً عن التاريخ الممتد وراءنا، وهكذا يواصل طروحاته، سنة بعد أخرى. من المؤكد أن من يسمع منه يكون أكثر حكمة -وهل أجرؤ على القول- أفضل حالاً؟ أنه آخر عظماء الأنبياء، وليس آخرهم.

إدوارد سعيد

الأستاذ إسرائيل شاحاك، الأستاذ الفخري للكيمياء الحيوية في الجامعة العبرية في القدس، هو واحد من أكثر الأشخاص أهمية في الشرق الأوسط المعاصر. التقيت به للمرة الأولى وبدأت بيننا مراسلات منتظمة منذ حوالي خمسة وعشرين عاماً، بُعيد حرب ١٩٦٧ ثم بعد حرب ١٩٧٣. ولد في بولندا، وظل على قيد الحياة بعد اعتقاله في معسكر اعتقال نازي، وقدم إلى فلسطين مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية. ومثل جميع الشباب الإسرائيلي آنذاك، خدم في الجيش، وظل طوال سنوات عديدة في الاحتياط العسكري لمدد قصيرة في كل صيف، مثلما يتطلب القانون الإسرائيلي. سيطر عليه ذكاء جبار لا يتوقف عن دفعه للبحث والتمحيص، واصل شاحاك حياته المهنية كمحاضر جامعي بارز وباحث في الكيمياء الحيوية - وكثيراً ما رشحه طلابه كأفضل أستاذ، ونال جوائز عدة عن أدائه الأكاديمي - في الوقت نفسه بدأ يرى ما تسببه الصهيونية وممارسات دولة إسرائيل من معاناة وحرمان ليس للفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة وحسب، ولكن للشعب الفلسطيني غير اليهودي (أي: الأقلية الفلسطينية) من الذين لم يهاجروا في عمليات الطرد التي جرت في ١٩٤٨، وظلوا في أرضهم ثم أصبحوا مواطنين إسرائيليين. هذا ما قاده للبحث المنهجي في طبيعة الدولة الإسرائيلية، تاريخها، خطابها الأيديولوجي والسياسي. وسرعان ما قاده ذلك لأن يكتشف، ما هو مجهول لغالبية غير الإسرائيليين، بخاصة يهود «الشتات»، الذين تمثل لهم إسرائيل دولةً ديمقراطيةً رائعةً، أشبه بالمعجزة، تستحق الدعم والدفاع عنها بشكل غير محدود.

ثم أعاد تشكيل الرابطة الإسرائيلية لحقوق الإنسان، وكان رئيساً لها لعدة سنوات، وهي جماعة صغيرة نسبياً من المتقاربين فكرياً، يعتقدون أن حقوق الإنسان هي فكرة يجب تطبيقها بمساواة بين الجميع، ولا تقتصر على اليهود وحسب. وضمن هذا الإطار بدأت أعي عمله. ما ميز الموقف السياسي لشاحاك عن غيره من الإسرائيليين وحمائم اليهود غير الإسرائيليين، أنه كان الوحيد الذي يصرح بالحقيقة من غير تزويق، ومن دون أن يعنيه أن هذه الحقيقة، إن جرى التعبير عنها صراحةً، قد لا تكون «في مصلحة» إسرائيل أو اليهود. تميز بمعاداة العنصرية بشكل يمكن وصفه بالشراسة والراديكالية، سواء في كتاباته أو تصريحاته العامة، ليس ثمة إلا معيار واحد لخرق حقوق الإنسان، لهذا لم يكن مهماً إن كان يهود إسرائيل هم من يهاجم الفلسطينيين في أغلب الأحيان، إذ كان عليه، بوصفه مثقفاً، أن يقدم شهادته ضد هذه الهجمات. ليس من المبالغة القول أنه التزم بصرامة بهذا الموقف لهذا سرعان ما أصبح من الشخصيات الأكثر لاشعبية في إسرائيل. أتذكر منذ حوالي خمسة عشر عاماً، صدر إعلان موته، بالرغم من أنه كان ما يزال حياً بالطبع، ونشرت نعيه صحيفة واشنطن بوست في تقرير تم نشره



بعد أن زار شاحاك شخصياً صحيفة واشنطن بوست ليثبت لهم أنه ليس ميتاً، كما أخبر أصدقاءه جدلاً، لكن ذلك لم يغير من موقف واشنطن بوست فلم تنشر تكذيبا للخبر قط! لهذا فهو لبعض الناس، ما يزال «ميتاً»، وهي أمنية خيالية تفضح إلى أي مدى يتسبب هذا الرجل في عدم ارتياح «أصدقاء إسرائيل».

ولابد من القول أيضاً إن أسلوب شاحاك في قول الحقيقة كان على الدوام يتسم بالدقة والصرامة والتصلب. ليس فيه أي إغراء، ولا محاولة لوصف الأمور «بلطف»، ولا يبذل جهداً لجعل الحقيقة أسهل قبولاً، أو تفسيراً. بالنسبة لشاحاك القتل جريمة، والجريمة هي القتل: أسلوبه هو التكرار، وإحداث الصدمة، وتحريك الكسالى أو غير المبالين لخلق الوعي بما يشبه الصدمة الكهربائية بالألم الإنساني الذي قد يكونوا مسؤولين عنه. قد يكون من الضروري الإشارة إلى أنه، في بعض الأحيان، أزعج شاحاك الناس وأغضبهم، لكن هذا الجزء من شخصيته هو بعضٌ من إحساسه بمهمته. فهو إلى جانب الأستاذ الراحل يهوشوا ليبوفيتش، وهو رجل كان معجباً به بعمق وكثيراً ما تعاون معه في عمله، فقد استخدم صفة «اليهودي-النازي» لوصف الأساليب التي يستخدمها الإسرائيليون لإخضاع الفلسطينيين واضطهادهم. مع ذلك لم يقل أو يكتب قط أي شيء لم يستكشفه بنفسه، ويشاهده بأم عينه، أو يتعرض له بشكل مباشر. الفرق بينه وبين غالبية غيره من الإسرائيليين هو أنه ربط بين الصهيونية واليهودية، والممارسات القهرية ضد «غير اليهود»، وبالطبع توصل إلى استنتاجاته بشأنها.

أغلب ما يكتبه كان لفضح الدعايات والأكاذيب وبيان حقيقتها. تتفرد إسرائيل في العالم كله بالأعذار التي يجري اختلاقها من أجلها: أما أن الصحفيين لا يرون أو لا يكتبون ما يعرفون أنه الحقيقة خشية وضعهم في القوائم السود أو الانتقام منهم. شخصيات سياسية وثقافية وفكرية، بخاصة في أوربا والولايات المتحدة، يبذلون جهداً فائقاً للكتابة عن إسرائيل وإغراقها بأعظم الأوصاف كرماً بين أمم الأرض، بالرغم من أن العديد منهم يدركون مدى الظلم الذي تمارسه هذه الدولة، لا يذكرون شيئاً عن هذه الأمور. النتيجة هي خلق ستارة من الدخان الأيديولوجي التي سعى لتبديدها شخص واحد هو إسرائيل شاحاك. ولكونه ضحية الهولوكوست وظل على قيد الحياة بعده، فهو يعرف معنى معاداة السامية. مع ذلك وعلى العكس من غالبية الآخرين، فهو لا يسمح باستغلال فظائع الهولوكوست من أجل التلاعب بالحقيقة، باسم الشعب اليهودي، لكي تمارسه إسرائيل ضد الفلسطينيين. بالنسبة له، المعاناة ليست ملكاً مقتصراً على مجموعة من الضحايا، بل يجب أن تكون، وهي نادراً ما تكون، أساساً لأنسنة الضحايا، بل يجب أن تلزمهم أن لا يتسببوا بمثل تلك المعاناة التي عانوها. حث شاحاك مواطنيه أن لا ينسوا أن التاريخ البشع لمعاداة السامية الذي عانوا بسببه لا يسمح لهم بفعل ما يرغبون بفعله، لا لسبب إلا معاناتهم. لا عجب إذن من انعدام شعبيته، إذ بسبب قوله مثل تلك الأمور، فقد تسبب شاحاك في إضعاف السند الأخلاقي للقوانين والممارسات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين.

ويذهب شاحاك إلى أبعد من ذلك. فهو علماني لا يتزحزح عن قناعته قدر تعلق الأمر بالتاريخ الإنساني. لا أعني بذلك القول أنه ضد الدين، بل هو ضد استخدام الدين لتفسير الأحداث، وتسويغ السياسات القاسية وغير العقلانية، والمبالغة في تعظيم مجموعة من «المؤمنين» على حساب غيرهم. كما أن ثمة دهشة مضافة هو أن شاحاك ليس من رجال اليسار. فهو في كثير من الجوانب من نقاد الماركسية، ويرجع بأفكاره إلى مبادئ الليبراليين الأوربيين من دعاة حرية الفكر، والمفكرين الشجعان أمثال فولتير وأورويل. ما يزيد من جعل شاحاك شخصاً هائلاً بين مؤيدي حقوق الفلسطينيين هو أنه لا يخضع للفكرة العاطفية القائلة أنه بسبب معاناة الفلسطينيين من الإسرائيليين فهذا يعذرهم في ارتكاب الحماقات. بل بالعكس: كثيراً ما وجه شاحاك نقده لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأخطائها، وجهلها واقع إسرائيل، وعدم قدرتها على الوقوف بحزم ضد إسرائيل، وتنازلاتها الرثة وعقيدتها في عبادة الشخصية، عموماً عدم كفاية جديتها. كما أنه تحدث بقوة ضد الانتقام «للشرف» بقتل النساء الفلسطينيات، فهو على الدوام مؤيد قوي لتحرير المرأة.

خلال الثمانينيات، حين شاع بين المثقفين الفلسطينيين وبعض مسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية التحدث صراحة عن «الحوار» مع الحمائم الإسرائيليين من جماعة السلام الآن، وحزب العمل وحزب ميريتز، لكن شاحاك كان يستثنى من ذلك على الدوام،





ب بسيط هو أن شاحاك كان على الدوام
قداً لمعسكر السلام الإسرائيلي بسبب
قف التسوية لديه، وممارساته المخجلة
لضغط على الفلسطينيين وليس على
كومة الإسرائيلية لكي تغير سياساتها،
م رغبتها في تحرير نفسها من مقيدات
ماية، إسرائيل بعدم توجيه أي نقد لها
ن غير اليهود. والسبب الآخر أنه لم
رجل سياسة في أي يوم من الأيام، بل هو
طة لا يؤمن بكل المواقف المزيفة والمواربات
يرغب بها من لديهم طموحات سياسية.
يكافح من أجل المساواة، الحقيقة، السلام
يقي والحوار مع الفلسطينيين، في حين
ى الحمائم الرسميون الإسرائيليون من
ل ترتيبات تجعل من الممكن التوصل إلى
سلام مثل الذي تم التوصل إليه في أوسلو،
لذي كان شاحاك من أوائل من أدانوه. لكوني فلسطينياً، طالما شعرت بالخجل من أولئك النشطاء الفلسطينيين التواقين للحوار سراً أو علناً مع حزب العمل أو ميريتز، لكنهم في الوقت نفسه يرفضون التعامل مع شاحاك. بالنسبة لهم فهو مفرط في الراديكالية، يبالغ في طروحاته، وهامشي فيما يتعلق بالسلطة الرسمية. وفي سرهم، أتصور أنهم يخشون أنه سيكثر من توجيه النقد للسياسات الفلسطينية. ومن المؤكد أنه يفعل ذلك.

إلى جانب نموذجه كمثقف لم يخن يوماً دعوته ولم يتساهل في قول الحقيقة كما يراها، قدم شاحاك خدمة جليلة طوال السنوات لأصدقائه ومؤيديه في الخارج. فقد تصرف على وفق فرضية صحيحة من أن الصحافة الإسرائيلية أكثر صدقاً وغزارة في المعلومات من الصحافة العربية والغربية، لهذا كان يبذل جهده في ترجمة آلاف المقالات من الصحافة العبرية، والتعليق عليها وإرسالها وتوزيعها. من شبه المستحيل المبالغة في تقدير هذه الخدمة. بالنسبة لي، كشخص يتحدث ويكتب عن فلسطين، ما كان بإمكاني القيام بما قمت به من دون أبحاث شاحاك، وبالطبع مثاله كباحث عن الحقيقة، والمعرفة والعدالة. الأمر بمثل هذه البساطة، لهذا فأنا مدين له بدين كبير من الامتنان. قام بهذا الجهد على حسابه الخاص في أكثر الأحيان، وعلى حساب وقته الخاص. الملاحظات التي أضافها والمقدمات التي كتبها على مختاراته الخاصة من الصحافة لا تقدر بثمن لما تتميز به من براعة في البحث، وما تزخر به من قوة، والصبر التعليمي غير المتناهي. وطوال هذا الوقت استمر شاحاك في بحوثه العلمية وعمله التدريسي، وليس لأي منهما أية علاقة مع كتاباته وترجماته الأخرى.

بطريقة ما استطاع توفير الوقت اللازم لكي يكون الشخص الأوسع معرفةً من بين من عرفت. سعة نطاق معرفته بالموسيقا، الأدب، علم الاجتماع، وقبل كل شيء التاريخ -أوربا، آسيا وغيرها- لا يوازيها شيء حسب تجربتي. لكنه فوق كل شيء كونه عالماً باليهودية يشمخ على العديد غيره، فاليهودية هي التي شغلت طاقاته كباحث وناشط سياسي منذ البداية. بدأ منذ بضع سنوات يوشي ترجماته بالتقارير، سرعان ما أصبحت تقارير شهرية تحتوي على آلاف الكلمات حول موضوع واحد -مثلاً، الخلفية الكهنوتية الحقيقية لاغتيال رابين، أو لماذا يجب على إسرائيل أن تسعى للسلم مع سوريا (ما يثير العجب هو كون سوريا الدولة العربية الوحيدة التي تستطيع بالفعل إيذاء إسرائيل عسكرياً)، وغيرها. تلك خلاصات لا تقدر بثمن للصحافة، فضلاً عما تتميز به من الفطنة الفذة، وتوحي بتحليلات للاتجاهات والقضايا الراهنة، التي هي غالباً غائبة أو لا ترد بشأنها تقارير في الصحافة المهيمنة.

طالما عرفت شاحاك مؤرخاً بارزاً، ومفكراً ألمعياً، أستاذاً موسوعياً، وناشطاً سياسياً، ولكن كما سبق أن ذكرت آنفاً، أدركت أن «هوايته» الجوهرية كانت على الدوام دراسة اليهودية، والتقاليد الكهنوتية والتلمودية، وتفوقه العلمي في هذا المجال. لهذا فهذا الكتاب مساهمة قوية لهذه القضايا. أنه لا يقل عن كونه تاريخاً بليغاً لليهودية «الكلاسيكية»، فضلاً عن اليهودية الراهنة، لكونها تطبق لفهم إسرائيل المعاصرة. يوضح شاحاك أن الوصفات الشوفينية الضيقة ضد الآخر غير المرغوب به والموجودة في اليهودية (وبالطبع في غيرها من التقاليد في الأديان السماوية الأخرى) لكنه يواصل الطريق ليبين استمرارية هذه التقاليد والطريقة التي تعامل بها إسرائيل الفلسطينيين والمسيحيين وغيرهم من غير

اليهود. فتبرز صورة مدمرة للظلم، والتعصب الديني. ما هو مهم فيها هو أن الوصف الذي يضفيه شاحاك يضفي على الكذبة في أسطورة ديمقراطية إسرائيل، والتي تشيع في وسائل الإعلام العربية. بل أنها تدين في الوقت نفسه الحكام والمثقفين العرب لجهلهم المخزي عن هذه الدولة، بخاصة حين يعظمون أمام شعوبهم أن إسرائيل قد تغيرت بالفعل وهي الآن تريد السلام مع الفلسطينيين وغيرهم من العرب.

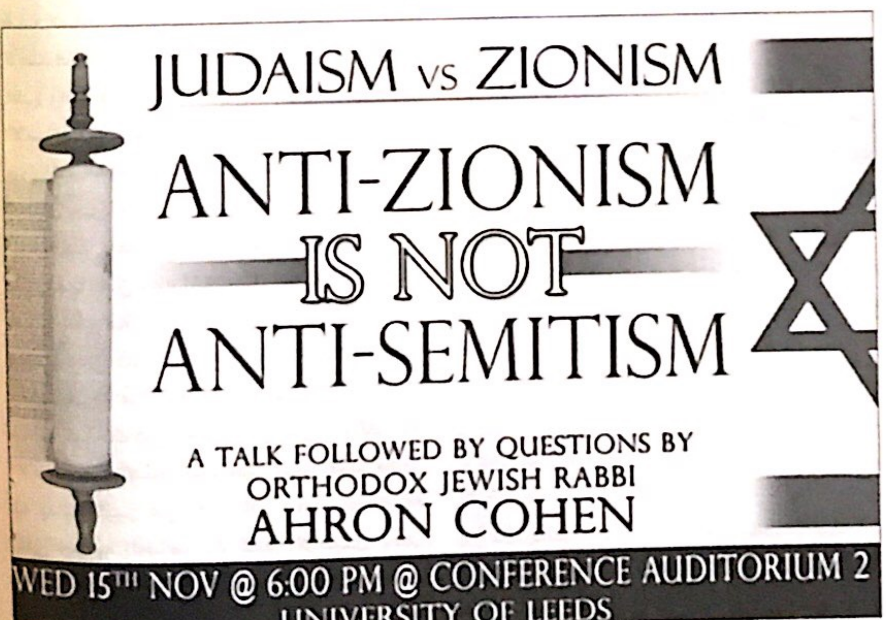
شاحاك رجل خارق الشجاعة ينبغي تبجيله لخدماته للإنسانية. ولكن في عالم اليوم، فإن نموذج العمل الدؤوب، والطاقة الأخلاقية التي لا تكل، والفطنة الثقافية التي يمثلها إنما تمثل حرجاً للوضع القائم. ولكل من تعني كلمة «مثير للجدل» معنى «غير مرحب به» و«مثير للاضطراب». مع ذلك، فإني على يقين، من أن ما يقوله في كتاب «تاريخ اليهود وديانتهم» سوف يكون مصدراً لعدم ارتياح قرائه العرب أيضاً. إني متأكد أنه سيقول أنه سعيد بذلك.

نورتن ميزيفينسكي

في مقدمته للطبعة الأولى لكتاب تاريخ اليهود وديانتهم: عبء ثلاثة آلاف عام، أشار غور فيدال إلى إسرائيل شاحاك بوصفه «آخر الأنبياء العظام، إن لم يكن أخيرهم». من المؤكد أن هذا الكتاب المهم، الذي حظي بإطراء البعض، وأدانه بقوة البعض الآخر، هو كتاب مثير للجدل، يتوافق مع الصنف التنبوي. هذا ليس كتاباً يسعد التبريريين اليهود. بل هو أقرب لأن يكون نقداً مراً لليهودية الكلاسيكية الكهنوتية، والطبيعة الصهيونية لدولة إسرائيل، كتبه يهودي فخور، واسع المعرفة، وشجاع، يحب التقاليد التنبوية في اليهودية والجوانب الإيجابية للتاريخ اليهودي. إسرائيل شاحاك، الذي مات فجأة في القدس يوم ٣ تموز ٢٠٠١، كان عميق الجذور ويمثل أفضل سمات المجتمع اليهودي-الإسرائيلي المعاصر. كان يؤمن أن اليهود وغيرهم، بحاجة إلى فهم الجوانب السلبية لماضيهم والالتزام بنقدها، لئلا يدانون بتكرار ارتكاب الخطايا ضد الإنسانية. بطريقة صاخبة، موجزة، علمية وعقلانية لهذا النبي المعاصر، وأحد مريدي سبينوزا، في نقده التفصيلي. بهذا العمل، ركز بشكل رئيس على ضيق الأفق والعنصرية والكراهية الموجهة لغير اليهود التي تواصل إصابة اليهودية الكلاسيكية وكثير من المجتمع اليهودي منذ العصر التلمودي حتى العصر الراهن. في كتابته لهذا الكتاب، عمد إسرائيل شاحاك إلى البحث والتأمل الذي يعود إلى ما لا يقل عن أربعة عقود، وأضاف له تبصراً جديداً. وكما في كتاباته الأخرى، فهو يوجه الكثير من غضبه ضد العلماء اليهود الذين حاولوا ممارسة المنع والمراقبة وإغفال التحدث عن الجوانب السلبية بهدف اقتصار العرض على اليهودية الطيبة وتاريخ طيبة اليهود. في التعليق على هذا الكتاب، كتب نعوم تشومسكي: «شاحاك عالم بارز لديه بصيرة نفاذة وبعد نظر ثاقب وعمق في المعرفة. عمله إضافةٌ معرفيةٌ، ويتسم بالذكاء الخارق، وهو مساهمة لها قيمة لا تقدر بثمن».

بعيد نشر الطبعة الأولى من الكتاب بدأ بعض الأشخاص من معادي السامية ومجموعات معادية للسامية باستغلال نقد شاحاك في محاولة تسويغ كراهيتهم لليهود. واستمروا في هذا من خلال اقتباس و/أو استخدام بعض نقاط شاحاك خارج سياقها. لقد زعموا أن ما كتبه شاحاك يؤكد تعميماتهم حول «الطبيعة الشريرة» لليهود. وهذا ليس مفاجئاً. إذ عادة ما يستخدم مثل هؤلاء الأشخاص والجماعات الأسلوب نفسه حين يستخدمون تصريحات لبعض الأشخاص الذين يحملون فكراً مغايراً في العادة.

ولسوء الحظ أن بعض النقاد من يهود «الشتات»، ومن ضمنهم بعض الأكاديميين، قد هاجموا شاحاك وكتابه بطريقة شريرة، ومؤذية، واتهموه بمعاداة السامية. بفعلهم هذا، فهم غالباً لم يحاولوا دحض طروحاته الأساسية بشكل علمي ومحدد. بل اقتصروا على القول ببساطة، أو الإيحاء أنه لم يقل الحقيقة. لقد وبخوه لعدم تقديمه طروحات إيجابية عن اليهودية واليهود، وهاجموه باتهامه أنه يقدم الذخيرة لغيره من معادي السامية. قبيل موته، كان مما يسعد شاحاك أن يرد على هذه الهجمات ويفندها بما لديه من تفوق وسعة المعرفة. بالمقابل فإن بعض أفضل عروض الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد كتبها علماء وكتاب إسرائيليون يهود، أيد بعضهم شاحاك حول بعض النقاط، ومع ذلك، فإنهم على العموم امتدحوه بشكل متوازن وأكدوا على أهمية الكتاب. مثلاً، باروخ كيمرلينغ، أستاذ في الجامعة العبرية في القدس وأحد أبرز علماء الاجتماع في إسرائيل كتب في عرضه الذي نشرته مجلة دراسات فلسطينية: «بالرغم من بعض تحفظاتي، إلا أن كتاب شاحاك عظيم الأهمية، بخاصة ضمن سياق دولية ثقافة العسكرة (kulturkampf) بين بعض العناصر المتنوعة من الشعب اليهودي في إسرائيل والشتات».

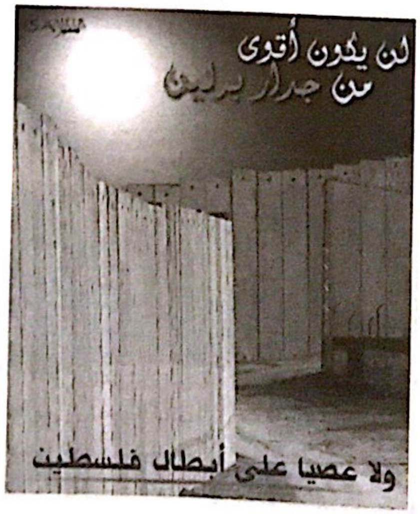




لا يمكن فهم إسرائيل شاحاك بعمق إلا على أساس كونه نتاج المجتمع الإسرائيلي. جاء شاحاك إلى فلسطين في ١٩٤٥ مع أمه بعد تحريره من معسكر الاعتقال النازي بيرغن. بلسن بعد أن مر بتجربة فظائع الهولوكوست ومشاهدتها. كونه يهودي شاب من بولندا ظل على قيد الحياة بعد معسكر الاعتقال والاضطهاد النازي، سرعان ما شعر بالألفة في بيئته الدينية اليهودية الضيقة في جزء من فلسطين التي هاجر إليها. منذ وصوله حتى وفاته لم يخطر بباله قط أن يعيش في أي مكان آخر. فالقدس هي المدينة التي يعشق أكثر من أي مكان آخر. تخليه عن الإيمان بالدين الذي تربى عليه، واعتناقه العلمانية ثم ثورته اللاحقة ضد الصهيونية لم تدفعه إلى الرفض التام للمجتمع اليهودي-الإسرائيلي، إذ كان يعشق بعض جوانبه، أو الدولة التي هو مواطن فيها. لم يبعده عن الالتزام النشط في المجتمع الإسرائيلي-اليهودي أو من مواصلة دراسته المعمقة للتاريخ اليهودي، قراره أن يصبح عالماً والتعليم اللازم لذلك، ولا عمله كباحث كيميائي وكأستاذ مدرس للكيمياء في الجامعة العبرية لخمسة وعشرين عاماً. كونه إنسانياً ملتزماً أخلاقياً إلى حد متميز، جعل من شاحاك مواطناً عالمياً. فضلا عن كونه يهودياً إسرائيلياً له جذور عميقة في البلد التي كان يحبها بعمق وينتقدها بشراسة.

إعادة نشر كتاب تاريخ اليهود وديانتهم، هو تكريم مناسب لهذا الإنساني العظيم. ليس ثمة من يوازيه بكونه مدافعاً عن حقوق الإنسان وناشطاً فيه. حظي باعتراف واسع النطاق في إسرائيل والدول العربية وبقية العالم، من خلال دفاعه القوي عن حقوق الإنسان لجميع الشعوب. كان يعظ وينشط ضد الأشخاص والمؤسسات، في أغلب الحالات في داخل مجتمعه، ممن يضطهدون الغير. ركز لمدة خمس وثلاثين عاماً بشكل رئيسي على إنكار إسرائيل لحقوق الإنسان وإنهاء اضطهادها للفلسطينيين. بعد حرب ١٩٦٧ أصبح عضواً في الرابطة الإسرائيلية لحقوق الإنسان والحقوق المدنية واختير رئيساً لها في ١٩٧٠. وبوصفه رئيساً لها فقد قاد الرابطة، التي كان أعضاؤها من المواطنين اليهود والفلسطينيين في دولة إسرائيل، في احتجاجاتها وحملاتها ضد سياسات الحكومة الإسرائيلية وأفعالها التي تحرم الفلسطينيين من حقوقهم الإنسانية. تحت قيادة شاحاك أصبحت الرابطة أكثر فاعلية.

في بدايات السبعينيات قرر شاحاك أن ثمة نزراً يسيراً كان يُعرف خارج إسرائيل حول إنكار حقوق الإنسان للفلسطينيين واضطهادهم في داخل الدولة العبرية. عندئذ قرر العمل على نشر المزيد من المعلومات، بخاصة في الولايات المتحدة. في هذه الفترة بالذات تعرفت للمرة الأولى على إسرائيل شاحاك. بدأنا معاً بالتخطيط لكيفية القيام بذلك. بدأت حملتنا بقيامي بتنظيم أول جولة محاضرات لشاحاك في ١٩٧٢. وقدم سلسلة محاضرات مهمة خلال السبعينيات، والثمانينيات، والتسعينيات. تحدث إلى جمهور كبير في الجامعات، والكليات، والكنائس، والمنظمات وغيرها من المؤسسات. كما أجرى حوارات خاصة مع عدد كبير من الناس، من ضمنهم بعض أعضاء الكونغرس وموظفي وزارة الخارجية. ركز شاحاك في أحاديثه على كيفية إنكار الحكومة الإسرائيلية على المواطنين الفلسطينيين في



الدولة اليهودية بعض الحقوق التي تقتصر على اليهود، وكيف تعاملُ الفلسطينيين الذين يعيشون في الأرض المحتلة، ممن هم ليسوا من المواطنين، بشكل أسوأ بكثير. كان يوثق كل من هذه النقاط بعناية شديدة، ويوزع نسخاً من المقالات التي ترجمها إلى اللغة الإنجليزية، التي كتبها يهود إسرائيليون وتنشر في الصحافة العبرية الإسرائيلية. حافظ شاحاك على تحليله القائل أن الاضطهاد الإسرائيلي للفلسطينيين نابع من السمة الصهيونية للدولة اليهودية. ويظهر هذا التحليل نفسه في كتابه تاريخ اليهود وديانتهم.

بعيد جولة محاضراته في الولايات المتحدة، قررنا إسرائيل شاحاك وأنا، أن النشر المنتظم للترجمات الإنجليزية للمقالات المهمة من الصحافة العبرية هو أمر مهم. بمساعدة بعض الأشخاص والمنظمات، استطعنا المباشرة بالمشروع. كانت المقالات المترجمة تنشر بطرق متنوعة طوال ما تبقى من السبعينات والثمانينيات. منذ ١٩٨٨ ولغاية ١٩٩٧ كانت المقالات المترجمة التي يختارها شاحاك تنشر في Translations from the Hebrew Press، وتوزع إلى قائمة مختارة من المشتركين. (كان لـ Frank Collins مساهمة مهمة في المساعدة على البدء بهذه النشرة) فضلاً عن ذلك كان شاحاك يكتب مقالاته الخاصة التي نشرت في الصحف والدوريات الإنجليزية والأمريكية.

بعد تقاعده عن وظيفة التدريس في الجامعة العبرية في مطلع التسعينات، كرس إسرائيل شاحاك نفسه أكثر لهذا العمل. كما ألف ثلاثة كتب من بينها تاريخ اليهود وديانتهم، الذي كان أول نشر له في ١٩٩٤. هذا الكتاب هو أفضل ما كتب شاحاك ويستحق قراءة متمعنة لمن يعنى باليهودية، الصهيونية، والنزاع الإسرائيلي-العربي. كتاباه الآخران: أسرار مكشوفة: النووي الإسرائيلي والسياسات الخارجية، والأصولية اليهودية في إسرائيل، الذي شاركت في تأليفه، تستحق قراءة متمعنة بدورها.

توفي إسرائيل شاحاك قبل أوانه. في سن الثامنة والستين إذ كان في ذروة قدراته الإبداعية المنتجة. كان مثقفاً عملاقاً نادر المثال وإنسانياً متميزاً. كان، كما قال إدوارد سعيد، «رجل فائق الشجاعة يجب تبجيله لما قدمه من خدمات للإنسانية».

نظرة في تحولات العقيدة العسكرية الإسرائيلية واتجاهاتها المستقبلية

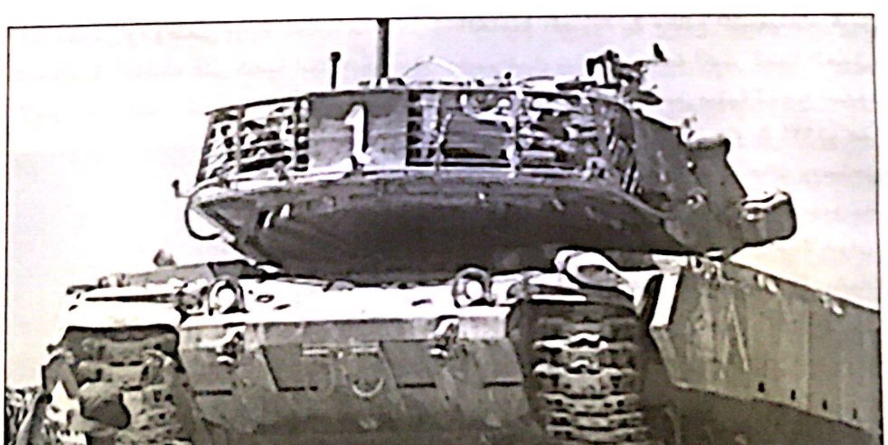
تشهد المؤسسة العسكرية الاسرائيلية منذ عقدين من الزمن، تحولات واسعة وهامة، ارتباط بالتحولات التي تجري في الكيان الصهيوني على المستويات السياسية، والاجتماعية، والعلمية والثقافية، والاقتصادية التي أدت فيما أدت إليه، إلى تعاظم حجم ونوعية الصناعات العسكرية الإسرائيلية واتساع قاعدتها الاقتصادية والاجتماعية، التي تعتبر احد العناصر الأساسية لبناء واستقرار الكيان الصهيوني، منعكسة على بناء قوتها العسكرية، كما ترتبط بالتحولات الاستراتيجية في الشرق الأوسط..

أمجد خليل

قادت هذه التحولات البنيوية الشاملة إلى تبدلات في مفاهيم نظرية الأمن وعقيدتها العسكرية.

ففي الجانب السياسي، وعلى الرغم من انطلاق مسيرة التسوية السياسية رسميا منذ توقيع اتفاقات كمب ديفيد عام ١٩٧٨ وتجددها عام ١٩٩١، التي نجم عنها اتفاقات أوسلو ١٩٩٣ وما أعقبها من اتفاقات لاحقة، ثم الانسحاب القسري من الجنوب اللبناني باستثناء مزارع شبعا عام ٢٠٠٠، ومن قطاع غزة عام ٢٠٠٥ إلا أن ذلك لم ينعكس على فكر وبنية المؤسسة العسكرية باتجاه إعادة بنائها لتتوافق مع حالة (مسيرة السلام) المنشود، بل على العكس من ذلك، تتجه المؤسسة العسكرية نحو الحفاظ على حالة من التوتر النسبي ورفع وتيرة الإحساس بالخطر والرعب بشكل دائم لدى الفرد والجماعة على حد سواء لإبقاء «التجمع الصهيوني» في حالة من الاستنفار العدائي مع محيطة، وهو من العوامل التي نجحت الحركة الصهيونية في استثماره إلى أقصى وجه، لتجميع اليهود ودفعهم للهجرة إلى فلسطين. لتحقيق هذا الغرض تلجأ إلى القيام بعمليات عسكرية مفتعلة ومحدودة، بهدف إعادة احتلال بعض مناطق قطاع غزة مؤقتاً، وقصفه بين الحين والأخر، وتنفيذ عمليات اغتيال واسعة رغم الانسحاب منه، كما مناطق الضفة الغربية أيضاً. مستخدمة المقارنة الظالمة بين صواريخ المقاومة والمذابح الوحشية التي تمارسها على أنها ردود فعل وليست أعمال عدوانية غطاء لارتكاب المزيد والمزيد من المجازر المتلاحقة بحق الشعب الفلسطيني كمجزرة بيت حانون التي وقعت في تشرين الثاني ٢٠٠٦ التي قتل فيها ١٩ مواطناً من عائلة واحدة بسبب قصف مدفعي إسرائيلي .وكذلك المجازر المتواصلة ضد القطاع والضفة في كانون الثاني ٢٠٠٨ التي ذهب ضحيتها أكثر من (١٠٠) شهيد وعشرات الجرحى. باعتبار أن ذلك القصف جاء رداً على المناطق التي تطلق منها الصواريخ الفلسطينية .

في هذا السياق نجحت إسرائيل في إقناع الرأي العام الأمريكي والنظام الدولي بأن ما يحدث في فلسطين من مقاومة هو امتداد للإرهاب الإسلامي العالمي، وتعمل على توظيف ذلك لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية وعسكرية من الولايات المتحدة والدول الأوروبية. بل وأن هناك أطرافاً دولية تتبنى المقولة الإسرائيلية كما هي من مصادرها. في مواجهة المقاومة الفلسطينية، واستمراراً لسياسة طحن عظام الفلسطينيين، عمدت إسرائيل إلى تطوير قدرات ووسائل تقنية وتسليحية وتنظيمية لدعم حربها المفتوحة ضد الشعب الفلسطيني، منها جدار العزل العنصري، الأسوار المكهربة على امتداد حدود قطاع غزة، كما هو الحال على الحدود اللبنانية والسورية مجهزة بكاميرات وأجهزة استشعار متصلة بنظم جمع المعلومات ونقاط قيادة، وأسلحة فردية خاصة مزودة بكاميرات تلفزيونية للتعامل مع الأهداف الحية من خلف الجدران، وبشكل مترافق مع الوسائل القتالية المتطورة شكلت إسرائيل قيادة خاصة



أطلقت عليها (قيادة مكافحة العصابات) تضم ٤ قيادات منفصلة للوحدات التي تعمل في الضفة، وغزة، وعلى الحدود اللبنانية. في نفس السياق مع تبوّ قيادة متطرفة للجيش مصحوبة بعنجهية القوة والعنصرية والرغبة بالتطهير العرقي، أوصت لجنة (دان مريدور) عضو كنيست سابقاً، المشكلة في شهر نيسان ٢٠٠.. لاعادة فحص (التفكير الاستراتيجي وبلورة المفهوم الأمني الإسرائيلي) بضرورة تطوير ردع جديد حيث قال: (أن الردع أصبح غير ذي صلة أمام الانتحاريين الردع يتغير .. غير فعال والحقيقة أن (انتحاريين) ما ..وا يأتون. لذا ينبغي تطوير ردع من ناحية مفهومية وتكنولوجية، ينبغي التفكير بكيفية منع الانتحاريين عن الوصول إلى إسرائيل، مثلا كيف يمكن ردع انتحاري يعرف أن هذه تعريفه الأخير، أو انتحاري يصعد إلى طائرة ويتحطم فوق بناية في نيويورك.)[1] وتقرر اللجنة انه ليس في دولة إسرائيل جهة مسؤولة عن ادارة المعركة ضد الإرهاب، كذلك أوصت بأن (تخضع قيادة الجبهة الداخلية) في فترات الطوارىء لإمرة وزير الأمن الداخلي.

بالتوافق مع هذه السياسة العدوانية ضد الشعب الفلسطيني، فإن الفكر الاستراتيجي الإسرائيلي، يعد بناء الجيش على أساس (الخيار الأسوأ) لمواجهة جيوش دول الجوار العربية، اعتقاداً برؤية تقول أن مسيرة التسوية ما هي إلا نتاج لحالة براغماتية، وليست نتاج لتغيرات وتحولات تاريخية لدى الجانب العربي، ومع ذلك فإن الوصول لتسوية دائمة وشاملة ستؤدي حسب الفكر الإستراتيجي الإسرائيلي إلى حالتين:

١ - الأولى: تقود إلى إزالة الدوافع العربية لشن هجوم على إسرائيل.

٢- والثانية: تقود إلى تغيير في المعطيات الاستراتيجية الناجمة عن الإنسحاب الإسرائيلي، التي قد تولد إغراء لاستغلال ضعف إسرائيل الناجم عن التغيير في هذه المعطيات، ومهاجمتها، وبالتالي فإن القوة العسكرية هي القادرة على توفير وردع العرب عن مواصلة الصراع ضد إسرائيل. ويعني هذا أن السلام لا يشكل ضمانة لعدم قيام حرب بأي صورة وعلى أي شكل، حيث أن السلام يمكنه أن يفرض صعوبات على شن الحرب، لكنه لن يكون عائقا يحول دون نشوبها.)[2]

ومن التهديدات التي تعمل إسرائيل على مواجهتها، عملية سباق التسلح في المنطقة، التي تتصف بالدقة وغزارة النيران وبعد المدى والتوجيه الذاتي والتطور المتسارع في أنظمة الأسلحة.. حيث شكل امتلاك دول المنطقة للصواريخ البالستية أحد المظاهر الرئيسية لهذا السباق. فإسرائيل تنتج منظومة صواريخ يريحو (قادرة على حمل رؤوس نووية أو تقليدية):

- يريحو ١ ومداه ٤٨٢ - ٥٦٣ كم. قادر على حمل رأس نووي أو تقليدي بوزن ٢٥٠كغم.
- يريحو ٢ ومداه ٤٩٠-٧٥٠ كم ويحمل رؤوس نووية بزنة ٤٥٠-٦٨٠ كغم.
- يريحو ٣ ومداه يتراوح بين٨٠٠ -١٥٠٠ كم ويستطيع حمل رأس نووي٧٥٠ كغم.
- كما طورت صاروخ كروز بالتعاون مع جنوب أفريقيا سابقاً وتايوان يصل مداه إلى (١٥٠٠) ميل. وقد ظهر التطور الإسرائيلي في مجال الصواريخ البالستية عندما أطلقت عام ١٩٨٨ القمر الصناعي أوفيك ١ بواسطة صاورخ شافيت (من صناعتها العسكرية)، ويتكون من ثلاث مراحل، وأفيك ٢عام ١٩٩٠ وأفيك ٣ عام ١٩٩٥ لأغراض تجسسية أيضاً.
- منذ عام ١٩٩٢ تقوم إسرائيل بتطوير صاروخ مضاد للصواريخ أطلق عليه اسم صاروخ ،حيتس، وقد نقل التلفزيون الإسرائيلي عام ١٩٩٩ انه تم تجربة هذا الصاروخ بنجاح.

بين عامي ١٩٨٠- ١٩٨٨ شهدت حرب الخليج الأولى بين العرق وإيران ما عرف بحرب المدن التي اعتمدت على سلاح الصواريخ البالستية التي أحدثت دماراً وخسائر فادحة مادياً وبشرياً. في عام ١٩٩١، أطلق العراق (٣٩) صاروخ سكود على إسرائيل الذي أدى إلى تآكل مفهوم العمق الاستراتيجي أحد مبادئ العقيدة العسكرية الإسرائيلية، بالإضافة إلى ما يقال عن امتلاك سوريا لترسانة صواريخ أرض - أرض متطورة قادرة على تغطية كل مساحة فلسطين المحتلة. تجعل حرب تموز بالمقارنة مع الحرب المستقبلية ،تبدو كأنها لعبة أطفال،، على حد قول جنرال احتياط ،يعكوف عميدور،.. الذي يتابع قوله: (لن يكون التهديد فقط على المراكز السكانية في الجبهة الداخلية، فهذه المرة لن يتوقف عند خط العفولة - الخضيرة، مثلما حصل في الحرب عام ٢٠٠٦ وانما سيغطي غالبية البلاد). (وقد أصبح معروفاً أن تلك الحرب كادت أن تتحول إلى حرب شاملة مع سوريا حسبما أفضى بذلك السيد حسن نصر الله..)

وإيران التي أعلنت أكثر من مرة عبر مناوراتها العسكرية ووسائل إعلامها عن امتلاكها لترسانة صاروخية: متوسطة المدى (زلزال ٩٠٠كم) وبعيدة المدى كصاروخ شهاب (٣) (١٥٠٠كم) وشهاب (٤) الذي يصل مداه حوالي ٢٠٠٠كم)[3]. إضافة للصواريخ التي يمتلكها حزب الله والتي لعبت دوراً هاماً في تموز ٢٠٠٦.

وعليه هناك تحولات هامة في مجال التكنولوجية العسكرية طالت منطقة الشرق الأوسط، وقد أخذت إسرائيل تدرك تماماً أن حرب تموز أثبتت أن هذه التحولات ليست حكرا عليها وحدها، حيث استخدم حزب الله نماذج منها. مما يهدد بتآكل التفوق النوعي الإسرائيلي الذي يشكل أهم الأسس التي تقوم عليها سياسة الردع سكود، أدت هذه العملية إلى تبدلات في مفهوم العمق الاستراتيجي باعتبار أن التمسك بالأرض لا يضمن السلام والأمن والاستقرار..

في السياق ذاته فإن التهويل الإسرائيلي - الأمريكي المتواصل حول الملف النووي الإيراني وقدراتها الصاروخية، سيبقى إحدى مولدات التحريض الغربي والرأي العام الأمريكي ضد إيران، وذلك لإعداد مسرح الحرب سياسياً على المستوى الدولي. ومن غير المستبعد أن يكون الاحتكاك الأمريكي - الايراني أثناء المناورات البحرية التي جرت في ١٢/٨ في الخليج العربي ،والغموض الذي رافق الإعلان عن سقوط طائرتين أمريكيتين من طراز F18 (في تلك المناورات) جزءا من هذا الإعداد، خاصة وأن أمريكا وإسرائيل تدركان أن العقوبات الاقتصادية والتهديد الدبلوماسي، لن يجديا نفعاً مع إيران لتثنيها عن مواصلة مشروعها النووي. فقد سبق أن تجاوزت إيران تداعيات القرار الدولي (١٦٩٦) المتخذ عام ٢٠٠٦، والقرار (١٧٤٧) الذي يشدد من العقوبات الاقتصادية.

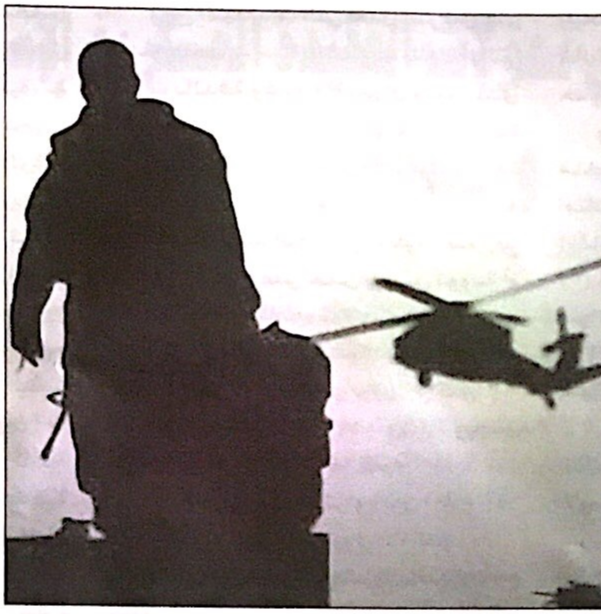
وتنطلق إسرائيل،من إدراكها أنها تحتل موقعا محوريا في السياسة الاستراتيجية الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط، رغم ما يظهر من تعارضات تكتيكية بين السياستين ،كما بدا ذلك في الموقف الأمريكي الداعي

لاستمرار حرب تموز عام ٢٠٠٦ لاستثمارها أمريكياً، والموقف الإسرائيلي الذي سارع إلى الموافقة على القرار رقم (١٧٠١) الذي يحمل في طياته سابقة تتعارض مع إحدى محددات العقيدة العسكرية الإسرائيلية التي تقول: (أن تتولى إسرائيل تقدير المخاطر وحدها والتصدي لها ومواجهتها). فالقرار المذكور يقضي بنشر قوات دولية مجهزة جيدا على الحدود اللبنانية - «الإسرائيلية، يتجاوز تعدادها (١٣) ألف جندي بكامل تجهيزاتهم القتالية البرية والبحرية والجوية. وهذا الأمر الذي كانت ترفضه إسرائيل سابقاً، لأنه يحمل تنازل إسرائيل عن حقها بالدفاع عن نفسها لوحدها، كما أنه يعيق حرية الجيش الإسرائيلي في تقديم خيارات القوة على غيرها. من جانب آخر قد يشكل نموذجاً قابلاً للتطبيق في المعادلة الفلسطينية في قطاع غزة والضفة الغربية. ولا يخرج عن هذا السياق ما يتداول أحياناً عن إمكانية نشر قوات مصرية على الحدود المصرية - الفلسطينية، وهو ما يخالف نصوص اتفاقات كامب ديفيد. كذلك تظهر التعارضات التكتيكية بين الطرفين في تقدير مدى الخطر المباشر الذي يمثله تعاظم الدور الإقليمي الإيراني في المنطقة، فأمريكا تعي أن لإيران دوراً في العراق والمنطقة.و ليس بالضرورة أن يكون متصادماً أو متناقضاً مع المشروع الأمريكي، ومن هنا تنشأ المساومة بين المشروعين بحكم العديد من العوامل: طبيعة الانتشار الأمريكي في الخليج الذي يجعل منه «أهدافاً في متناول الرد الإيراني»، وعدم الاستقرار السياسي في العراق رغم ما حققه المشروع الأمريكي من نجاحات تتمثل في تدمير البنية الوطنية العراقية الاجتماعية والعلمية والثقافية والقومية..... عبر زرع بذور التقسيم العرقي والطائفي.ولكن ذلك لا يعني وجود إمكانية أمريكيا للمساومة حول المشروع النووي الإيراني بآفاقه العسكرية، وهي مسألة ذات بعد فكري - أيديولوجي - سياسي - حضاري يرفض العقل الغربي السماح لإيران بتجاوزه، وهو ما يتوافق تماماً مع الموقف الاستراتيجي الإسرائيلي الذي يرى في إيران النووية تهديداً استراتيجياً رغم أن المعطيات الجيوسياسية والاستراتيجية تستبعد ذلك. لأسباب عديدة أهمها: أن المشروع النووي الإيراني انطلق من مقتضيات دفاعية ردعية بحتة في مواجهة العراق الذي انتهى عسكريا لسنوات عديدة قادمة، إن لم يكن نهائيا،و ضد المشروع الأمريكي بحدود تعارضه مع الدور والمصالح الإيرانية في المنطقة. وبسبب التدمير المتبادل المحقق بين البلدين إذا ما حصل صدام نووي بينهما. يضاف لذلك الأسباب الداخلية المتعلقة بمصداقية إدارة بوش أمام الرأي العام الأمريكي بسبب اتضاح حقيقة مبررات الحرب على العراق.

في هذا السياق صدر كتاب «إيران النووية» عن معهد دراسات الأمن القومي في إسرائيل، تناول فيه المؤلف: تداعيات حصول إيران على السلاح النووي، حيث تقدر المخابرات الإسرائيلية أن إيران ستصنع القنبلة النووية قبل انقضاء ٣ أو ٤ سنوات، في حين أن المخابرات الأمريكية أعلنت بتاريخ ٢/٤/ ٢٠٠٧ بأن إيران أوقفت برنامجها النووي عام ٢٠٠٣، وأنها ستمتلك السلاح النووي عام ٢٠١٥، في حال استئنافه. وأهم هذه التداعيات:

- سيخلق حالة من الهلع والخوف في المجتمع الإسرائيلي قد تقود إلى وقف الهجرة في المراحل الأولى وزيادة الهجرة المعاكسة.

- يؤدي إلى نهاية احتكار إسرائيل للسلاح النووي.



- تشجيع دول أخرى في المنطقة على امتلاكه، وحسب توقعات البراد عي...(فإنه يمكن أن يصبح هناك ٣٠ دولة نووية في غضون عدة سنوات).

- إحداث تغيرات استراتيجية تطال موازين القوى بشكل جذري في المنطقة.

وبالتالي ينبغي استعمال القوة العسكرية لمنع إيران من تحقيق ذلك (بواسطة سلاح الجو). وفي الوقت ذاته لا يستبعد المؤلف إمكانية التعايش مع إيران النووية في حالة عدم النجاح في منع إيران من تحقيق أهدافها، حيث يدعو إلى:

١- تقوية قدرة الردع الإسرائيلي، خاصة تقوية مركبات قدرات الضربة الثانية.

٢- انضمام إسرائيل إلى حلف شمال الأطلسي.

٣- الإعلان بوضع عن إسرائيل النووية.

٤- تعزيز التعاون الاستراتيجي مع الولايات المتحدة والتفكير بجدية لتوقيع اتفاقية دفاع مشترك.

٥- إقامة قنوات اتصال مباشرة، أو غير مباشرة مع القيادة الإيرانية للتفاهم معها حول السياسة النووية وتوضيح الخطوط الحمر... وهذا الاحتمال هو الأكثر واقعية في ظل هذه الحالة ،لأنه من غير المكن إن يتم اللجوء إلى استخدام السلاح النووي لإخضاع دولة نووية وبالتالي سيكون هناك تنافس وصراع غير تناحري بين المشروعين تحت مظلة ردع نووي متبادلة مجالة منطقة الشرق الأوسط ،والمنطقة العربية عموما.

أما الموقف الأمريكي يعتبر إيران خطراً لا يهدد المنطقة، أو أمريكا فحسب، باعتبار (أن الإدارة الأمريكية تنظر إلى كون إيران تمثل خطراً على الولايات المتحدة أكثر بكثير من خطر كوريا الشمالية) حسب رأي مدير مشروع القرن أمريكي جديد (بيل كر يستول). وإنما العالم كله على حد زعم الرئيس جورج بوش كما صرح بذلك أثناء زيارته للمنطقة خلال الأسبوع الثاني من كانون الثاني ٢٠٠٨. وهو امتداد وجزء من سياسة أمريكية تصاعدت

...رها مع الاحتلال الأمريكي وبانت أكثر
. تعثر المشروع الأمريكي في العراق، حيث
ن ديك تشيني طهران مسؤولية الفوضى
ائدة في العراق وأن معالجة تلك الفوضى
عن طريق قلب نظام الحكم و ضرب إيران
نشآتها النووية. وهو الموقف الذي يتطابق
ما مع الموقف الإسرائيلي في هذا العنوان،
طلاقا من هذا التفكير فإن احتمالات
ه ضربة عسكرية أمريكية منفردة أو
ركة مع إسرائيل ضد المنشآت النووية
ستراتيجية الإيرانية قائمة ولم تنته حتى
وبعد الإعلان عن التقييم الاستخباري
مريكي الخاص بهذا الشأن، الذي لن
اوز تداعياته أكثر من إضافة عقبات يسهل
اوزها في مواجهة الإدارة الأمريكية..

أما في مجال التكنولوجيا العسكرية، التي
تل المقام الأول في ترتيب عناصر النوعية
ى الجيش الإسرائيلي وذلك لمحاولة التعويض
ن النقص في الطاقة الكمية المحدودة، وتعتمد
سرائيل على صناعاتها العسكرية في تحقيق
لاكتفاء الذاتي. بالإضافة إلى المساعدات
لأمريكية المصدر الرئيس لمراكمة هذه
لنوعية. خاصة في مجال الطيران والحرب
لالكترونية. عبر المعونات المالية السنوية التي وصلت إلى أكثر من ملياري دولار سنوياً يذهب معظمها لمتطلبات الدفاع .وفي إطار التوجه لإنتاج شبكات وأنظمة أسلحة ذات تقنية عالية. وعلى سبيل المثال تدرس إسرائيل نظماً مزدوجة الاستخدام تجمع بين الدفاع الجوي والدفاع المضاد للدبابات ومن أبرزها النظام (ADATS)[٥] . وهو نظام مصمم ليعمل ضد الطائرات المقتربة على ارتفاعات متوسطة أو منخفضة، يمكن الاشتباك به حتى مدى ١٠ كم وارتفاع ٧ كم ضد الأهداف الطائرة وفي نفس الوقت يمكن استخدامه ضد مدرعات العدو، مع سرعة طيران تبلغ ٣ ماخ. كذلك ضد الدبابات المعادية حتى ٥ كم. قادر على اختراق دروعاً صلبة حتى ٩٠ سم. وحصلت على ١٢٨٦ صاروخ باتريوت من ألمانيا عام ٢٠٠٣ وتنتج أنظمة الرادار بعيد المدى الذي له قدرة اكتشاف الآليات والشاحنات التي لها مساحة مقطع راداري (١٠٠م مربع).

وتأكيداً على الأهمية التي وصلت إليها الصناعات العسكرية الإسرائيلية، فقد اعتبرت الصناعات العسكرية الإسرائيلية منذ عام ١٩٩٦ مطوراً ومنتجاً وحيداً لصواريخ التمويه المتقدمة من طراز ITALD لتزويد البحرية الأمريكية بهذه الصواريخ. وهي تطلق من أجل تمويه أنظمة صواريخ أرض - جو المعادية فقد أثبتت نجاحها ضد أنظمة الرادار العراقية في حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١ وأثناء الاحتلال الأمريكي ٢٠٠٣ ويعتمد هذا الصاروخ في توجيهه على الأقمار الصناعية وتبلغ مدة طيرانه (٣٥) دقيقة.

على مستوى سلاح الجو: فقد وصل في تعزيز قوته واستعداداته إلى امتلاك ناصية التقدم التكنولوجي، حيث انفق على تحديثه (١٠) مليارات دولار في عقد التسعينات، تمتلك إسرائيل أكثر من (٧٠٠) طائرة متطورة، منها ١٠٠ طائرة من طراز أف ١٦ أمريكية الصنع سيتم تسليم الـ (٥٠٧) طائرة الأخيرة منها بين الأعوام ٢٠٠٦ - ٢٠٠٩. وتسدد قيمتها البالغة ١،٣ مليار دولار تسدد من المعونة الاميركية السنوية التي تبلغ مليارى دولار. ويبلغ عدد أفراده (٣٢٥٠٠) جندي وعدد قوات الاحتياط (٥٤٠٠٠) جندي وعند التعبئة يصل إلى (٨٦٥٠٠)[٨] جندي. أما بالنسبة لطائرات الهليوكوبتر فيمتلك سلاح الجو منها ١٤٤ طائرة. منها ٢٠ طائرة (أباتشي لونغباو)[٩] التي تتميز بقدرات قتالية خاصة ومتعددة، ويقول ضابط كبير في سلاح الجو عن مميزات المروحيات الجديدة (يمكن لهذه المروحيات أن تحلق في كل أحوال الطقس وفي الليل، وذلك بمساعدة أجهزة للرؤية الليلية المركبة فيها التي يتم نقلها إلى عيون الطيار، والرادار (لونغباو) المركب فوقها، ويمكن تشخيص هدف واحد أو أكثر في الوقت ذاته وتحديد أولويات صحيحة بما يتلاءم مع أوضاع، إطلاق الصاروخ دون الحفاظ على اتصال عيني، ودون حاجة للتواجد في المكان نفسه....) (شراء هذه المروحيات يعتبر قفزة بالنسبة لسلاح الجو الإسرائيلي). ويبلغ سعر القطعة الواحدة (٢٧) مليون دولار.

أما في مجال الذخائر الجوية المتقدمة فقد اشتركت كل من الولايات المتحدة وإسرائيل في تطوير الصاروخ جو - أرض المسمى (هاف ناب)١٠ الذي يطلق من القاذفة بـ ٥٢ ومن منصات إطلاق طائرة أخرى . ويصل مداه إلى حوالي ١٠٠كم وله نوعان من الرؤوس الحربية، إحداهما للأهداف السطحية (٣٤٠) كغم وأخرى لاختراق الأهداف الحصينة (٣٦٣) ويصل وزنه الكلي إلى ١٣٦٠كغم. هذا بالإضافة لتطوير الطائرات بدون طيار، وأنظمة تزويد



الطائرات بالوقود في الجو، ونظام متقدم للاستطلاع والإنذار المبكر الجوي (فالكون). أما بخصوص حصة سلاح الجو من موازنة عام ٢٠٠٧ البالغة (١٠,٢)[١١] فكانت (٢٠٪).

و في خطة التسليح الإسرائيلية للسنوات الخمس المقبلة المسماة (تافان٢٠١٢)[١٢] التي أقرها رئيس الأركان أشكنازي في أيلول ٢٠٠٧ فتشمل التزود بـ ٢٥ طائرة من طراز (ف ٣٥) التي لا يرصدها الرادار، وتعزيز الأسطول الجوي القائم، وتوسيع منظومة الطائرات بدون طيار، وتطوير الدفاعات ضد الصواريخ القصيرة المدى وصولا إلى الصواريخ البعيدة المدى.

بخصوص سلاح البحرية تهدف إسرائيل إلى تطويره لتنفيذ مهام تتعدى الحدود على المستوى الإقليمي والدولي. حيث عملت إسرائيل على تحميل صواريخ تحمل رؤوساً نووية على الغواصات الحديثة التي قدمتها ألمانيا، وتدرس البحرية الإسرائيلية شراء حاملة طائرات ضمن خطة (التسليح الثورية) وشراء سفن قادرة على حمل مروحيات مقاتلة وطائرات بدون طيار وأنظمة حرب اليكترونية متطورة على اعتبار أن سلاح البحرية سيضطر في المستقبل إلى القيام بمهام عسكرية على مسافة بعيدة من حدود (إسرائيل) حسب مقال نُشر في (يديعوت أحرونوت)[١٣].

أما في الجانب الاقتصادي - الاجتماعي، فقد ساهمت موجة الهجرة من دول الاتحاد السوفيتي السابق خلال الأعوام (١٩٨٩-١٩٩٩) في زيادة سكانية بلغت ١٨,٥٪ من إجمالي السكان اليهود، التي أدت بدورها إلى ارتفاع نسبة اليهود من أصل غربي وأمريكي إلى ٤٠٪ نحو مليونين، في مقابل ٣٦٪ (١,٨)[١٤] مليون من اليهود السفاردي، بعد أن كانت النسبة بينهما ١٩,٥٪ - ٢٠٪ في أوائل الثمانينات، ومع تآكل مكانة الجيش بعد حرب ١٩٧٣ وحرب ١٩٨٢ وأثر اندلاع الانتفاضة الفلسطينية ١٩٨٧ و٢٠٠٠ وحرب تموز ٢٠٠٦، الذي حمل في طياته انتقاصاً من قيمة المكافات الرمزية للخدمة في الجيش. قاد ذلك كما يقول جنرال احتياط يغيل ليفي إلى الإخلال في التوازن بين المكافات المختلفة والأعباء العسكرية التي يتحملونها، وانعكست هذه الزيادة على التركيبة الاقتصادية الاجتماعية لصالح تزايد دور اليهود الغربيين في العملية الاقتصادية في المجالات المختلفة، مما أدى إلى تزايد دورهم القيادي وسيطرتهم في المجتمع، دون الحاجة إلى التضحية والخدمة في الجيش الذي كان يوفر الشرعية في القيادة والسيطرة والاحترام، والوظائف والمناصب الهامة في الحياة المدنية بعد انتهاء خدمتهم. مع كل هذه التحولات الاقتصادية لم يعد هناك حاجة ملحة لاستخدام الجيش لإيجاد هذه الشرعية، حيث عملت الدولة منذ عام ١٩٩٠ إلى إعادة بناء التوازن من جديد بواسطة تغيير التركيبة الاجتماعية للجيش وتأسيسه على مجموعات الأطراف التي تشمل اليهود المتدينين والمستوطنين الشرقيين الروس والشرائح الدنيا، ضد انتفاضة الأقصى دون احتجاجات، وتتم بالمحافظة والتطرف وتستسهل استعمال القوة العسكرية لحل مشاكل إسرائيل مع محيطها العربي.

يضيف المؤلف أن حرب لبنان الثانية مثلت الفجوة العميقة والآخذة في الاتساع بين الشرعية السياسية المرتفعة لاستعمال القوة وشن الحرب من ناحية، ومن الشرعية المنخفضة للتضحية في الأرواح من ناحية أخرى، يعبر عن ذلك بأشكال مختلفة، كازدياد حالات التهرب من الخدمة وفي أزمة التطوع، والضغوط المتواصلة لتقليص ميزانية الجيش، والتوتر الأمني المستمر، الذي يتناقض مع نيل ثقة أسواق العالم والنمو الاقتصادي. ويضيف أن الفجوة بين الشرعيتين عزز الميل نحو التسرع في اتخاذ قرار استعمال القوة اعتقاداً من متخذي القرار أن عقود الحرب التكنولوجية وسلاح الجو جسر الفجوة بين الشرعية، وأن الفجوة بين الشرعية تضع قيوداً على استعمال القوة تفادياً للخسائر في الأرواح كما حدث في حرب لبنان الثانية.

من زاوية أخرى وما تمثله ميزانية الأمن من أعباء ثقيلة على الاقتصاد الإسرائيلي بسبب نظام المعركة الحالي الذي يعتمد على جيش نظامي يتألف من (١٣٤) ألف جندي، أما الاحتياط يتكون من(٢٦٥) ألف جندي، وفي بعض المصادر (١٧٥) ألف جندي نظامي، و(٣٧٥)١٥ ألف جندي احتياط منظم في (١٢) فرقة مدرعة و٤٠٠٠ دبابة وحسب مركز جافي للدراسات الاستراتيجية. أما المشاة الميكانيكية فتتشكل من (٩٥٠٠)[١٦] ناقلة جند مدرعة من مختلف الأنواع. ويضم سلاح الجو حوالي ٧٠٠ طائرة حربية)، ونظام خدمة في مناطق الضفة الغربية، عوامل تدفع باتجاه مزيد من النفقات الدفاعية، في الوقت الذي تتعرض المؤسسة العسكرية للضغوط لتقليص ميزانيتها الدفاعية، الأمر الذي يعارضه الجيش، حيث يلجأ إلى رسم صورة قاتمة والتهويل في حجم الأخطار التي ستواجهه إسرائيل بسبب النقص في ميزانية الدفاع، للحصول على حصة أكبر على ميزانية أكبر للدفاع، على سبيل المثال بلغت نسبة موازنة الدفاع ١٥,٣٪ من الموازنة العامة للدولة التي بلغت ٥٩ مليار دولار لعام(٢٠٠٠)[١٧]. اثر حرب لبنان الثانية، طالبت قيادة الجيش بزيادة الميزانية خلال السنوات الثلاث القادمة بما يتراوح بين ٦ - ٧,٦ مليار دولار علاوة على الميزانية السنوية البالغة ١٠,٢ مليار يضاف إليها ٢,٢ مليار مساعدات عسكرية سنوية من الولايات المتحدة.. وأن هذه الزيادة لتغطية



مصاريف الحرب على لبنان والتعويض عن الخسائر العسكرية والاستعداد للحرب المستقبلية حيث قالت مصادر عسكرية (إن على الجيش الاستعداد بسرعة قصوى لحرب ثقافية). وتشكل هذه الزيادة ما نسبته ٢٥٪ من ميزانية الدفاع.

في تقرير نشرته صحيفة أحرونوت على موقعها الالكتروني ذكر أن كلفة الحرب على لبنان بلغت ٥ مليارات دولار، وأن ٢٥٠ مقاتل من حزب الله جرى تصفيتهم بتكلفة مالية بلغت ٣.٥ مليار أي بتكلفة تصل إلى ١٤ مليون مقابل كل مقاتل لبناني. ودون تحقيق فائدة قياساً مع مجموع التكلفة. وان خسائر الحرب المباشرة التي بلغت ٢،٩٥ مليار دولار للعسكر والأضرار المدنية.. واثر حرب لبنان عام ٢٠٠٦ طلبت قيادة الجيش ٦ - ٧،٦ مليار زيادة على ميزانية البالغة ١٠،٢ مليار، للتعويض عن خسائر الحرب والاستعداد للحرب المستقبلية حسب مصادر عسكرية.. المتتبع للوقائع الإسرائيلية يرى أن حجم إنفاق الدفاع في تزايد مستمر على الرغم من الضغوطات الداعية لتخفيض ميزانية الدفاع. فقد حذر أريل شارون خلال اجتماع وزاري تناول ميزانية عام ٢٠٠٤ من إجراء تخفيضات في ميزانية الدفاع من شانها أن تؤثر على أمن البلاد. قائلاً: (هناك عناصر في الميزانية من الخطورة بمكان أن يتم خفضها وعلينا أن نرى كيفية تطور الوضع هنا وفي العراق.. وعلينا جميعاً أن نبتعد عن جرح مشاعر من يخدمون في الجيش وأسرهم) كذلك الفريق موشيه يعلون رئيس الأركان العامة آنذاك قال: (إن الادعاءات بأن العسكريين يتلقون أجوراً ومزايا عالية للغاية ليس لها أساس من الصحة وتثبط همة الناس في تشجيع قوات الدفاع عن تنفيذ مهامها). وبالتالي فإن للأمن والجيش أولوية مطلقة في سلم اولويات عناصر الاستمرار والاستقرار لدى الكيان الصهيوني بعض النظر طبيعة وحجم الضغط التي تتعرض لها المؤسسة العسكرية فقد بلغت (١١) مليار دولار أي ما يعادل (١٤،٤٪)[١٨] من الموازنة العامة للدولة البالغة ٧٦ مليار دولار..

هذه المتغيرات الداخلية الشاملة، تقود إلى الاعتماد على جيش محترف قائم على المتطوعين، بدلاً من نظام الاحتياط الضخم الحالي الذي يمتص قوة العمل، ويمتلك التفوق النوعي في القدرات العسكرية. ما طرأ من تهديدات، وما تعتبره إسرائيل من خطر ديمغرافي فلسطيني قادم بشكل حتمي، «والإرهاب الدولي المتمثل في نمو الأصولية الإسلامية». بالإضافة إلى المتغيرات الإقليمية والدولية، عوامل تدفع إلى تبني إيديولوجية القوة والعنف، ومفاهيم عدوانية هجومية بمعزل عن تورط إسرائيل في حروب جديدة أم لا، فهي ستجد دلالاتها في صنع السياسة الإسرائيلية من منطلق مفهوم القوة الشاملة الذي يبحث عن عدو له لتبرير عدائيته وإن كانت حرب تموز ٢٠٠٦ نموذجاً مصغراً لها من حيث الطاقة التدميرية ووسائل القتال المتطورة.

فالمؤسسة العسكرية الإسرائيلية وجدت نفسها أمام مفاهيم استراتيجية جديدة تطال مذهبها العسكري وعقيدتها العسكرية، وفي هذا السياق خرج مؤتمر عقد في ٢٧ تشرين الثاني ٢٠٠٢ في جامعة (بار إلان)[١٩] بتصورات جديدة لطبيعة التهديد الذي يواجه إسرائيل في الحقبة القادمة، عن «دور القوات البرية في القرن الواحد والعشرين، وانعكاس ذاك على عقيدتها القتالية، وتتصف هذه التصورات بأنها تتطابق مع التوجهات الأمريكية في هذا المجال، على أساس أن إسرائيل قد منحت نفسها مهمة دولية وليست إقليمية فقط للحرب خارجها، وأنها طورت كل أفكارها السابقة للعمل على المستوى العالمي، لذلك أطلقت على عقيدتها القتالية الجديدة «العقيدة القتالية الجديدة بعيدة المدى:

Long Range Offensive Doctrine»

ويقصد بالمدى البعيد هنا المدى الجغرافي وليس الزمني. ومن أهم أسس القتالية الجديدة في النقاط التالية:

١- لم تعد أسلحة الدمار الشامل تمثل تهديداً أساسياً بالنسبة لإسرائيل، خاصة بعد التغيير الذي وقع في العراق، وأصبح المهم هو التهديد الناشئ من الإرهاب الدولي وأساليبه غير التقليدية الجديدة، على نمط ما حدث في ١١ سبتمبر بالولايات المتحدة. (ثم اخذ هذا العنوان يطرح ذاته بشدة على التفكير الاستراتيجي الإسرائيلي في ظل الأخطار المزعومة من التهديد الإيراني التقليدي وما فوق التقليدي).

٢- التركيز على اضمحلال فكرة حدود الدولة وقدسيتها، وتغيير فكرة السيادة بما يسمح لإسرائيل بحرية الحركة في تنفذ مهام تتعدى الحدود على المستوى الإقليمي والدولي.

٣- على إسرائيل الاستعداد للقيام بمهام إجهاضية ووقائية ضد أهداف بعيدة داخل وخارج إقليم الشرق الأوسط وفي قارات أخرى.

٤- تنهض «العقيدة القتالية الجديدة بعيدة المدى» على مثلث: الردع، الإنذار المبكر، ومنع الخصم وحرمانه من قدرات يمكن أن تمثل تهديداً لإسرائيل.

٥- على إسرائيل الاستعداد مرة أخرى للاستيلاء على أراض خارج حدودها، وعلى مسافات بعيدة منها لتحقيق عنصر الحسم في حربها ضد الإرهاب.

٦- يجب أن تمتلك إسرائيل ذراعاً بحرية قوية تماثل الذراع الجوية، فلا يمكن تصور عمليات ضد أهداف بعيدة بدون استخدام البحر للوصول إلى هذه الأهداف بقوة وكثافة، ونقل العتاد العسكري بالقرب منها.

٧- البدء في تطوير قدرة نووية للضربة الثانية تحملها الغواصات، أو وسائل أخرى من تحت مياه البحر

كذلك تحدث الجنرال (اوي ديكل) في مؤتمر (هرتسيليا)٢٠ السابع المنعقد بين (١/٢١-٢٠٠٧/١/٢٤) - قائد القوى العاملة في الجيش - عن إضافة الرجل الرابعة التي تتمثل في ما أسماه بالدفاع السليم بما يشمل التصدي للصواريخ رغم الكلفة العالية. وتهيئة جيش الاحتياط. وأضاف (لن نقبل بعد اليوم بالزعم القائل أنه لا مجال للحسم في معركة مع قوى غير نظامية، ولذا باشرنا بتحسين القدرات الاستخبارية لا سيما مراقبة ومعالجة مقررات العدو، لا نواياه وليس بطرق عسكرية فقط». (وأكد على أن الجيش يستعد لمواجهات الغد على أساس دروس الحرب الأخيرة، ويبني ذاته بموجب المفهوم الأمني الجديد).

في خطة (تافان) (٢٠١٢) التي أقرها رئيس الأركان غابي أشكنازي في أيلول ٢٠٠٧، تم منح أولوية للقوات البرية مع تعزيز للقوات الجوية والبحرية، خلال السنوات الخمس المقبلة، ومواصلة إنتاج الدبابة (ميركافا سيمان ٤) كجزء من العبر المستخلصة من حرب لبنان الثانية. وكذلك إنتاج المئات من ناقلات الجند المدرعة الثقيلة المخصصة لألوية المشاة..

وقد أشار المراسل العسكري لصحيفة (يديعوت أحرونوت) اليكس فيشمان إلى أن تزود الجيش الإسرائيلي بمئات من المجنزرات الثقيلة الحديثة التي تسمى (نمر) وتكثيف إنتاج دبابات (ميركافا سيمان ٤) يعنيان تغيير مفهوم استخدام الجيش الإسرائيلي وتشديده على بناء القوة المدرعة المناورة). وهذا يعني تحولاً عن المنحنى العام للجيش الإسرائيلي في العقدين الأخيرين حيث كان يقلص القوات البرية ويزيد من التركيز على القوات الجوية والبحرية.. التعبيرات الفكرية والعملية لهذه المتغيرات تقتضي العودة إلى نظرية الحرب الوقائية، وما يعنيه ذلك من تنفيذ ضربات في عمق الدول المستهدفة لترميم الردع الإسرائيلي الذي أخذت دعائمه تتداعى بشكل أو بآخر منذ حرب عام ١٩٧٣، والغارة الجوية الإسرائيلية على موقع مدني سوري في أيلول ٢٠٠٧ هي شكل من أشكال هذه العودة . من هنا وعلى هذا الأساس يمكن إدراج العديد من محطات التحريض السياسية التي تشكل مجالاً لفبركة مصوغات شن حرب إسرائيلية- أمريكية ضد سوريا وإيران معا وفي ذات الوقت أو بشكل منفصل ومنها :

- **الملف النووي الإيراني:** حيث يصار إلى إعداد المسرح الدولي لفرض مزيد من العقوبات الاقتصادية ضد إيران. وما يحمله ذلك من خلق رأي عام أمريكي وغربي يتقبل مبدأ معاقبة إيران الخارجة عن القانون الدولي بسبب وجود نوايا إيرانية للحصول على السلاح النووي حسب الموقف الأمريكي - الإسرائيلي.

- **الساحة العراقية:** التي تعد أرضا خصبة لإيجاد واختلاق مادة تحريضية بأشكال وأساليب مختلفة ضد إيران وسوريا، وفي مقدمتها تهم دعم (الإرهاب) والتسبب في إفشال السياسة الأمريكية هناك.

- **المحطة الفلسطينية:** الأضعف بين كل المحطات، والأخطر في تداعياتها. حيث يصار إلى إعداد للمسرح السياسي والنفخ في الكور الإعلامي بشكل وهمي على قاعدة إحياء للمسار الفلسطيني وضرورة العودة لطاولة المفاوضات على أساس خارطة الطريق، التي لم يتبق منها شيء سوى بعض معالم خطوط الكنتور المرسومة إسرائيلياً. وهذا ما جاء به وعلى أساسه موتمر أنابوليس الذي لا يتعدى أكثر من كونه وسيلة تنويم مغناطيسي أمريكية - إسرائيلية، تستهدف استجواب العرب حول مدى وكيفية اصطفافهم حول المشروع العدواني القادم ضد المنطقة دون الأخذ برأيهم أو حتى سماعه، ومحاولة إبقائهم تحت تأثير هذا التنويم لأجل غير مسمى. وبالتالي إيهامهم بأن هناك جهود تبذل لوضع حد للغطرسة الإسرائيلية عبر الإقرار وضرورة إقامة الدولة الفلسطينية الموعودة قبل نهاية ولاية بوش. هذا الإيهام والتنويم جل ما تمخضت عنه وما استهدفته زيارة بوش الأخيرة للمنطقة خلال الأسبوع الثاني من كانون الثاني من العام الجاري، الذي أعقبه المزيد من ارتكاب المزيد من المجازر بحق الشعب الفلسطيني لإحداث مزيد من الانقسام واستغلال تداعياته .

- **المسألة اللبنانية وجوانبها المتعددة،** حيث تعمل الإدارة الأمريكية لمنع حدوث أي توافق لبناني - لبناني قد يوفر فرصة لانتخاب رئيس للبنان يحوز على إجماع وطني، وذلك لاستنزاف الجهود الوطنية والعربية الرامية إلى إعادة اللحمة الوطنية للشعب اللبناني، لاستغلال الفراغ الرئاسي لتوجيه التهم المدروسة أمريكيا وإسرائيليا لكل من حزب الله وسوريا وإيران بإعاقة تنفيذ القرارات الدولية خاصة القرار رقم (١٧٠١)، وتحديداً نزع سلاح حزب اللة والتدخل في الشؤون اللبنانية، وكذلك عنوان المحكمة الدولية، وذلك لتأليب الشارع اللبناني والنظام العربي والدولي ضد سوريا وإيران في سياق إعداد المسرح السياسي لفرض عملية فك التحالف بين البلدين بكل الوسائل، بما فيها العمل استخدام القوة العسكرية.

فالمؤشرات والدلائل التي تتكشف كل يوم تؤكد على إن الذي يجري في المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ليس مقتصرا على دراسة أسباب الفشل في حرب تموز والاستفادة من دروسه، وإنما تتعدى ذلك ليطال بناء القوة العسكرية بمفهومها الشامل لتتجاوب مع مجموع الإخطار القائمة والمحتملة التي قد تواجه إسرائيل في دوائر المواجهة المختلفة، وبالتالي تسعى لاستعادة قدراتها الردعية حتى لو كان ذلك عن طريق شن حرب ضد لبنان وسوريا، والمشاركة مع الولايات المتحدة في ضرب إيران. رغم كل هذا وذاك فالغموض في معرفة طبيعة التسليح وحدود الرد السوري والإيراني الذي يمكن أن يفاجيء إسرائيل وأمريكا الذي يمكن أن يرفع من ثمن هذه الحرب بشكل يجعل إسرائيل تدفع ثمناً لا يقل عما قد تدفع سوريا ولبنان، وبشكل نسبي إيران، وحسب مقولة القائد الروماني الشهيرة التي تقول: «من السهل عليك أن تبدأ الحرب ولكن ليس من السهل عليك أن تنهيها.....» فهل يقف الباحثون في رمضاء الصحراء عن نقطة ماء قبل أن يتزودوا بها للتفكير مليا ؟. وهل يرتدع قادة (إسرائيل) قبل فوات الأوان؟. فالحرب ليست كما تشتهي غرائزهم ونزعاتهم العدوانية.



(نعتذر عن ادراج الهوامش ويمكن الاطلاع عليها على موقع المجلة على شبكة الانترنت.)

هواجس

.. حول عواصم الثقافة العربية!

تطرح فكرة «عاصمة الثقافة العربية» عدة قضايا إشكالية تحتاج إلى إعمال الفكر، والتأمل في جوانب هذه الظاهرة التي أضحت تقليداً عربياً سنوياً، يحظى بالاهتمام الرسمي، بغض النظر عن العاصمة المقصودة، سواء كانت دمشق، أو عمان، أو الجزائر..الخ.

من بين هذه القضايا السؤال: هل هذه الظاهرة مرتبطة بأسباب ثقافية فعلية، تطمح فعلاً إلى تنمية ثقافية عربية مستدامة، وغير موسمية.. أم هي فعل شكلاني، المطلوب منه البهرجة الإعلامية قبل أي شيء آخر؟!

كذلك، هل يعني توزع «عاصمة الثقافة العربية» دورياً على العواصم العربية، أن هذه العواصم تسير باتجاه الوحدة، وتهتم جميعها بالثقافة بذات الدرجة والنوعية، أم أن الأمر لا يعني هذا ولا ذاك؟!

وهل يرتبط تحديد مدينة بعينها «عاصمة للثقافة العربية» بمعايير معينة لها علاقة بالمنجزات الثقافية التي حققتها هذه العاصمة العربية أو تلك، وبالتالي هل هناك معيار ثقافي يتحدد على ضوئه تحديد هذه المدينة أو تلك باعتبارها عاصمة للثقافة العربية؟!

وحينما نقول: «منجزات ثقافية»، فهذا يعني تشكل ونهوض ظواهر ثقافية في حقول إبداعية مختلفة: سينما، مسرح، فنون تشكيلية، ازدهار الترجمة.. الخ، وبالتالي هل تنهض العواصم العربية التي تفتخر بلقب «العاصمة الثقافية» بهذه المنجزات الثقافية، حتى لا يكون الاحتفال بها مجرد احتفال سياسي أكثر منه ثقافي؟!

إذا كانت ساعات القراءة السنوية للإنسان العربي محدودة جداً، وقدرته الشرائية على اقتناء الكتاب محدودة أيضاً بسبب الشروط الاجتماعية والمادية التي ترهقه، لا بسبب رفضه للثقافة، فيكف يمكن أن تعيد عواصم الثقافة العربية للإنسان العربي، والكتاب الذي عرف ازدهاراً كبيراً في عقود سابقة احترامه ومكانته وألقه؟!

ثمة سؤال آخر أيضاً، يطرح مفارقة كبيرة: إذ ما معنى الثقافة في مجتمع عربي تتزايد فيه نسبة الأمية بشكل كبير في السنوات الأخيرة، ناهيك عن «الأمية الثقافية» عند معظم من يعرف مبادئ القراءة؟! وكيف يمكن الاحتفال بالثقافة إذا كانت الرقابة عنصراً ثابتاً ومستمراً داخل العملية الكتابية والإبداعية وخارجها؟! وهل يمكن الحديث عن ثقافة بمعزل عن مستوى العلاقات الاجتماعية، بمعنى: ارتقاء مستوى التربية والتعليم، وحرية الفكر، والحوار الاجتماعي، والمستوى المعيشي.. الخ.

وما معنى الثقافة العربية اليوم، إذا لم يكن لدينا تصورات نقدية لعالم منفتح على المستقبل، لا سيما في ظل عالم عربي يرزح اليوم تحت ثقل الأصولية، والمعايير الماضوية؟!

في المختصر.. إذا لم تطرح أي عاصمة ثقافية عربية على نفسها مثل هذه الأسئلة، وتحاول الإجابة عليها، من خلال رسم إستراتيجيات بعيدة المدى للنهوض بالثقافة العربية، سوف تظل مسألة «العواصم الثقافية العربية» مجرد تظاهرات إعلامية شكلانية، تنتهي بانتهاء دورتها الزمنية.



ثقافة وفنون

عودة الغريب إلى نفسه



بعودته إلى حيفا «لماماً» كما يقول محمود درويش، يكون قد أغلق دائرة رحلته، التي قضاها في المنافي، منذ «النزول عن الكرمل، إلى الصعود من جديد إليه بزيارة سريعة. فحيفا كما قال لصحيفة الحياة عشية زيارته: «إنها مدينتي، إنها جزء من وطني، وذكرياتي فيها لا تحصى، وحيفا كانت البوابة الأخيرة التي غادرت منها إلى بلاد المنفى». خاف الكثيرون من لقاء الشاعر صاحب القلب المريض والهش من اللقاء مع المكان الأول، وكان خوفهم محقاً. فلطالما رثى الشاعر نفسه في أعماله، رسم «جدارية» لذاته وعلاقته مع الحياة بحجارة الشعر القوية، وبتجربة الحياة العميقة. لذلك كان خوف محبي الشاعر عليه خوفاً مشروعاً. رغم اعتباره هذا الخوف غريباً عندما قال «ليس من الطبيعيّ أن أُسأل: ألا تخشى على حياتك من زيارة الكرمل؟ وأن أجيب: لا أتمنّى نهاية أعلى... وأجمل... وأكمل!».

لقد سبق لقاء الشاعر مع مدينته لغط كبير، حول الزيارة وتوقيتها والحصول على الموافقة الإسرائيلية، كادت أن تمس المعاني الشخصية للقاء درويش الشخص مع مدينته، وتمس لقاء الشاعر العام مع وطنه الذي منحه طاقة هائلة على تفجير الشعر بأبعاده الإنسانية، فدرويش اليوم ليس قيمة وطنية فلسطينية وحسب، وليست أشعاره ملكية فلسطينية خالصة، فدرويش في روائعه الشعرية قيمة إنسانية ملك الجميع، بما هو أبعد من فلسطين والعرب، أنه للجميع وليس لهم، فتجربته أعقد من أن تصنف.

بالطبع، لا يحتاج درويش إلى من يدافع عنه، فهو فوق الاتهام، وهذا لا يعني أنه لا يمكن نقده، على العكس، هو أكثر ما يحتاج إلى النقد، لإبراز قيمة أعماله، فلا عمل تام بالمطلق، وعندما يكتب المبدع النص التام، لا يبقى هناك ما يكتبه في عمله التالي.

احتاج درويش في زيارته لحيفا أن يقدم بيانه الجديد، وإذا كان بيانه الأول الذي أثار ضجة في حينها، والذي حمل عنوان «أنقذونا من هذا الحب القاسي» والذي كتبه مطلع الثمانينات من أجل إعمال النظرة النقدية فيما عرف بـ«أدب المقاومة». بيان حيفا الجديد بيان شخصي وعام وشعري، ولا شك بأن بيانه كان في غاية الأهمية.

بيان شخصي

يفتتح درويش بيانه بالقول «أحاولُ، ما استطعتُ، أن أنزع عن هذا اللقاء صفة الحدث....» رغم هذا الاستدراك، فإن ما سبق الزيارة من جدل، يؤكد أنها حدث كبير. ولكن من حق الشاعر أن تحترم خصوصيته، وأن لا تكون حياته الشخصية حبل غسيل. لذلك من حقه أن يقول «هنا أنا الآن، دون أن أتساءل: لماذا نزلت على الكرمل؟ ودون أن أضيف: كيف صعدتُ إلى الكرمل؟ إذ أني أعلم أني، بما يعنيكم منّي، وهو أن يكون صوتكم صوتي وصوتي صوتكم، لم أغب تماماً ولا أحضرُ إلا لماماً لأنّ المجاز هو أداة الشاعر القادرةُ على جعل الخياليّ واقعيًا وعلى جعل الواقعيّ خياليًا، دون أن تفقد اللغة طريق العودة إلى أرض مرجعيَاتها الأولى». ولكن هذا الشخص الذي يكونه محمود درويش هو أيضاً إنسان يعيش ضمن واقع يموج بتناقضاته وتعقيداته، وله موقفه من الكثير من القضايا، وعلى رأسها قضيته الوطنية. لذلك يدافع عن حقه الشخصي، وعن حق شعبه في وطنهم «حتى لو لم نكن كنعانيين، فليس من حقّ المؤرخين أن يسلخوا عن هذه الأرض اسمها وأن يُشكّكوا بهوية أصحابها الأصليين. ولأنّ الإسراف في البحث عمّن سبق مَن في بناء الأسطورة، ومَن كتب على الحجر قبل الآخر... لا يخصّ سوى علماء الآثار العاجزين عن الإتيان بالبرهان، فإنّ حقّنا في وطننا الوحيد لا ينصاع إلى سجال البراهين المترف، لأننا نحن... نحن البرهان».

موقع الشاعر

رغم أن الفلسطينيين يشكلون البرهان على الوطن، فإنهم يعانون من الانقسام الذي يمزق قلب الشاعر، وهو غير قادر على تصديق ما يجري بين الفلسطينيين أنفسهم ويقول «لكنّ كوابيسنا لم تُزَجّ بغزة في هذا المشهد، إلى أن صحونا من الغيبوبة على علَم ذي لون واحد يصرع علماً رباعيّ الألوان، وعلى محاولةِ انتحار المعنى علانية في الشوارع، وعلى أسرى بزيّ عسكريّ يسوقون أسرى عُراةً إلى كاميرا النصر. انتصرنا واستقلت غزة عن الضفة الغربية، وصارت لشعب واحد دولتان، زنزانتان. لا تتبادلان التحيّة. فيا لنا من ضحايا في زيّ جلادين». لم تكن هذه صورة الفلسطيني التي دافع عنها الشاعر طوال أربعة عقود، بلغة ترقى إلى الأسطورة، ولا يمكن له ولا لأي محب للفلسطينيين أن يرضى عن هذه الصورة، ولذلك هناك ضرورة لنقد هذا الوضع. لا يملك الشاعر قوات عسكرية لمواجه الكابوس، فهو لا يملك سوى لغته التي يستخدمها لتجنب الأسوأ، والذي هو ممكن دائماً.

موقع الشعر

أين الشعر من هذا كله، لا يرى درويش الشعر مستقل ويصنع واقعه، بل هو مل في الواقع ذاته. وفي بيانه لا يتجنب وال بل يطرحه بكل وضوح «فماذا يفعل عر في زمن المحنة الطويل؟» يجيب على وال بالقول الغامض «أكاد أقول: لا ء، وكل شيء في آن واحد.» ولأنه يعرف ذا الكلام يصلح جواباً، ولا يصلح في قت ذاته، فهو يشرح رؤيته الشعرية قول «إن الشعر هو المرافعة النوعيّة انية للدفاع عن الحياة وعن حقّنا في أن يا حياتنا كما نريدها، ببداهة، وحرية، سلام. وهو دفاع عن الروح، والذاكرة جمعية، والهويّة، دفاع عن الحبّ والجمال عما في أعماقنا من موسيقا خفيّة وفرح. هو مقاومة لكل ما يجعل الحياة عبئاً لى الأحياء، ومقاومة لكل ما يعيق حرية لانسان وتطبيع علاقته مع ذاته ومع وجوده الإنسانيّ. إنه البحث عن الأمل، أو هو اختراع الأمل.» هذه وظيفة الشعر، ليس لشعر المترفع عن الحياة ذاتها، أو الموازي لها. بل الشعر القادم منها، الشعر الصاعد جمالياً من آلام الحياة ومن أوجاعها، ومن تجربتها الإنسانية العميقة.

باقة من زهور الشعر

لأن الشعر ليس حيادياً تجاه القضايا، فقد كانت اختيارات درويش في أمسيته الحيفاوية لها طبيعة مختلفة، فالشاعر المحموم، والمرتبك في لقاء مكانه الشخصي، وجمهوره الشخصي والحميم، غطت الكثير من الدواوين التي أصدرها في المنفى خلال ربع القرن الأخير. وتنوعت القصائد من دواوين «لماذا تركت الحصان وحيداً»، ومن «أحد عشر كوكباً على المشهد الأندلسي»، ومن «سرير الغريبة»، و«ورد أقل» ومن «جدارية».

هذا الطيف الواسع من الخيارات الشعرية، التي تعود إلى أزمان، وأطوار شعرية مختلفة، والى فنيّات مختلفة، أظهرت الشاعر وكأنه يرغب في تقديم كل نتاجه الشعري دفعة واحدة أمام الجمهور الذي فاض عن المسرح مرحباً بقدوم شاعره. وكان هذا التكريم للشاعر يستحق عناء تقديم الشعر كما يستحق الشعر أن يكون، بصوت الشاعر الجميل، نشيداً متواصلاً على مدى طويل من الزمن، غير الشاعر وغير جمهوره خلال عقود من التواطؤ على جماليات الشعر وضرورته والحاجة الملحة له في الأزمان القاسية، تواطؤ كان طرفاه الشاعر وجمهوره من أجيال متفاوتة. وآثر درويش أن يبدأ الشعر بقصيدة «على هذه الأرض» كُتبت في أواسط الثمانينات، وكتبها في المنفى، بلغة الحاضر على أرض وطنه، وقد قرأ درويش هذه القصيدة في أكثر من مكان عربي، ولكنها على أرض حيفا أخذت معنى مختلفاً وإضافياً، أن يقف الشاعر على أرض وطنه، وعلى أرض قصيدته ليتطابق المعنى مع المكان، ولو لبعض الوقت:

على هذه الأرض ما يستحق الحياة: تردد إبريل، رائحة الخبز في الفجر، أراء امرأة في الرجال، كتابات اسخيليوس، أول الحب، عشب على حجر، أمهات تقفن على خط ناي، وخوف الغزاة من الذكريات

❖ ❖ ❖

على هذه الأرض ما يستحق الحياة: على هذه الأرض سيدة الأرض، أم البدايات أم النهايات. كانت تسمى فلسطين. صارت تسمى فلسطين. سيدتي: أستحق، لأنك سيدتي، أستحق الحياة.

تأمل الموت

في كل أمسياته التي أقامها محمود درويش في العالم العربي تقريباً، قرأ مقاطع من جداريته، وهي القصيدة الأكثر اكتمالاً في تجربة الشاعر، قصيدة تأتي من ذروة التجربة مع الموت، ومن ذروة التأمل في الحياة، والحب، والموت، والفن، إنها البيان الشعري الملحمي الختامي لمحمود درويش الذي طلب في نهايتها قبر، وقبر فقط، هذا التأمل العميق للتجربة مع الموت، جعل الشاعر ينتصر على الموت بالفن، ولكن هذا النصر نصر موقت، لأن المصير محتوم لكل إنسان، ولكننا لا نصدق أن مصيرنا في النهاية سيكون إلى قبرنا. وقراءته لمقاطع من الجدارية في كل أمسية كأنه يوزع جداريته على المدن التي يحب، والتي أحبته. ففي هذه القصيدة الطويلة الملحمية، تأمل الشاعر في الموت وفي موته الشخصي، وكانت من أجمل ما كتب، إذا لم تكن الأجمل على الإطلاق:

مثلما سار المسيح على البحيرة،
سرت في رؤياي، ولكنني نزلت عن
الصليب لأنني أخشى العلو، ولا
أبشر بالقيامة. لم أغير غير
إيقاعي لأسمع صوت قلبي واضحاً.

في ديوانه «لماذا تركت الحصان وحيداً» يكتب درويش سيرته الذاتية شعرياً، وهي في الوقت ذاته سيرة شعب، وسيرة وطن. وهو الديوان الذي صاغه درويش ببنية روائية أكثر من صياغته كديوان شعر، وطرح فيه العديد من التساؤلات، وصوّر فيه تناقضات فيها من خصوصية التجربة الكثير الذي يرفعها إلى مرتبه الأسطورة. وفي عودته إلى حيفا، كانت المناسبة لأن يقول لمن سَلَب وطنه وبيته:

سلّم على بيتنا يا غريب.
فناجين قهوتنا لا تزال على حالها.
هل تشمّ
أصابعنا فوقها؟ هل تقول لبنتك ذات
الجديلة والحاجبين الكثيفين
إنّ لها صاحباً غائباً،
يتمنى زيارتها، لا لشيء...
ولكن ليدخل مرآتها ويرى سره:
كيف كانت تُتابع من بعده عمره
بدلاً منه؟
سلم عليها إذا اتسع الوقت...

كان لقاء الشاعر محموماً مع جمهوره الخاص، كان يجتاح الجمهور فرحٌ وغصة ورغبة في البكاء، كلها مجتمعه في آن، وكان المكان ضربته الأسطورة من جماليات الشعر ومن حاجة للبوح الشخصي للشاعر العائد، والاستماع من جمهور هو «ملح الأرض» بلغة درويش، والارتفاع إلى هذا المستوى، لا يلبيها سوى الشعر الرفيع.

قرأ الشاعر ساعتين من جمالياته إلى جمهور تلقى هذه الجماليات بالكثير من الحب، وقال الشاعر وجمهوره، ما زال الشعر ممكناً وضرورياً، بل وملحاً أيضاً. والدلالات التي حلّقت فيها أمسية حيفا، جعلت كل اللغط الذي دار حولها يتصاغر حتى تلاشى. ولكن بقي هذا اللغط علامة نافرة على التعامل مع الرموز الفلسطينية، وسهولة التعدي عليها، فلم يعد هناك محرم. وفي هذا الواقع الكابوسي، يصبح حماية الرموز واحدة من المهمات الأكثر إلحاحاً، لأنها هي التي توحد أصحاب الوطن.

لم تصب الحملة محمود درويش الرمز الشعري الفلسطيني بسوء، الذي حوّل فلسطين إلى قيمة شعرية جمالية عالية، من المستحيل أن تؤثر عليها أقلام حاقدة، ولكنها للأسف أصابت رموزاً أخرى، وهو ما يبعث على الحزن والأسى.

رماديات عبدلكي

من الهامش.. إلى المتن!

علي الكردي

تستعصي أعمال يوسف عبدلكي الغرافيكية على القراءة، خاصةً إذا أردنا مقاربتها من وجهة نظر انطباعية. لا تدعي امتلاك أدوات الناقد التشكيلي وحصافته، وعلى الرغم من ذلك فهي أعمال تستفز المشاهد، وتحرضه على مغامرة الخوض في غمار سياقاتها، وتركيباتها، وعناصرها المكوّنة التي تنهض على لغة بصرية. تعلن منذ البداية تفرّد صاحبها، وتميّز تجربته الإبداعية التي حفرت مسارها على مدار أكثر من ثلاثين عاماً، حتى باتت عنواناً هاماً له مساحته الخاصة في المشهد التشكيلي السوري والعربي على حدٍ سواء.

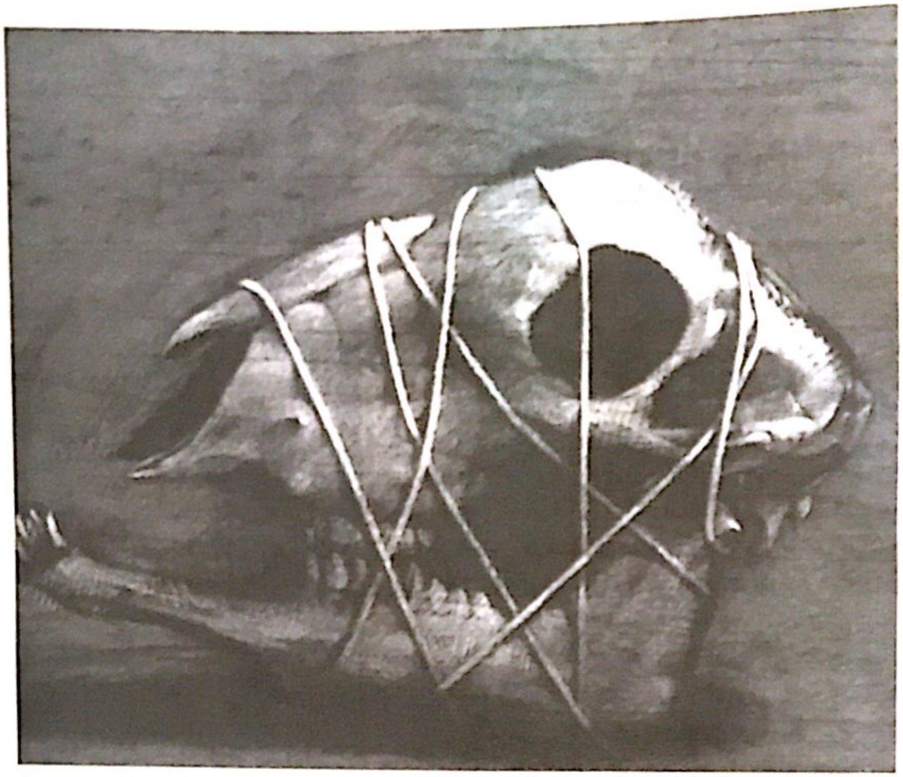
أعتقد أن الهاجس الإبداعي لعبدلكي، منذ بدايات تجاربه الأولى كان ينحو باتجاه خلخلة القواعد والمعايير المتعارف عليها، وإعادة صياغتها وفق منظوره الخاص، دون أن يعني ذلك إخلاله بالنسب الهندسية، أو القواعد الجمالية التي يستمد المنتوج الفني مشروعيته من خلالها. وللدلالة على ذلك نعيد للذاكرة أعماله عن دمشق القديمة التي عرضها في المركز الثقافي الروسي في مطلع سبعينيات القرن المنصرم. في تلك الأعمال قدّم عبدلكي عمارة البيوت الدمشقية القديمة بخطوط مختزلة، وبتلخيص شديد، وبالتالي قدّم رؤيته الجمالية وحميمية ارتباطه الروحي بهذه البيئة بشكل مثير للدهشة، وبعين ثاقبة كشفت جماليّة تلك الجدران المتهالكة، المائلة التي تتكئ على بعضها بحنوٍ شديد، مستخدماً الأبيض والأسود.. والتناقض بين العتمة والضوء ليبرز ثراء هذه العمارة وقيمها التشكيلية والجمالية، بعيداً عن تصويرها الفوتوغرافي، بوصفها محاكاة للواقع كما هو.

في أعماله الغرافيكية اللاحقة، على اختلاف تقنياتها، سواء كانت في الحفر على الحجر، أو الزنك، أو النحاس، أو الحبر الصيني على الورق، وبشكل خاص في «مجموعة الخيول / ١٩٧٣ – ١٩٨٠»، انتقل عبدلكي إلى مرحلة جديدة برزت خلالها قوة امتلاكه لأدواته سواء لجهة قوة الخط الذي يحدّد ملامح اللوحة، أو الشغل على الظلال وتدرج الأبيض والأسود.. أو قوة التكوينات، والقدرة على التأليف التي تمنح لوحته دلالات متعددة،



تتيح إمكانية قراءتها على مستويات مختلفة، فإذا كان الحصان – كما هو شائع – رمزٌ للحرية والجموح، والانطلاق في فضاء فسيح. فقد كانت بعض أعمال مجموعة «الخيول» تعطي هذه الدلالة، كالحصان المكبل الذي يشرئب رأسه في مساحة العتمة، وفي لوحة أخرى نرى كبوة حصان رأسه غارق في العتمة، يكافح بكل قوته لكي ينهض نحو الضوء، لكن عبدلكي لم يقف عند هذه الدلالة الرمزية الشائعة للحصان، بل عمل من خلال تحوير الشكل (شكل الحصان) إلى إعطاء دلالات أخرى مضادة له، وهنا تبرز قدرته الإبداعية على التأليف، وتحوير المضامين بتحوير الأشكال، فرسَمَ الحصان الرمادي المضاد كرمز للوحشية، والعنف، والقسوة، وتطورت هذه المرحلة بإدخاله عناصر جديدة راحت تكتنز بها لوحته التي باتت مليئة بالرموز المركبة: الإنسانية والحيوانية والتراثية، بالإضافة إلى مفردات حميمية من حياتنا اليومية التي اغتال القمع جمالياتها.. كل هذه العناصر المركبة كانت تحتشد في لوحته، وتتجاور دلالاتها المتناقضة جنباً إلى جنب. في لوحة «كل صباح / حفر على الزنك / ١٩٨٦»، نرى انسياب الخطوط اللينة للرجل المكبّل والمرأة المقموعة، تتجاور مع الخطوط الحادة لرأس الوحش الذي يخيّم على مائدتهما الصباحية، وفي لوحة «الروح القدس تبارك رجلاً يتوضأ في باحة البيت / حفر على النحاس / ١٩٨٧»،





ـرى ملحمة درامية من الصراع الدامي ـن رموز متناقضة في فضاء اللوحة التي تحتشد بالمفردات التشكيلية التي تحتاج كل ـحدة منها إلى قراءة تأويلية، لكن الأكيد ـ اللوحة لا تخفي هويتها الواضحة ـتي تتحدث عن صراع في زمان ومكان محددين، وفي الآن ذاته مفتوحة على ـضاء إنساني عام.

مجموعة أشخاص

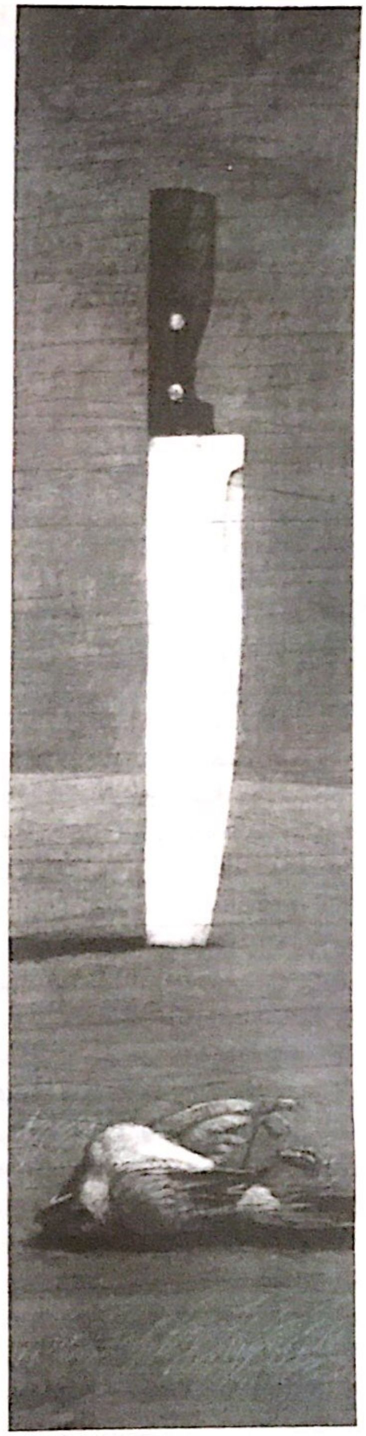
في مجموعته الغرافيكية «أشخاص ١٩٨ - ١٩٩٥» غاب الحصان وحضر الإنسان، لكن أي إنسان هذا طالما أن الفنان قادر على تحوير الشكل بمهارة فائقة، وبالتالي تغيير الدلالات؟! في هذه المجموعة يبرز العنف، وتتجلى القسوة في أكثر أشكالها حدّة، وبروح تهكمية ساخرة، وقد توزعت أعمال هذه المجموعة بين الأبيض والأسود (حفر) وبين لوحات ملونة (تقنيات مختلطة + باستيل)، لكنها توحدت بدلالاتها الرمزية التي نسجت تنويعات متعددة على ذات الموضوع.

طبيعة صامتة..؟

في مجموعته الأخيرة تحت عنوان «طبيعة صامتة..؟ / ١٩٩٥ - ٢٠٠٧» (فحم على ورق) التي شاهدنا قسماً منها في معرض خان أسعد باشا، وقسماً آخر في معرضه الأخير في «غاليري أيام»، يمكن وضع خطين تحت كلمة «طبيعة صامتة..؟»، لأن أعمال تلك المجموعة تطرح سؤالاً مشروعاً على المتلقي، وهو بالفعل سؤال محيّر: هل ما نشاهده في اللوحات هو طبيعة صامتة، تحاكي تشكيلياً مفردات موجودة في الواقع، كالأكواب، والزجاجات الفارغة، وعلب السردين والأسماك والأزهار الميتة؟! أم ثمة أبعاد أخرى تختبئ خلف هذه الأشكال يريد عبدلكي تمرير أو بث رسالة من خلفها، وفي هذا السياق إذا كانت اللغة البصرية بأبعادها الفنية والجمالية هي لغة قائمة بحدّ ذاتها، وبالتالي لا تحتاج إلى التأويل الكلامي لكي تصل مدلولاتها إلى المتلقي، فهل يكتفي عبدلكي في هذه المجموعة بالشغل على اللغة البصرية؟! يبدو لي أن الأمر مركباً، وأكثر تعقيداً من ذلك، فإذا كان عبدلكي في هذه المجموعة من أعماله أكثر استرخاءً، إلا أننا لا نستطيع القول: أنه غادر كلياً مراحله السابقة المحملة بأثقال العنف والقمع، والصراعات الدامية، وإن تكن أعماله الأخيرة بدت أقل قسوة، وإلا لماذا نرى السمكة الميتة مثبّتة بالمسامير، والجمجمة مقيّدة بالسلاسل؟! أو القبضة المقطوعة وكأنها حيّة ومشدودة الأوتار؟!



بعض القراءات التي تناولت أعمال عبدلكي قالت: «إنه يريد تحريك الطبيعة الميتة، لا الصامتة»، وهو قادر على ذلك من خلال امتلاكه لأدواته التي تؤهله اللعب باقتدار على تدرجات الأبيض والأسود،



وظلالهما في كل ملم من لوحته، الأمر الذي يكسبها الغنى والجماليات. مثل هذه القراءة قد تضيء جانباً من المسألة، لكنها لا تعطي الجواب الكافي على السؤال الأساسي الذي يظلُّ محيراً. فهل نحن أمام إشكالية «السهل - الممتنع» الذي يستعصي على الإجابة؟!

الفنان الناقد أميل منعم في مقاربته لأعمال عبدلكي، قدم إضاءات يمكن أن تكون مفاتيح مهمّة لفهم وتذوّق تلك الأعمال على نحو أدق، إذ على الرغم من أن أعمال عبدلكي تثير الدهشة لدى المشاهد، وتستحوذ عليه بدقة تكويناتها، وقوة خطوطها، وغنى ظلالها، وجمالياتها، وبالتالي تفرض نفسها عليه، دون الحاجة إلى أي تأويل إضافي، لكن إذا ما أردنا تجاوز مرحلة الدهشة والإحساس الشعوري باللوحة إلى البحث عن أبعادها، وإدراك ماهية هذه الأبعاد على مستوى الوعي، للوصول إلى المغزى العميق الكامن خلف تلك الأعمال، لا بد من الاتكاء على بعض المفاتيح لاستجلاء ما انغلق منها.

يبدو أن عبدلكي في أعماله الأخيرة، تقصّد عن سابق وعي وتصميم تحطيم «المقاييس الكلاسيكية المحدّدة لإطار اللوحة طولاً وعرضاً»، وبالتالي تجاوز النسب الهندسية المتعارف عليها، باعتبارها قانون يقدّم لكل موضوع ما يناسبه من حيّز بصري «يشكّل فيه موضوع الرسم مركز اللوحة وغايتها» كما يقول إميل نعيم، بيد أن هذه المغامرة لا يستطيع أي فنان أن يقدم عليها ما لم يكن واثقاً أولاً من سيطرته على أدواته سيطرة كاملة، تمكّنه من اللعب الحر على مساحة اللوحة، وبالتالي إخضاعها إلى تصوّره الخاص، سواء لجهة بناء اللوحة، ومعمارها الفني، أو لجهة الدلالات التي يوذ بثها بناءً على هذا التصوّر.

من المفيد الإشارة هنا، إلى أن عبدلكي الذي درس وعاش في فرنسا فترةً طويلة من الزمن، قد أشبع نظرياً، وبصرياً، وثقافياً من خلال الإطلاع والاحتكاك على تجارب الغرب، ومدارسه الفنية المتنوّعة، لكنه في الآن ذاته أصرَّ بعناد شديد على أن يكون له صوته المتفرد، وبالتالي يمكن القول: أن صيرورته الفنية مرّت بمخاض معقّد من المسارات إلى أن وصلت إلى هضم وصهر كل هذه التأثيرات، وإعادة إنتاجها وفق رؤيته ومنظوره الخاص للأشياء، الذي يمنح لوحته هويتها الشرقية بامتياز، لكن المدهش في هذا السياق أن نرى ملمحاً من ملامح تأثيرات الفلسفات الشرقية، بمخزونها التأملي.. الروحاني تفعل فعلها في أعماله الأخيرة. وبالتالي تشكّل خلفية، أو مرجعية من مرجعياته، حيث يبرز اهتمامه الشديد بتوضّع الشكل ضمن حيّز كبير من الفراغ، لا بل يمكن القول: أن اهتمامه بالفراغ الذي يغني فضاء اللوحة، لا يقل عن اهتمامه بالشكل الذي يتوضع في متن اللوحة، وهذا الأمر يتسق مع اهتمامه بنقل النوافل، أو المفردات الهامشية في حياتنا إلى متن اللوحة، وبالتالي تسليط الضوء عليها ليبرز مفاتنها، حيث يصبح الشغل على غصن، ونصل سكين، أو فردة حذاء، أو علبة سردين أو رأس سمكة ومسمار معقوف هاجس أعماله الأخيرة، وبهذا المعنى يمكن أن نفهم لماذا قال منعم: «إذ يحرف الفنّان مفاهيم عن أنساقها المعتادة ويقوّض في نسيج الواقع بعض مسلّماته، تبدأ لوحته بالاكتناز».

من الجرأة بمكان أن يحوّل عبدلكي مسماراً معقوفاً إلى لوحة تشكيلية تكتنز بالجمال والدلالات، ولنا أن نتصوّر صعوبة البناء المعماري الفني على تلك المفردة الفقيرة يقول منعم: «لقد أنشأ الفنّان لوحة من لمعة بيضاء في مربّع أسود. من مسمار مغروز ومعقوف على مستطيل مظلم وخلفية أشد ظلمةً. والمسمار لبساطة شكله المتناهية وضحالة قيمته، يصعب الرهان عليه ليقوم برهاناً على المهارات الفنية، حيث لا تداخل مساحات ولا تجاويف ولا تنوّع سطوح ومستويات تسمح له بالإفادة من التدخلات الحرفية التي تغنيه بالحركة والظلال ليشع ويضطلع بعبء المساحة الطاغية. لكن المسمار، رغم ذلك، يملك قابلية اكتناز المعنى. يستمده من تاريخ ثري تسبح في فضائه ذكريات طويلة عن التعذيب والقسر والمقاومة والصلابة، وهي ما تمنحه جدارة الحضور».

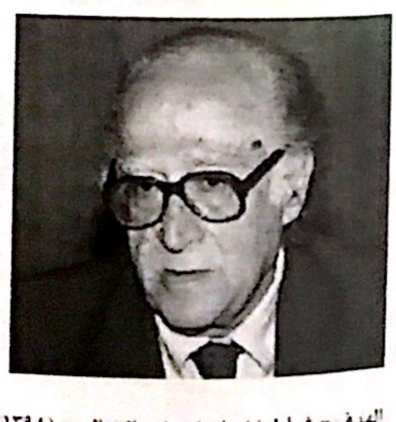
من المؤكد أن عبد لكي في رحلته الأخيرة «طبيعة صامتة..؟»، لم يغادر مراحله السابقة كلياً، ولعل اللوحة الطولانية المهداة إلى «جميل حتمل» تبثُّ رسالةً بهذا المعنى أكثر وضوحاً من سابقتها، فضمن إطار عمودي مغلق من الجانبين، تتموضع الأشكال مفصحةً عن سطوة العنف، ودرامية الموت، عندما ينغرز نصل السكين المعدني اللامع على السطح الغارق في عتمته. هذا النصل النازل بقوة من الأعلى، شبيه بالقدر الذي لا رادّ له، وهنا يبرز التأليف الذي يحمل المعنى من الكتلة النقيض التي تتموضع في أسفل اللوحة على شكل طير يحمل من الهشاشة والطراوة واللطافة ما يبرز التضاد الحاد مع عنف نصل السكين اللامع الذي يشي بوقوع الجريمة بمواربة تنقذ اللوحة من مباشرتها.

إلى أين وصلت أحلام الرواية الفلسطينية؟

د. فيصل دراج

حلم الفلسطينيون طويلاً بالعودة إلى وطنهم المغتصب، وحوّلت ذاكرتهم الأرض السليبة إلى ـس مفقود. وربما تكون الرواية هي الكتاب الواضح، الذي سجّل أحلام اللاجئين، واعداً برجوع ـر وباستئناف زمن الأجداد القديم. بيد أن هذه الرواية، التي ساوقت الفعل الكفاحي ولازمته، ما ـ أن اصطدمت بواقع حزين مغاير، أملى عليها أن تتخفف من الأحلام شيئاً فشيئاً، إلى أن استبدلت ـحلام القديمة عالماً من الأنقاض والكوابيس.

في مطلع ستينات القرن الماضي، وكان الفلسطينيون قد شرعوا ببناء «منظمة التحرير»، كتب ـسان كنفاني روايته: «ما تبقّى لكم»، ـعدا بشمس ساطعة تغسل آثار الليل ـيين. استولد الروائي، الذي استشهد ـ السادسة والثلاثين من عمره، بطلاً ـهبياً في مقتبل الشباب، مزوّداً بذاكرة ملتهبة وقلب جريء، ودفعه إلى الصحراء، كي يواجه عدوّه وحيداً. كان في «الصبي الواعد» من النزاهة والشجاعة ما أقنع الأرض بالتعاطف معه، وما جعل السماء ترنو إليه بعطف، إلى أن التقى بعدوّه ونازله وصرعه مع مطلع الشمس. صاغ كنفاني بطله من الشباب والنقاء، ومنحه النصر مع بزوغ الشمس، قائلاً بطور جديد من حياة الفلسطينيين يندفع إلى مستقبل مكلّل بالورود. عاد كنفاني إلى مجاز الشاب الواعد في روايات لاحقة، مثل «عائد إلى حيفا» و«أم سعد» وانصرف إلى تأمّل بطله الذهبي، إلى أن حسمه موت غير عادل.



أقام غسان كنفاني خطابه الروائي على جملة من التعارضات التي لا تقبل بالمصالحة: فالعودة هي البديل الوحيد عن الخروج، والبندقية هي نقيض الخيمة الذليلة، والحرية هي الخيار الذي لا بدّ منه في مواجهة الموت، والفدائي فلسطيني جديد شعاره المعركة المنتصرة. أصبح الحاضر، في هذه التعارضات، هو المستقبل الجميل الكريم، وغدا المستقبل هو الماضي الأمين الذي كان، وصار «اللجوء» فترة مريضة في طريقها إلى الشفاء. كان الفلسطيني الآخر جبرا إبراهيم جبرا، قد شرع بكتابة رواية أخرى، تغاير رواية غسان بالأسلوب، وتتفق معها في الإعلان عن يقين الفلسطيني المنتصر. وإذا كان غسان قد استولد يقين الانتصار من وحدة الفلسطيني والبندقية، فقد ذهب جبرا إلى طريق آخر، يكون الفلسطيني فيه ضمان انتصاره، اعتماداً على صفات نوعية تحقّق لحاملها ما شاء من الرغبات والأحلام. اقتنع جبرا في «صيادون في شارع ضيّق» روايته الأولى بعد الخروج، كما في روايتيه «السفينة» و«البحث عن وليد مسعود»، بفلسطيني قريب من «الإنسان الكامل» أو «الإنسان الأعلى»، يعمل ولا يخطئ ويرغب ويصل إلى ما رغب به. فبطل جبرا، المسكون بأطياف القدس، متعلّم واسع الثقافة ثري ووسيم تتهافت عليه النساء وصاحب إرادة لا تلين. بل إنّه حامل رسالة ثقافية، لأنّ على «نكبة الفلسطينيين» أن تخرج العالم العربي من سباته وتضعه على مشارف زمن حضاري غير مسبوق. صاغ جبرا بطله من عنصرين: عنصر تاريخي مقدّس مرجعه القدس، وعنصر مرغوب يدلّل على صفات الفلسطيني اللازمة من أجل العودة. بيد أن اطمئنان العنصر الثاني إلى الأول، أو سيادة الأول على الثاني، هو الذي جعل من انتصار بطل جبرا أمراً محسوماً، كما لو كان الخروج من فلسطين مجرد اختبار عابر يخرج منه الفلسطيني مظفراً بلا نقص.

عرف الفلسطينيون، إلى جانب غسان وجبرا، ما عرف يوماً باسم «أدب المقاومة»، الذي كان أدباً وعظياً تبشيرياً وظيفته المنتظرة «توزيع الأمل على الذين يفتقدون الأمل». وبسبب هذه الوظيفة كان على الرواية أن تنسج فلسطينياً فاضلاً مبرأً من الخطأ والخطيئة، وأن ترى في كفاحه وقتاله حكاية سعيدة، هي حكاية الخير الذي يصرع الشر في النهاية. ولعلّ هذا التجريد، الذي يحتفي بالكلمات ولا يسأل عن مواضيعها، هو الذي جعل «أدب المقاومة» لا يقرأ الفلسطيني في إمكانياته الحقيقية ولا يعنى بالعدو والتعرف على إمكانياته. وربما تكون سحر خليفة هي التي خرجت، منذ البداية، على هذا التجريد ورفضته، ذلك أنها جعلت من تحرّر المرأة عنصراً ضرورياً لـ «التحرر الوطني» وأعلنت، بلا التباس، أنّ موقف الفلسطينيين من المرأة لا يزال تقليدياً كما كان، فلا هو متحرّر ولا يعد بتحرّر قريب أو بعيد.

بعد «عملية السلام» اكتشف الفلسطينيون أن أحلامهم الكبيرة غادرت مواقعها، وأنّ البنادق لا تقود بالضرورة إلى النعيم، وأنّ دليل المسافرين يخادعهم ويخرج عن الدرب حين يشاء. وهذا الانتقال من زمن الأحلام إلى زمن الكوابيس هو الذي دفع بسحر خليفة إلى كتابة عملها الكبير «الميراث»، الذي تأمّل ميراثاً فلسطينياً وطنياً واسعاً تبدّد في الهواء، فلا الأرض رجعت إلى أهلها، ولا أهل الأرض يعرفون ما يريدون، ولا ما تبقّى من الأرض يلبّي الأحلام، صغيرة كانت أم كبيرة. ذهب «الصبي الواعد» وانتهى زمنه، وجاء زمن الخيبة برواية جديدة، حيث رواية إبراهيم نصر الله «تحت شمس الضحى» تتحدّث عن السماسرة، وروايته «زيتون الشوارع» تصف تداعي القيم وهزيمة الأهداف الكبيرة أمام المصالح الذاتية.

كان إميل حبيبي في روايته «الوقائع الغريبة لاختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» قد حوّل جميع الإجابات إلى أسئلة، مطلقاً قهقهة مدوية، تسخر من الإجابات الجاهزة وتترك كل شيء معلّقاً في الهواء.

السينمائي خيري بشارة:

إنجازاتي أصبحت وراء ظهري!

سعيد البرغوثي

السينما خطاب ثقافي بامتياز



خيري بشارة واحد من ألمع أسماء الموجة الجديدة في السينما المصرية، التي أتت بعد جيل المؤسسين للواقعية أمثال صلاح أبو سيف، ويوسف شاهين. تتلمذ خيري بشارة على يد يوسف شاهين حيث عمل معه مساعداً للإخراج في أفلام كثيرة ولكنه اختط لنفسه خطاً جعله مخرجاً متميزاً بين أبناء جيله مثل علي بدر خان، ومحمد خان، وداود عبد السيد.

ورغم أن خيري بشارة ابتدأ بسينما واقعية أنجز عبرها مجموعة من أهم أفلامه أبرزها فيلم الطوق والإسوارة، إلا أنه بدأ منذ مطلع التسعينيات بالتجريبي السينمائي الذي أنجز من خلاله (ايس كريم في جليم) و(حرب الفراولة) في محاولة للوصول إلى منطقة وسطى بين الجماهيرية والالتزام. إلا أن شانه شان أبناء جيله وصل إلى جدار مسدود مع موجة استهلاكية في السينما المصرية جرفت في طريقها أحلام هذا الجيل.

مع السينمائي المتميز خيري بشارة كان هذا اللقاء..

❖ سؤال السينما سؤال مؤرق. فالسينما تقدم خطاباً ثقافياً وجمالياً بامتياز. وهي أيضاً إحدى أدوات التغيير. أنت صُنفت كأحد أعلام المخرجين الجدد الذين قدموا سينما بديلة في فترة معينة، وحققوا نقلة نوعية في السينما المصرية كان لها رؤيتها وخطابها على صعيد الشكل والمضمون. يرى الكثيرون أن الحياة السينمائية في مصر قد تراجعت، كما غابت في بعض البلدان العربية. برأيك السينما المصرية إلى أين؟

❖❖ جيلنا أتى لا ليتكلم عن العناوين والقضايا الكبيرة، بل عن الناس العاديين، كما كان الأمر مع القوة الجديدة في فرنسا، والسينما الحرة بإنكلترا والسينما التشيكية الجديدة. هناك توجهات كانت تبحث عن حكايات لم تتناولها السينما من قبل، جماليات أفلامنا أنه. ربما. لأول مرة أتت بمواضيع أو مناطق جديدة ظهرت على الشاشة.

❖ أين مشروعكم الآن؟ وإلى أي مدى اقتربتم من الناس العاديين ولامستم همومهم. وإلى أي مدى وصلتم إلى مشاهد عادي أنتم معنيون به كما ذكرت؟

❖❖ مخرج من نوعنا لا يمكن أن يكون مقيِّماً أو ناقداً للتجربة، لأننا بشكل طبيعي غير راضين عن إنجازنا أياً كان، بالعكس، بالنسبة لي إنجازاتي أصبحت وراء ظهري رغم أنها استقبلت بشكل جيد، أنا الآن لدي أحلام لتجاوز ما صنعته. فكما خرجنا للعلاقات ما بعد ٦٧، وتماس لما حدث في العالم في العصر الذهبي في الستينيات، عبر السينمات التي تحدثت عنها، علينا طرح السؤال، الآن عماذا نتكلم، الآن هناك ما يجمعنا بالعالم من حولنا، الآن أستطيع القول بشكل أو بآخر، بوعي أو بدون وعي، بغضب أو بدون غضب، بتمرد أو بدون تمرد، علينا تجاوز العصر السابق للنكسة، وجميع الأمور والتركيبة التي خلقت النكسة.

❖ إنجازاتك السينمائية كما تقول أصبحت وراء ظهرك، ولديك أحلام تتجاوز ما صنعته، ما هي أحلامك وما الذي تطمح لصنعه؟

❖❖ أنا من المولعين منذ منتصف التسعينيات بالتكنولوجيا، وفي هذا السبيل أنا «رايح جَيّ» للحصول على أدوات تصلح لسينما مستقلة تماماً، وفي الوقت نفسه متابعة الشركات والجهات المشتغلة التي تصنع سينما مستقلة «أندرجراوند»، ولدي مشروع فيلم عن الأجانب في مصر نعمل على ترجمته، وهو فيلم درامي. تجربة أمريكا في هذا السياق هامة على صعيد ضرورة تحديث أدواتي في مصر، كاميرات أقل وزناً وأكثر كفاءة، كذلك أدوات الصوت، فأنا عملت مسلسلات من أجل المادة والحياة، ولا أستطيع أن أعمل السينما التي أريدها في هذا العمر إلا إذا كانت مستقلة لا تعني أي منتج، وخارجة عن حساباته، وأنا مهاجر إلى أمريكا لهذا الغرض.

عندما عملنا سينما زمان، عملنا حكاياتنا نحن، الآن لدي حكايات جديدة بحكم الزمن، أريد أن أقدمها بطريقتي، وأنا مستقل.

❖ تحدثت عن أمريكا، وأنك مهاجر إلى هناك، داود عبد السيد تناول موضوع الهجرة ناقش ذلك عبر فيلمه الهام أرض الأحلام، وطبعاً عارض الهجرة وانتهى إلى أن أرض الأحلام هي تلك التي تحقق شرطاً إنسانياً ولم يجده في أمريكا كيف تنظر إلى ذلك؟

❖❖ عندما قلت هجرة لم أعن ذلك بالمعنى المعروف للكلمة، الهجرة كلمة صعبة على أي كان، ولكن أي انتقال هو حالة هجرة، أنت ألست على هجرة كفلسطيني؟

❖ ولكن هناك هجرة قسرية، وهجرة اختيارية؟

❖❖ هجرة اختيارية بأي معنى، كلما

تكتشف أن ما يجمعك مع البشر أكثر مما يفرقك، أنا أشعر بتوحد مع أي انسان في العالم، سواء كان هندياً، أو ألمانياً، لا يوجد لدي تأثر بما يحكمني قديماً، أنا الآن لدي توحد مع الناس، أعتبر أن الأرض كلها ملكي، لست معنياً بأمريكا بحلقات السياسة، معنياً ببوش، أنا معني بأن هناك وهناك تكنولوجيا متقدمة جداً، لماذا لا أستفيد منها، تكنولوجيا عالية سابقى متخلفاً، إن لم أستفد منها. أنا ممكن أن أعيش في أي مكان، الوطن عندي حالياً أينما كان، طبعاً لا يعني ذلك أنني أبيع الذين عاشوا معي وكان لهم معي تاريخ، وربما في يوم ما أقرر أن أعيش في فلسطين.

❖ في الهجرة وجهان، الخطاب والتلقي. أنت تتكلم في سياق الهجرة عنك أنت، ولكن ماذا عن الآخر. هل أنت قادر عبر أدواتك على مخاطبة ذلك الآخر المحكوم بطاحونة إعلامية استطاعت أن تبرمج العقل وتشوّهه، وتبعده عن القضايا الإنسانية التي تحدثت عنها؟

❖❖ لا أستطيع أن أدعي أنني قادر على ذلك. ولكن لا أحد يعرف حظه القادم، ولكن لدي أجندة فيها بعض من ذلك الخطاب وبعض من التلقي الذي تحدثت عنه. وفي سبيل ذلك أعيد التأكيد أنني أعمل لتهيئة الظروف لأكون مستقلاً، وأعبر عن نفسي بحرية. أما الخطاب فهو مشروعي الذي أنا ذاهب به لطرح وجهة نظري، كمصري عربي له تركيبة ثقافية معينة. أكيد أن لدي خطابي الراهن، مع ضرورة تجاوز الخطاب التاريخي القاصر الذي لم يصنع شيئاً.

دعني أعود لسؤالك، من هو الآخر، الآخر بالنسبة لي ليس حصراً الغرب، الآخر هو من يتناقض مع تفكيري الحر، ومع إيماني بالتقدم والحرية، الآخر هو أي كائن يريد أن يشدني إلى الوراء سواء كان في المنطقة التي أعيش فيها، أو في الغرب، الآخر هو المناقض لقيمي والكابح لتقدمي..

❖ ألا ترى أن المنطقة برمتها تتعرض إلى عملية شد إلى الوراء على كافة الأصعدة، ما هو دور الفن بمعناه العميق بتشكيل ممانعة لهذا الشد؟

❖❖ كنت أظن في السابق أن بعض أفلامي ممكن أن تكون عامل تحريض وتغيير، ولم يحصل لا التحريض ولا التغيير. للأسف الصراع بشع جداً وقد يستمر لعقود عبر جيل أو جيلين، ولكن عليك أن تلحظ أن أوروبا عاشت ألف سنة في الظلام كي تخرج إلى عصر النهضة، نحن نعاني منذ عدة عقود، وذلك ليس مخيفاً، وأعتقد أن ذلك سينتهي بعد فترة ليست طويلة، لا سيما وأن عوامل الكبح بأطيافها المحلية والعالمية لا يوجد في جعبتها مشروع للخلاص. عدة عقود مدة قد تبدو طويلة بالتاريخ الشخصي، ولكنها ليست كذلك بالنسبة للإنسان بمعناه الواسع.

❖ أنت كسينمائي أفترض أنك لست مهتماً بانجازاتك فقط، بل تطل وتتابع أعمال الآخرين. في سياق اهتمامك بتطور العملية السينمائية، ما هي المحطات أو العلامات أو المبدعين الذين تركوا عندك أثراً ما؟

❖❖ برأيي أبرزهم غالب شعث، أنجز أعمالاً تسجيلية هامة، وأنجز فيلماً وحيداً في مصر عنوانه «ظلال على الجانب الآخر» عن قصة لمحمود دياب، وإذا شئنا الكلام عن سينما مختلفة، فواحد من المهمين جداً، بل أبو التجديد في السينما العربية هو يوسف شاهين، يأتي بعده جيل على رأسه السينمائي قيس الزبيدي، شاهد مثلاً فيلم اليازرلي، لقد كان الزبيدي في ذلك الفيلم على درجة كبيرة من الجرأة، وليست الشجاعة في الفيلم فقط وراء أهميته فالزبيدي قدم سرداً سينمائياً مختلفاً وسرداً بصرياً مختلفاً، قيس الزبيدي مهم على صعيد السينما الروائية والسينما التسجيلية. فيلمه اليازرلي الذي أشرت إليه كان بمنزلة بيان سينمائي بصري لسينما عربية مختلفة، وأعتقد أن الزبيدي طرح بفيلمه هذا سينما جديدة تطمح لأن تشاهد عالمياً وليس محلياً فقط.

❖ ماذا عن السينما في فلسطين؟

❖❖ السينما الفلسطينية كاي سينما فيها تجارب أخذت بالخط المباشر الذي فيه الكثير من السذاجة، ولكن هذا ربما كان من إفرازات خصوصية مرحلة دفعت باناس مواهبهم محدودة، ولكننا نجد النضج والعمق قدم سابقاً واحداً مثل غالب شعث، والآن ميشيل خليفي، ومشهراوي.

❖ المعروف على صعيد الرواية أنك تشهد ميلاد مائة روائي في حين تشهد ميلاد ناقد واحد، وهو لا يستطيع صنع رواية، على صعيد السينما هناك جيش من الممثلين، والتمثيل العظيم برأيي ولا أعرف إذا كنت تتفق معي في ذلك، هو الصدق في الكذب، ماذا عن المخرج، هل بمقدوره أن يكون ممثلاً، أو هل بالضرورة أن يكون قادراً على التمثيل؟ وكيف ترى الممثل؟

❖❖ لقد كنت بالأساس مشروع ممثل وليس مخرج، ولكن أدركت مع الوقت أنني لست ممثلاً جيداً، ولو كان لدي في أحد أعمالي ممثلاً مثلي كنت أضربه «بالكرباج». الممثل حالة مختلفة، يعيش الشخصية بقدر من التلقائية، وعبر الاحتراف الشديد والموهبة هو قادر على تادية ما هو مطلوب منه وهو على وعي بما يحصل مع الآخرين دون أن يعيق ذلك من حالته الخاصة، وذلك عبر درجة عالية من الخبرة الطويلة، فهو قادر على السيطرة على أدواته، فيؤدي الحالة وهو واع لما يدور حوله.

❖ ماذا عن تجارب بعض الفنانين السوريين الذين شاركوا بأعمال تلفزيونية وسينمائية في مصر مؤخراً، هذه الظاهرة قوبلت بارتياح من قبل البعض، وباستهجان ورفض من آخرين كيف تنظر إلى ذلك؟

❖❖ أنا الآن في حالة (كوزموبوليتانية)، وعندي رغبة للعمل في أي مكان في العالم العربي، وأرى أنه ليس هناك حدود، أكبر صناعة سينما في العالم هي في أمريكا، الذين يعملون هناك من كل الدنيا بما في ذلك نجوم عرب، وإيطاليون، وبولنديون.. أنا أرى أن ذلك يصنع ثراء، نعم هناك ثقافة مشتركة عربية، ولكن لكل بلد خصوصية ما. أنا الآن أصنع مسلسلاً ونادراً ما أسمع انتقاداً أو رفضاً لوجود فنانين سوريين في مصر، الناس المنزعجون هم ربما غير موهوبين، أو هم عاجزون. في حين أرى أن ذلك طبيعي. ولكنني كنت أتمنى أن يأتي ذلك في ظروف طبيعية، وليس بأن هناك دوراً في مسلسل أو فيلم، أعرضه على نجم مصري «فيقرفني»، ولكي أغيظه أجيء بنجم سوري، فأنا أتمنى أن يتم ذلك ضمن توجه. لماذا مثلاً لا أجيء وأصنع مسلسلاً أو فيلماً في سوريا، بحيث لا تكون الدراما محكومة جغرافياً بالأحداث، بل جزء أساسي بتشكيل الأحداث. لذا أرى أن تلك الظاهرة إيجابية جداً، وأتمنى أن تتمدد لتطال أقطار عربية أخرى. هناك ضرورة للتفاعل بين مختلف التجارب والإمكانات الإبداعية والفنية العربية، عندما نتكلم عن همومنا وصراعنا مع الغرب، لا نتكلم عن صراعنا الحقيقي، عن ضرورة احترام التنوع، واحترام التفاعل ضمن إطار التنوع.

فيصل حوراني في حنين العودة

قراءة حسن شتيوي

فيصل حوراني ذلك الإنسان الفلسطيني غير العادي، حامل الهم، والآمال والآلام لبني جلدته... ابن اللجوء والاغتراب... الكاتب والروائي المبدع، مرهف الحس، جميل العبارة والمفردة البسيطة المنتقاة ذات الدلالة المعبرة الواضحة. هكذا قرأناه من خلال كتابه «دروب المنفى» حيث أخذنا بحسه المرهف ودقة وصفه لتفاصيل تفاصيل حياة الفردوس الفلسطيني ما قبل النكبة - على الرغم مما ابتلي به من انتداب بغيض واستيطان صهيوني مبكر، لقد طاف وتطوف بنا مع هجرته القسرية، وهو ما زال غضاً يافعاً، وكدنا نقول أنه يصف حالنا نحن أبناء النكبة، نحن الذين نلنا نصيباً كبيراً من المعاناة والحرمان والتشرد وما زلنا... اليوم نعود ونقرأ للكاتب والإنسان «فيصل حوراني» كتابه الجديد «حنين العودة» حيث يعود للوطن بعد سبع وأربعين سنة، والوطن هنا ليس بلدته «المسمية» التي ولد وترعرع فيها، ولكن إلى الوطن المجزأ والمحتل.

لقد رأى المسمية كعابر سبيل، ومن على بعد، وهو في طريقه إلى غزة، حيث هناك الأم والأخوة. لحظتها دارت به الدنيا سنوات كثيرة إلى الوراء، أحسّ أنه جسد بلا روح، يسبح في الدروب الضيقة المتشعبة وأخطارها، رغم كثرة الأمكنة وتبدلها، حتى لو كانت أجمل الأمكنة التي تؤدي للانشراح حتى تجده مكابداً أوجاع الفراق في سنوات الغربة تلك.

هي حكاية المأساة في العودة التي تعادل مأساة اللجوء.. لم يعد يدهشه أي شيء في الغربة أو يثير فضوله سوى مكان واحد يخصه، يحس أنّ كل ما في هذا المكان يخصه لوحده. تألم كثيراً في المنفى، تألم من اتفاق م.ت.ف مع إسرائيل، عارض ذلك الاتفاق غير المتكافئ... «يقول إنني: (لا أعارض الاتفاق مع العدو إذا ما وفرّ الاتفاق أسس حل عادل ومستقر) ص٨»، عارض الاتفاق لأنه لم يجد في الاتفاق أسس العدل والاستقرار، ولأنه يؤثر على مصير الشعب الفلسطيني لأجيال عدة..

في لقائه مع (ياسر عرفات) أبدا رأيه في الاتفاق والمغامرة بكل وضوح، وبدا عرفات واثقاً من أنه سيفلح في نهاية الطريق.

طرح الأخير العودة على فيصل.. وهو الذي لديه الرغبة في العودة إلى الوطن أياً كانت الظروف!.

كان خائفاً من سلوك ناس السلطة الفلسطينية، وسلوك السلطة - أيضاً - في استرضاء العدو، كلما أمعن في التضييق على حياة الشعب الفلسطيني، وكيف تردى الحال بحشر قادة الثورة بذات الأساليب التي استخدمتها السلطة ضد المناضلين.

لقد طال الانتظار للحصول على إذن العودة.. وبقي صاحبنا أسير مضاضة مضاعفة، وزاد من تهجمه على السلطة بشخص عرفات، فزاد عليه الضغط مضاعفاً بسبب كتاباته وهجومه على السلطة، لكن ما هي إلا لحظة حتى رنّ الهاتف إليه من جهة أمه... قائلاً «لن يرجعوني إليك يا أمي!».

ذلك ما زاد الأسى لدى الأم أكثر فأكثر. قالت الأم: رباح هنا.. وأنت هناك، تريدان أن تقيما الدين في مالطا بعد أن فسق الجميع، ص٢١.

أصدقائكم يجمعون المال، ولهم الجاه، وأنتما تعاندان. «رباح مهنا» أخو فيصل من أمه.. بعدما تزوجت أمه برجل بعد موت أبي فيصل.

رباح السياسي: يختلف في الموقف عن فيصل... هو أحد زعماء الرفض معارض لأوسلو ومعارض لكل تسوية مع إسرائيل.

وموقف فيصل السياسي أخر موافقة عودته إلى غزة... مما اضطره للاستعانة بصديقه أسعد عبد الرحمن يحثه على المساعدة لعودته إلى الوطن.

قالت الأم: «تعدني ولا تجيء؟!»..

- قال: لا، هذه المرة أنا في الطريق إليك.. إنني قادم..

رحلة العبور الشاقة إلى الوطن تستولد العنصرية القبيحة وسلوكها على الجسر.. ولهب الغور.. والتفتيش استغرق ساعات طويلة، أصابه الهاجس..

أحس رجل المخابرات بهواجسه.. فقال له: ما اسمك؟

اسمي، وعمري ومهنتي على الأوراق أمامك!!

قال الضابط: أود معرفة رأيك في اتفاق «أوسلو»؟

«هي مشاغبة الأمن.. الاستفزاز.. التحقير..إذن»!!

ردّ فيصل: رأيي لن أعرضه أمامك، وهل ترغمني الاتفاقية على البوح بما عندي...؟!

ازداد حيرة وقلقاً فيصل.. أبقته الحيرة في مقعد الانتظار ومرّ الوقت كأنه دهر..

ولم يقطع حيرته إلا نبرة شرطية الحاجز موجهة القول له:

«سكر شنطة... شو أنت ما بتفهم...»؟!

هذه التفاصيل خلقت لديه الانفجار..

وهذه الوقفة بما فيها من سطوة، تعني حتمية عدم تصالح الوضع مع الواقع إلا بزوال الاحتلال..

تنهد فيصل وهو ينظر إلى السماء: العودة إلى الوطن موجعة والخروج منه موجع كذلك، مطالباً إليها كي تتدخل لفض الاشتباك الداخلي الذي تولد عنه..

كل ما كان يفكر فيه لحظتها هو لقائه بأمه.. إنه وجهاً لوجه أمامها.. أطلقت زغرودة.. (هاهت) بكل ما جادت به قريحتها.. ورقصت أمامه، أذهلت كل من كان حولها.. احتضنته وأخذت تتفحص كل مكان في جسده حينها قالت: «أستطيع الآن أن أموت وأنا مرتاحة البال، ص٥٥».

كما عليه أن ينسى «المسمية»، وأن يحل من ذاكراته معضلة ازدواجية الوطن. لأن الوطن المعروض عليه لا يشبه الوطن المستقر في الروح.

خلق كل هذا لدى الكاتب هاجس المكان.

أحس رباح بما يعتريه، قال: «هنا غربة جديدة، لكنها داخل الوطن»!!

قالها عرفات له: «هل ترى كم هي جميلة غزة؟»..

ابق هنا في غزة، إنها حكاية التائه الفلسطيني المشتت في كل الأمكنة حتى وإن كانت لا تتشابه أبداً.. حكاية الفلسطيني العائد عبر الحواجز الإسرائيلية، إنه الوطن الذي نبحث عنه، هو الوطن الذي نشأ في الروح.. وطن هو الأعظم بين الأوطان.

حنين العودة صادر في دمشق عن دار كنعان للدراسات والنشر عام ٢٠٠٧

دمشق عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٨

جسر للتواصل مع ثقافة الآخر!

...يق إلى «دمشق ٢٠٠٨»، كانت ...ة بالتساؤل حول أي «عاصمة ...فية»، يريد القائمون على هذه الاحتفالية.. أهي ما كُتب هنا في ...حيائها وحاراتها الضيقة، وحول أسوارها؟ بمعنى هل ينبغي أن تعكس الاحتفالية ثقافة محلية فقط، وأن تحتفل بمنجزها هي لا بمنجزات أخرى على أرضها؟ وكان الجواب غير بعيد. يأتي. وللمفارقة من حارات دمشق وأزقتها وأبوابها وساحاتها. فكم احتضنت المدينة على مرّ العصور من أديان وشعوب ولغات وأفكار.. أما أن تكون دمشق عاصمة للثقافة العربية. فقد بدا ذلك من نافل القول لمدينة استقبلت على الدوام أعلاماً في الفكر والثقافة والأدب. من ابن خلدون وابن عربي والجواهري وعبد الرحمن منيف وسواهم.

في الاحتفال الشعبي الضخم الذي أعلن عن بدء فعاليات الاحتفالية، جاءت الرموز لتؤكد تلك الدلالات. بدءاً من «اللوغو» المزخرف الذي يجمع في دلالته بين التراث والمعاصرة، مروراً بمهرجان الفرح الكرنفالي الذي تضمن ألعاباً نارية وإضاءة لايزرية وعربات كرنفالية وألعاباً بهلوانية على أنغام موسيقية تركّز بعضها على الروح الشامية، وامتزج بعضها الآخر مع الموسيقا الالكترونية العالمية، وأخيراً بالافتتاح الرسمي الذي ضمّ كبار الشخصيات العربية. إذاً يأتي الجواب من تاريخ دمشق من المدن المضيئة على خريطة العالم. سيرتها ممزوجة بسيرة أولئك الذين عاشوا على أرضها في ظلال قاسيون، وعلى روافد بردى.. في ظل حاراتها وعماراتها وأسواقها وخاناتها، وفي ظل رائحتها المميزة..

ذلك هو الخيار، أن تعيش دمشق في قلب العالم، مثلما كانت دائماً في قلب التاريخ، والجغرافيا، والسياسة، وبالطبع لن تكون المدينة وحدها في القلب، بل ما تعنيه المدينة من رموز ودلالات مجتمعة.

احتجّ بعض الإعلاميين على البرنامج الذي أعلنت الأمينة العامة للاحتفالية د. حنان قصاب حسن عن بعض جوانبه بالقول: هناك ميل إلى الاحتفاء بثقافة الآخر – الغربي أكثر من الاحتفاء بالثقافة العربية، وردّت الأمينة بالقول: نبحث عن التوازن بين الفعاليات المحلية والعربية والدولية، لنؤكد المعنى الذي ذهبنا إليه.

وقد أعلنت د. قصاب حسن عن آلية العمل التي انتهجتها الأمانة في التحضير لفعاليات الاحتفالية وتصوراتها عن هذه الآلية، وأكدت على الرغبة في إنجاز أوسع مشاركة ممكنة للجمهور السوري بكافة شرائحه. ولتحقيق ذلك وزيادة تفاعل الناس مع النشاطات المقامة ستضم الفعاليات عروضاً فنية وموسيقية ومسرحية ستُقام في الساحات العامة والشوارع والمدارس،



وعلى متن قطار دمشق – حلب خلال رحلاته بين المدينتين.

من جهة أخرى أكدت أمينة الاحتفالية على أهمية التنمية الثقافية المستدامة كهدف أساسي للاحتفالية، وعلى الأخص التوثيق والتدريب والتأهيل من خلال ورشات العمل التي ستقام على هامش الأنشطة والفعاليات للفنانين السوريين الشباب في مجالات ثقافية عديدة، ومن خلال المنح الإنتاجية لهؤلاء الشباب لدعم نتاجاتهم الابداعية على مستوى السينما والمسرح والرقص التعبيري، وأفلام الرسوم المتحركة لمساعدتهم في إنتاج وترويج أعمالهم الإبداعية.

مؤتمرات وملتقيات

سوف تشكل المؤتمرات والملتقيات حدثاً ثقافياً مميزاً يطمح إلى استقطاب عدد كبير من المفكرين والباحثين والمتخصصين في شتى ميادين المعرفة والثقافة، والغاية زيادة الحراك الثقافي خلال الاحتفالية، ومنحها بعداً أكاديمياً توثيقياً، ولعل أبرز المؤتمرات المدرجة في البرنامج مؤتمر «المثقف وقضية المصير العربي»، ومؤتمر حول «المدينة والتراث العمراني»، وآخر عن الآثار ومفهوم «المدينة من ماري إلى دمشق»، إلى جانب العديد من الندوات والمحاضرات في مجالات متعددة، ولعل



من أبرز المدعوين إلى هذه المؤتمرات: نعوم تشومسكي، وإيزابيل الليندي، وميلان كونديرا.. الأمر الذي يعطي بعداً عالمياً للاحتفالية.

وقد تأكد هذا التوجه بإعلان الأمينة لافتتاح آخر للاحتفالية سيجري في قصر الحمراء في مدينة غرناطة الإسبانية، حيث يُقام حفل موسيقي للمغنية السورية الشابة وعد حسون مع فرقة إسبانية ستقدم أشعار ابن عربي للتأكيد على البعد الأندلسي – الأموي الحضاري بين البلدين.

بيت السينما

تحت عنوان «بيت السينما» ستُقام على مدار العام أسابيع سينمائية تقدم روائع الفن السابع، لمخرجين محليين وعرب وعالميين، تتوج بندوات ولقاءات مع مبدعي الأفلام. ولأول مرة سيخصص مهرجان للأفلام الوثائقية، سوف يستقطب عدداً كبيراً من صنّاع هذا النوع من الأفلام من كافة أرجاء العالم، وستقام تظاهرات سينما الهواء الطلق، وورشات عمل للسينمائيين الشباب، وعروض لأفلام سورية روائية مقتبسة من أعمال أدبية تناولت مدينة دمشق، والتحولات التاريخية التي طرأت عليها.

خير جليس

من باب تشجيع القراءة، وردم المسافة بين القارئ العادي والكتاب، سوف تصدر عن الأمانة سلاسل مختارة في مختلف حقول الإبداع بطبعات شعبية وأنيقة وبأسعار رمزية، سيعنى بعضها على نحو خاص بالإبداع السوري الجديد، وفي إطار توثيق الشعر السوري، سوف تصدر أنطولوجيا في أربعة أجزاء تغطي تجارب كل جيل على حدة، إلى جانب ذلك ستخصص سلسلة لأعمدة الأدب السوري، الرواد منهم على نحو خاص، بأقلام نقاد متخصصين، وسلسلة مذكرات لشخصيات هامة إلى جانب كتب تاريخية تعنى بمدينة دمشق، ستصدر عن الأمانة ترجمات إلى عدة لغات أجنبية لعدد من الروايات تمثل توجهات وأجيال الكتّاب الروائيين السوريين.

فعاليات موسيقية

اللافت في برنامج الاحتفالية المساحة الكبيرة الممنوحة للموسيقا العربية والشرقية والعالمية، فعلى مدار العام هناك حفلات للموسيقيين السوريين، أفراداً وفرقاً افتتحها الموسيقي السوري المهاجر عابد عازارية بحفلين الأول في دمشق والآخر في حلب، وستشارك في العروض الموسيقية الأوركسترا الوطنية، وأوركسترا ماري السوري، وأوركسترا دمشق لموسيقا الحجرة، وستكون للمرأة مشاركتها من خلال فرق العازفات، أو حفل مغنيات الأوبرا السوريات، كما ستكون هناك أمسيات للموسيقا الروحية تقدم في شهر رمضان المبارك، وستخصص أيام للأغنية العربية، وأخرى للموسيقا الشرقية التقليدية والمعاصرة ومن بينها حفلات للتونسي لطفي بوشناق، وفرقة الحفني المصرية، وعبد الله رويشد (الكويت) وفريدة العلي (العراق) وصباح فخري (سوريا).





كذلك ستخصص أيام للموسيقا المعاصرة العالمية (البوب، الروك الموسيقى الالكترونية، الجاز، الموسيقا المجددة، موسيقا العالم.. إلخ). وسوف يُتاح لعشاق الموسيقى فرصة الاستماع إلى أنواع الموسيقى الافريقية واللاتينية والأندلسية والموسيقا الكلاسيكية وموسيقا عصر الباروك، وهناك حفلات ستجمع ما بين الموسيقى والتمثيل المسرحي بالإضافة إلى عدة أعمال أوبرالية من سورية عالية المستوى ستكون فرصة للموسيقيين السوريين لاكتساب خبرة عالمية، سواء عن طريق ورشات العمل مع الفرق المستضافة، أو من خلال المشاركة مع تلك الفرق المدعوة.

عروض مسرحية وأخرى راقصة

سوف تشهد دمشق خلال ٢٠٠٨ إضافة إلى العروض المسرحية السورية التي قامت بانتقائها لجنة من المختصين، عروضاً مسرحية عربية، وأخرى عالمية لأسماء معروفة على الصعيد العالمي، كالعرض المسرحي الغنائي الهنغاري (هاملت – النورس) للمخرج أرباد سيللنغ، وأوبرا كارمن وهي من إنتاج فرنسي – سوري مشترك، وعرض للمخرج البريطاني بيتر بروك بعنوان شظايا عن نص لصموئيل بيكيت.

وسيقدم المخرج اللبناني روجيه عساف ومواطنته اللبنانية نضال الأشقر، والتونسي فاضل الجعايبي والأردنية سوسن دروزة عروضاً مسرحية، وسيقدم البريطاني من أصل باكستاني أكرم خان عرضاً مسرحياً راقصاً بعنوان «جسور»، وسوف تتنوع أشكال عروض المسرح ما بين المسرح الموسيقي والشعري إلى المسرح البصري إلى مسرح الوسائط المتعددة كاستخدام الفيديو وفنون التجهيز البصري.

وفي سياق إعادة الاعتبار للنص المسرحي، ستقدم قراءات مسرحية إلى جانب ورشات العمل، والغاية منها دعم الكتّاب والممثلين الشباب والتعريف بهم ضمن علاقة تفاعلية مع الجمهور. وللأطفال حصة من النشاط المسرحي في إطار دعم مشروع المسرح التفاعلي مع الأطفال.



الفن التشكيلي

في إطار الفن التشكيلي، سيُقام معرض استعادي ضخم يهدف إلى حفظ الذاكرة التشكيلية في سورية، وفي هذا المجال حُفظت اللوحات رقمياً وسيكون المجال متاحاً أمام من يريد التزوّد بمعلومات عن تاريخ الفن التشكيلي السوري بالإضافة إلى إقامة معارض وندوات عن الخط العربي.

المفاجأة السارة بالنسبة للسوريين دعوة المطربة اللبنانية الكبيرة فيروز إلى دمشق بعد غياب استمر حوالي ثلاثين عاماً، بمسرحية «صح النوم»، الأمر الذي يتيح للسوريين استعادة أيام الحنين، عندما كان صوت فيروز يصدح على ضفاف بردى في احتفالات معرض دمشق الدولي السنوية.

هل ستكون الفعاليات على مستوى الطموح؟! هذا ما نأمله.. ونتطلع إليه..!

أيمن زيدان في عرض مسرحي لـ «داريو فو»

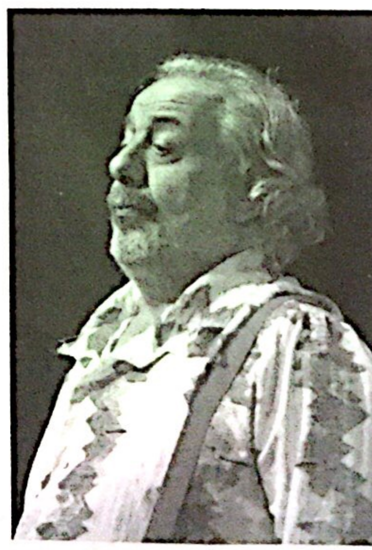
سوبر ماركت.. كوميديا الفارص الساخرة!

علي الكردي

يعتلي الفنان أيمن زيدان مجدداً خشبة المسرح بعد غياب طويل بوصفه، معداً، ومخرجاً، وممثلاً لنص الكاتب الإيطالي الساخر داريو فو «سوبر ماركت» الذي قدّمه زيدان مع الفنانين، شكران مرتجى، محمد حداقي، فادي صبيح، أسيمة أحمد، حازم زيدان على خشبة مسرح الحمراء بدمشق.

اللافت أن أيمن زيدان أعاد زرع نص داريو فو، واستنباته في البيئة السورية المحلية، وباللهجة العامية، ولولا بعض الإشارات كأسماء الشخصيات (جوليانو، أنطونيا، فرانكو..)، وبعض الأزياء التي تدلّل على المظهر الخارجي للشخصيات، وتحيل على النص الإيطالي الأصلي، لما شعرنا كمشاهدين أن العرض يستند إلى نص مترجم. وفي هذا السياق لا بدّ من تقدير الجهد الذي بذله زيدان لتقريب النص من روح ومزاج المشاهد السوري والعربي، لتحفيز خياله والتواصل معه، من خلال الحركة، أو النكتة، أو الإيماءة.





يمكن القول: أن أيمن زيدان نجح في جذب الجمهور الواسع (غير النخبوي) إلى المسرح، وبالتالي حقّق المعادلة الصعبة التي طالما جرى الحديث عنها حول أزمة المسرح، وغياب الجمهور المسرحي، دون أن يقع في مطب المسرح التجاري المبتذل، أو تغريبية المسرح الجاد العابس، الذي يتوجّه في خطابه، وتقنياته المعقدة إلى الجمهور النخبوي.

كوميديا - الفارص

ينتمي عرض «سوبر ماركت» إلى كوميديا - الفارص التي تستدرج الضحك والسخرية بالاعتماد على مفارقات درامية، وتصادم أفعال الشخصيات، وتناقض سلوكها وردود أفعالها تجاه أحداث معينة، فنحن أمام أسرتين عماليتين تعانيان الفقر المدقع بسبب غلاء الأسعار والفساد، والتهديد بالطرد من العمل، وبالتالي معاناة شبح البطالة والجوع.

أمام هذه الحالة المخيفة، تختلف ردود أفعال الشخصيات، فالعامل جوليانو (أيمن زيدان) له منظومة أخلاقية لا تسمح له بالرغم من الفقر والجوع الموافقة على سرقة الـ«سوبر ماركت»، وكذلك العامل لويجي (فادي صبيح) على الرغم من فجاجته، وتصادمه الدائم مع رؤسائه، ونقمته على رب العمل، ومطالبته بحقوقه، في حين يختلف رد فعل زوجتيهما أنطونيا (شكران مرتجى) وفرانكو (أسيمة أحمد) اللتان لا تتورعان عن نهب الـ«سوبر ماركت» مع نساء أخريات في فعل هو أقرب إلى الحالة الاحتجاجية منه إلى السرقة، رداً على شبح الجوع الذي يخيم على حياتهن.

تتصاعد المفارقات الكوميدية شيئاً فشيئاً مع كشف الشخصيات، وتناقض سلوكها، حيث تحاول أنطونيا إخفاء المسروقات من المواد الغذائية البسيطة عن زوجها، وعن دوريات الشرطة التي هرعت لتفتيش البيوت بحثاً عن المسروقات.

تعتمد اللعبة المسرحية في العرض على إسباغ صفات هزلية على الشخصيات لتستحث الضحك، فعلى سبيل المثال يصف جوليانو صديقة زوجته فرانكو (القصيرة والنحيفة) بعزق البقدونس، كذلك يجري التراشق بالألفاظ، والتوريات، والشتائم بما لها من قيمة ترويحية تجمع بين لذة التنفيس الفردي، وبين لذة تتبع الفعل والفعل المضاد بما في ذلك من ترقّب وإثارة لما سيؤول له الموقف، وتزداد الوظيفة الدرامية لهذا التراشق الكلامي، وتصبح أكثر إمتاعاً في المشاهد الأخيرة عندما تتشارك فيه عدة شخصيات مجتمعة، حيث يتحوّل إلى نوع من الردح، وفي هذا السياق يؤدي الردح وظيفة درامية تأتي كنتيجة منطقية لما سبقه من كشف الشخصيات جميعها أمام بعضها، حيث تتحدد مواقفها

...ن أن ندلل على ما سبق من ...ور أحداث المسرحية، حيث يطلب ...من زوجته تحضير طعام الغداء ... تقول له: لا يوجد عندنا شيئاً، ...ـعه علبة من مسروقاتها يقرأ ...ـها: طعام لذيذ ومغذ للكلاب، ...ـحتج على ذلك، تحضر له شوربة ...ـن) من مـأكولات الطيور، ... لأكل. وتحدث المفارقة حينما ... صديقه لويجي جائعاً. يتناول ... ويأكل منها بنهم وتلذذ، ولأن ... جائع أيضاً يتذوقها بقرف، لكنه ...ـها لذيذة بالفعل في تورية على أن ...الكلاب باتت أفضل من حال البشر.

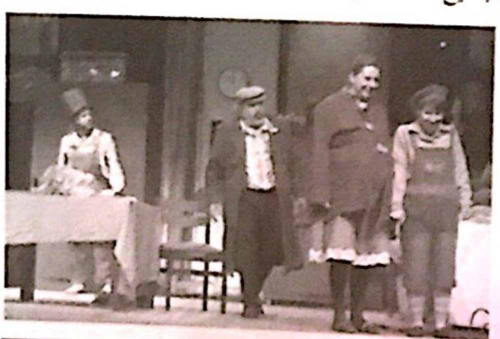
مفارقات

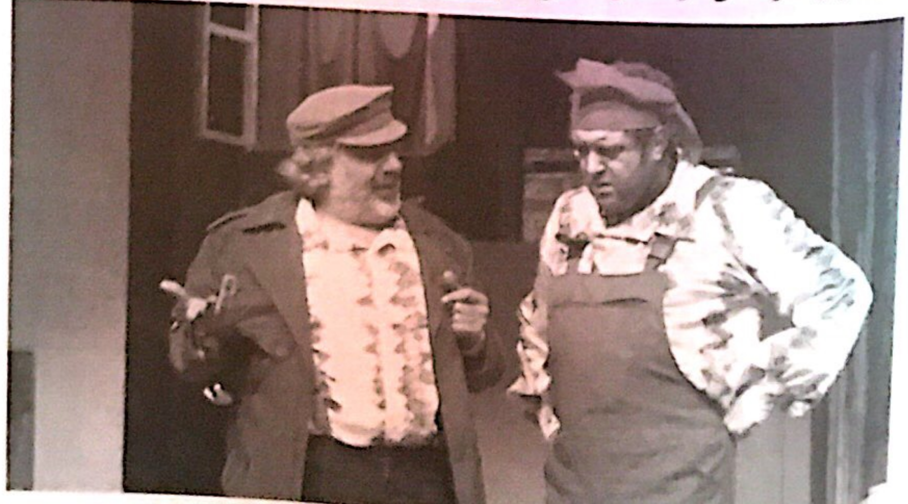
...عتمد المفارقات أيضاً على سوء ...ـفهم بين الشخصيات، لتبرير مواقف ...ـة حيث تخفي النساء المسروقات على ...ـطونهن ليظهرن أمام الشرطة أنهن حوامل. لكن هذا الادعاء لا يستقيم أمام ...زوجهن! كيف يمكن أن تنتفخ بطونهن ...بين ليلة وضحاها؟! وهنا يجري اللعب ...على هذه المفارقة، ويختلقن رواية عن ...إمكانية زرع جنين، ونقله من امرأة إلى أخرى وهو في الشهر الخامس أو السادس، الأمر الذي يستثير الضحك مع الإشارات والتوريات الجنسية المرافقة، وفي مشهد مضحك ينفجر كيس زيتون أثناء التدافع، حيث تتبلل المرأة من مياهه، وتتدحرج حبات الزيتون. يتساءل الزوج: ماذا هذا؟! فترد الزوجة: طلقت مية الرأس، وللإمعان في السخرية يتدخل الشرطي ويطلب سيارة إسعاف لمساعدة المرأة على الولادة في المشفى. فتصرخ المرأتان بالرفض لأن أمرهما سينكشف، لكن الشرطي يصر على أداء واجبه (الإنساني) لمزيد من السخرية.

يكتشف جوليانو مع تطور الأحداث حجم الفساد والتهريب والنهب من قبل المسؤولين، فيغير خطابه الأخلاقي الذي طالما تبجح به أمام زوجته، ويسرق مع لويجي بضعة أكياس أرز ومواد غذائية، ويخفيانها في تابوت حصلا عليه من حانوتي جهزه لجارهم المتوفى في المشفى لكي لا تتصيدهم الشرطة، وتزداد المفارقة حينما يريدان إخفاء مسروقاتهما عن زوجتيهما، في الوقت الذي تخفي فيه الزوجتان أيضاً مسروقاتهما عنهما، وتخفيان جثة الشرطي الذي أغمي عليه أثناء مداهمة البيت، فظننا أنه توفي.. لذلك تضعاه في الخزانة، وفي الوقت ذاته يخفي الزوجان التابوت في الخزانة دون أن يتنبها إلى وجود الجثة.

أمام هذه المفارقات، يزداد التراشق الكلامي الساخر بينهم، إلى أن يكتشف الجميع حقيقة الموقف، يقع التابوت، ويستيقظ الشرطي، وتتم المكاشفة بين جميع الشخصيات.







الفضاء المسرحي

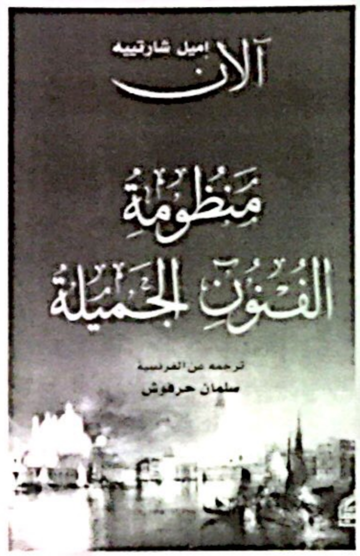
ديكور المسرحية باعتباره الفضاء المكاني للعرض كان ثابتاً، وهو يمثل بيت جوليانو وأنطونيا، حيث تجري معظم الأحداث، بينما جرت المشاهد الخارجية على طرف الخشبة، وفي مقدمتها في استبدال مكاني يوحي بالشوارع الخلفية للمنزل. كذلك يوحي الأثاث المتواضع للمنزل بالوضعية الاجتماعية الفقيرة للأسرة، حيث تبرز أنابيب الصرف الصحي بشكل مبالغ فيه، للإمعان في السخرية. مع استخدام صوت (السيفون) كموثر سمعي في بعض المشاهد مترافقة مع تعليقات لاذعة حول نوعية الأطعمة المتواضعة التي يتناولونها.

يؤخذ على أداء الممثلين أنه كان أقرب إلى الأداء التلفزيوني، وخاصة في القسم الأول من المسرحية، بينما تصاعد الأداء المسرحي في التعبير الجسدي الحركي والتلوين الصوتي في القسم الأخير من العرض المسرحي، وخاصة أداء محمد حداقي وشكران مرتجى اللافت.

لعبت الإضاءة دوراً تقليدياً في الانتقال بين المشاهد كأنساق مسرحية إضافية، وكذلك الأزياء والموسيقا والمؤثرات السمعية والبصرية وخاصة لجهة الألوان المضيئة التي أضفت نوعاً من المرح على العرض بشكل عام.

إصدارات

آلان شارتييه في منظومة الفنون الجميلة



نادراً ما يقع بين يديّ القارئ كتاب شامل، يضم بين دفّتيه مقالات معمّقة حول كل أنواع الفنون: موسيقا، مسرح، رقص، شعر، فنون تشكيلية، نحت، عمارة.. إلخ.

الكتاب الصادر حديثاً عن دار كنعان بدمشق ٢٠٠٨، بعنوان «منظومة الفنون الجميلة»، تأليف: الان إميل شارتييه وترجمة سلمان حرفوش، يجمع بأسلوبه الفريد، أسلوب الخواطر المتدفقة بعفوية وأصالة، إلى جانب مزيج من تأملات صاحبه الفلسفية والجمالية والأدبية والبسيكولوجية. كل هذه التنويعات، حيث يطوف إميل شارتييه عبر صفحات هذا الكتاب، على كل ما رافق الإنسان عبر مسيرة تقدمه من نشاطات جمالية في حقول تلك الفنون المتنوّعة.

يؤكد شارتييه في إنجازه الرائع هذا، على أن الخيال لا يولد من فراغ، إنما هو قيد الفعل والتشكّل بالترابط مع العمل: يواكبه، يتكيف معه، ويكيّفه في آن، ويؤكد أيضاً أن اللمسة الجمالية الإبداعية، حاجةٌ وشرط وتكوين عضوي، مثلما هي متعة، وإضافة وأسلوب.

وبهذا المعنى الكتاب هو: تأملات فلسفية، إنسانية، جمالية، يحمل روح مؤلفه وآفاقه الثقافية والمعرفية الواسعة في حقل الفنون الجمالية المختلفة.

سمر يزبك.. تفوّح «رائحة القرفة»!

دعت الروائية السورية الشابة سمر يزبك إلى حفل توقيع روايتها الجديدة «رائحة القرفة»، الصادرة عن دار الآداب في بيروت ٢٠٠٨، في فندق برج الفردوس بدمشق.



حضر حفل التوقيع عدد من الأدباء والفنانين والإعلاميين السوريين. يذكر أن هذه الرواية هي الثالثة لسمر يزبك بعد «طفلة السماء» و«صلصال»، وبعد مجموعتين قصصيتين هما: «باقة خريف» و«مفردات امرأة».

تحكي رواية «رائحة القرفة» عن علاقة ملتبسة بين سيّدة دمشقية من الطبقة الأرستقراطية بخادمتها الصغيرة القادمة من بؤس الأحياء العشوائية الفقيرة التي تحيط بالمدينة.

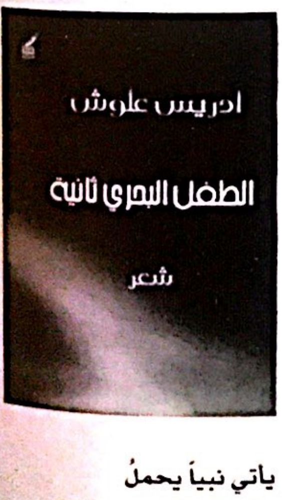
تغوص الروائية في عالميّ هاتين الشخصيتين. العالم السفلي المدقع الفقر بكل ما ينتج عنه من آلام وانحرافات وعالم الطبقة المترفة، ببريقه الخارجي الذي يخفي وراء مظهره المخادع شروخاً وحالات من العزلة النفسية التي تقود أصحابها إلى سلوكيات شاذة.

تتحوَل العلاقة بين السيدة وخادمتها إلى لعبة قوية تنقلب فيها الأدوار، حيث تمسك الخادمة بخيوط اللعبة، لتجعل منها المبرر الوحيد لشعورها بإنسانية مفقودة.

تقارب سمر يزبك في هذه الرواية خطوطاً اجتماعية حمراء، لتفتح بجرأة على عوالم لطالما كانت مغلقة وممنوعة الإشهار، لأنها تمس أكثر مكامن الوجع في روح الإنسان الخائف والمقموع.

كتبت سمر يزبك (إضافة إلى أعمالها الأدبية) عدة سيناريوهات لأفلام وثائقية ودرامية، ونالت الجائزة الأولى لأفضل نص في الأمم المتحدة ووزارة الإعلام السورية عن فيلمها «سماء واطئة».. وهي ناشطة في مجال حقوق المرأة.

طفل «إدريس علوش» البحري!



صدر للشاعر المغربي إدريس علوش مجموعة شعرية جديدة عن دار كنعان بدمشق بعنوان: «الطفل البحري ثانيةً»، ضمت مجموعة من قصائده التي تتميز بكثافة التعبير، ورهافة التقاط الفكرة التي تتوزع حول تأملات في الوجود والموت والحب والحنين في ومضات مدهشة. من أجواء المجموعة:

يأتي الطّفلُ إلى الشّطان
عارياً إلاّ منْ محَارة الحُزن
ومنْ كآبة الرّمْل../

يأتي نبياً يحملُ
رسَالة البحْر
ويَدنو منْ كلمات المَوْج!.

سجين من أجل حرية واستقلال فلسطين

ساهموا في الحملة لإطلاق سراح

أحمد سعدات

الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

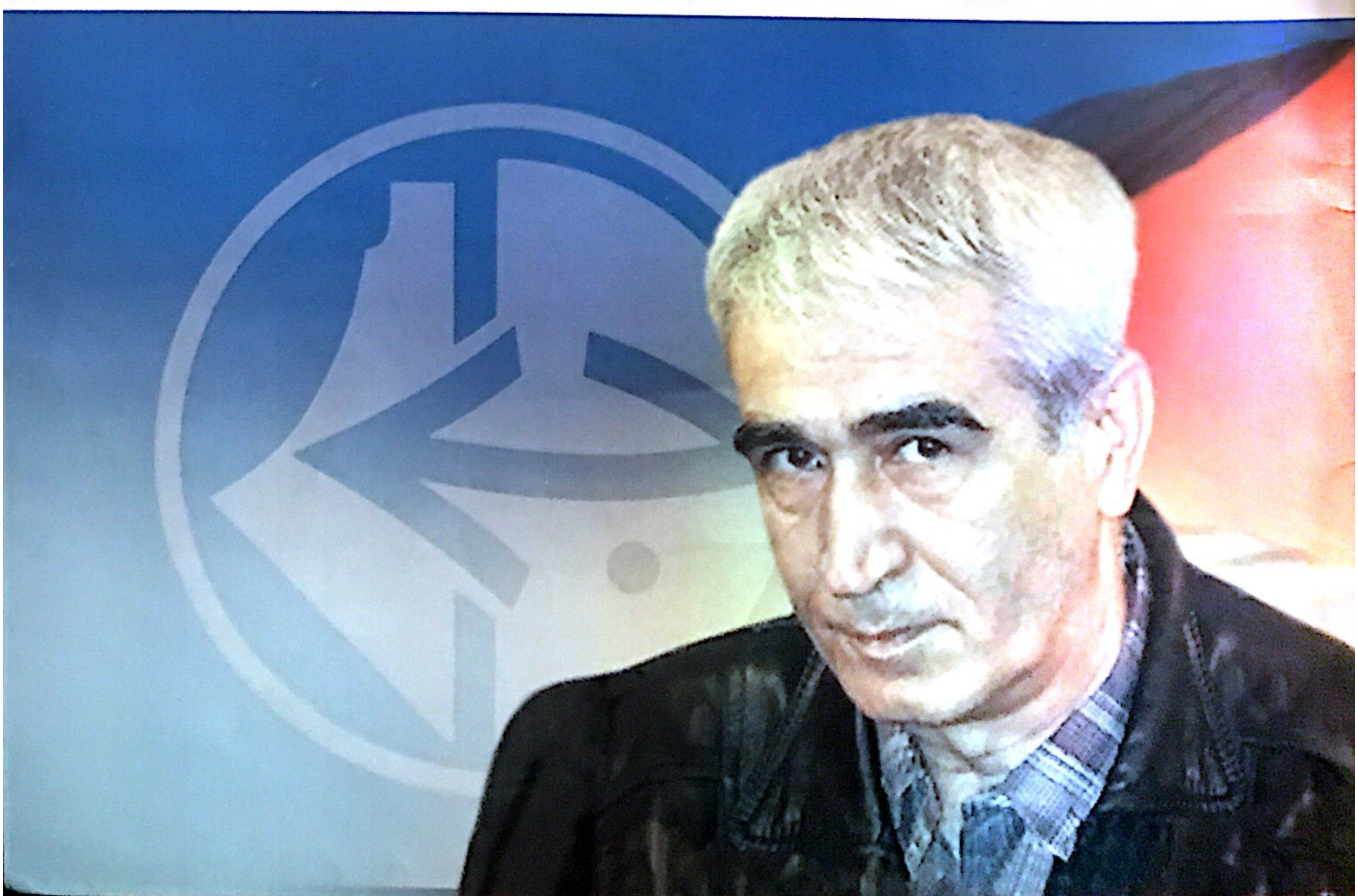
prisoners of freedom and independence of Palestine

Working together for the Freedom of

Ahmad Sa,adat

General Secretary of Popular Front for the Liberation of Palestine (PFLP)

للتضامن: http//www.pflp-sy.org freesaadat@yahoo.com



وداعاً يا حكيم

في مشفاه بعمان، وفي اللحظات الأخيرة مما تبقى له من حياة، أخذ قلبه يوشك على التقاعد من رحلة العمر، عقله في تمام صفائه، وضميره في الاستنفار الأخير، سأل الحكيم عن ثلاثة أمور: كيف حال أهلنا في غزة، كيف هي الوحدة الوطنية، وكيف حال الثوابت !!!

لم يسأل عن زوجته وبنتيه واحفاده، لم ينشغل بوصية شخصية عائلية، أو بأموال في البنوك، فرأسماله عمر كامل في خدمة فلسطين، ورصيده نظافة الكف، احترام الناس له، ومكانة رفيعة في ذاكرة الشعب والتاريخ.

يقول غسان كنفاني على لسان «أم سعد»: «خيمة عن خيمة.. تفرق»، وحياة جورج حبش تقول: طبيب عن طبيب.. يفرق!

لم يشأ جورج حبش أن يتكرس طبيباً للأطفال، أو أن يكون حكيماً (طبيبا) له عيادة، وبيت، وحياة عائلية هانئة وهادئة. اختار أن يكون حكيم الثورة، أن يعالج جذر مصائبنا: الاحتلال الصهيوني لفلسطين، وسار في درب الآلام: حياة النضال والتشرد والمعاناة.

جورج حبش.. إسم له قوة جاذبة، إسمٌ يرنُّ في الوطن والشتات، في المخيمات والقرى والمدن، في الجبال والأحراش. كم رافق اسمه الفدائيين في القواعد والمعسكرات، على المحاور والمتاريس، وفي الدوريات. كم لازم الهامه المناضلين في الأقبية والزنازين: أصمد يا رفيق، لا تخذل شعبك ورفاقك، وانتصر على جلادك!

مع رحيل الحكيم جورج حبش، نسأل: هل رحل آخر الكبار لدى شعبنا، آخر الشخصيات الفلسطينية التاريخية، هل ذهب الرمز الفلسطيني الأخير؟!

الشعب الفلسطيني، شعب الثورات، والانتفاضات، والبطولات، والتضحيات، هل سيكُفُّ عن ولادة الرموز؟! ليست المشكلة في الشعب، المسألة أكثر تعقيداً. الرمز لا يولد رمزاً. هو لا يكون، بل يتكون. وهل ليس ابنَ لحظة، بل ابنُ سياق. وشهادة جدارته ليست مرآة الذات، بل وجدان الشعب وصدى التاريخ.

يمكن أن يكون لدينا كثير من الأبطال، لكن ليس من السهل أن يوجد لدينا قادة ورموز. ليس الرمز بما يقوله هو عن ذاته، بل بما يقول الشعب عنه، ويسجل التاريخ له. ولا يوجد الرمز اعتباطياً، بالصدفة، أو بقرار يصدر في مساء حالك لنصبح مع رمز في صباح مشرق. القائد العظيم والشخصية التاريخية هو رمز لا يكون بحجم الأنا، والعشيرة، والحزب، بل بحجم الشعب والوطن والقضية. وفي ظل تراجع دور الفرد، وغياب الشخصيات التاريخية والزعماء «الكاريزميين»، ليس لنا إلا أن نرفع من دور المؤسسة والعمل المؤسساتي، أن نضع الانسان المناسب في المكان المناسب، نرفع سوية الجزء ونحرص على تكامل الأجزاء، فاللوحة بعناصرها، وعلينا أن نرى الشجرة والغابة.

جورج حبش كان يتمتع بثقافة الإصغاء، لم يكن من الأشخاص الذين يريدون مستمعين فقط، أو مصفقين فقط. تجد من اختلفوا معه، ولا تجد من اختلفوا عليه. وكان مبادراً وصادقاً حين أصغى إلى مبدأ التجديد وإلى قانون البيولوجيا، فلم يشأ أن يكون «أميناً عاماً» إلى الأبد، أو.. إلى القبر!

نعرف يا حكيم، كم كان حزنك عظيماً أمام كل انقسام، سواء كان في التنظيم، أو في المنظمة، أو في صفوف الشعب. فالقلاع لا تقتحم إلا من الداخل. وتعرف، ونعرف يا حكيم، كم دفع شعبنا ثمن انحراف البوصلة، وأن مبدأ «إعرف نفسك» لا يقل قيمة عن مبدأ «اعرف عدوك»، بل يفوقه قيمة.. ومرارة، وأن «المصيبة» التي تصنعها أيدينا لشعبنا أو أيدي الأشقاء ليست فقط فضيحة لنا و«بهدلة» لقضيتنا، بل هي عقبة في وجه علاج (النكبة) التي سببها الأعداء.

الشاعر أبو سلمى، زيتونة فلسطين، قال عن (أبو عمار) والحكيم: «الأول: زعيم بدون منافس، والثاني: الزعيم الحارس»!

د. عدنان جابر